السعادة .. هَاهُنا



رقم الإيداع

٢٠٠٩/٣٥٤٤

الترقيم الدولي

977-331-110-4



دار الإيمان للطبع والنشر والتوزيع

١٩،١٧ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - إسكندرية

تليفون وفاكس: ٥٤٥٧٧٦٩ ت : ٥٤١١٩١٠ - ٥٢٢٢٠٠٢

E-mail: dar_aleman@hotmail.com

الدكتور صلاح شفيع

السعادة .. هَاهُنا

من أدب التفكير الإيجابي

الطبعة الأولى

٢٠٠٩


بسم الله الرحمن الرحيم

إهـــداء..

إلى ابنتى الكبرى ..

ماجدة شفيع

التي جعلتنى أباً وأنا مازلت صبيا صغيراً

عندما تركها لى أبوها وعمرها عام واحد .

فتعلمت فيها حرفة الأبوة .

صلاح شفيع

مقدمة الطبعة الأولى

لم أخطط لإخراجه كتاباً، بل فوجئت به كتاباً مستوياً يلح عليّ في الخروج. فهى كلمات متناثرة كتبتها لطالبات في عمر السابعة عشرة، بناء على طلبهن.

كانت البداية مع أتوجراف تركته لى طالبة لأكتب لها فيه، لكنى كنت أنفر من الكتابة في الأتوجرافات، لما فيها من سيمترية واسطمبات رتيبة، يرددها القائل لهذه وتلك في شكل مسجوع لا يترك أثراً في نفس قائلها.

لذلك ؛ وعدتها بالكتابة، لكن بشكل مستقل، وأصبحت تلك عادتى لمن تطلب منى الكتابة أن أقدم لها كلمة مطبوعة تطول أو تقصر حسب الوقت المتاح لى وقتها، لكنى في كل الأحوال كنت أحرص أن تكون على شكل ملزمة. ولم يخطر في بالى أن تتجمع تلك القطرات لتصبح كتاباً، حتى وقعت كلمة منهن في يد أختى، فقرأتها وأبدت إعجابها بها، وطلبت جميع الكلمات التى كتبت من قبل لتقرأها.ولحسن الحظ إن هذه الكلمات كانت محفوظة بالكمبيوتر. فكان من السهل إخراج نسخة مجمعة من كل الكلمات تلبية لرغبة الشقيقة العزيزة. ومن هنا انبثقت فكرة إصداره في كتاب، بعد حذف أسماء البنات والإبقاء فقط على الاسم الأول منهن.

وثمة عوامل شجعتنى على إصداره، منها أنه تفكير إيجابي، نلهث وراء أمثاله عند الغرب، نترجمه ونحاول أن نضع مسحة إسلامية بدلا من مسحته الغربية المغتربة.

ومنها أن تتسع مساحة المستفيدين بتلك الكلمات، وخاصة أن خصوصية تلك

الكلمات هى ﴿ جوهرها عمومية ؛ لأن النفس الإنسانية واحدة، ولأن النموذج الخاص كثيراً ما يتكرر. فربما يكتب روائي عن بطل خاص فيجد أكثر من قارىء نفسه ﴿ هذا البطل.

كما أنها ردٌّ دين، فقد كنت دوماً أحب أن أقرأ حياة الأشخاص، لأنى معها أعيش حياة عاشها صاحبها فى عشرات السنوات ﴿ قراءة ساعتين هما مدة قرائتى لتلك السيرة الذاتية. أكتسب فيها خبراته وثقافته. فأضيف إلى عمرى عمره. واليوم جاء دورى لأقدم خلاصة تفكيرى ليكتسبه القارئ فى ساعتين، وهكذا الحياة أن نكون أشجاراً ترتوى من غيرها لتثمر لغيرها.

وقد فكرت كثيراً ﴿ تعديل الكتاب، وجعله منهجياً، لكنى ﴿ النهاية رضخت ليخرج كما كتب لأصحابه، بطينته، ولهذا أستميح القارئ عذراً من بعض التكرارات. وأستميح صاحبة الكلمة التى ربما عدلت ﴿ كلمتها قبل الطبع.

ولا يسعنى سوى توجيه الشكر لبناتى اللاتى كتبت لهن، فقد كان لهن الفضل الأول ﴿ ظهور هذا الكتاب. والحقيقة إنه لولا إلحاحهن علىّ بالكتابة ماخرج هذا الكتاب إلى حيز الوجود، لذلك أعتقد أن هذا الكتاب من تأليفهن، وأرى أن الشكر قليل عليهن، وأرجو أن يوفقهن الله، إنهن معادن من ذهب، ولا ينقص الذهب دائما إلا أن يعرف نفسه وكم تمنيت أن تكون ابنتى واحدة منهن.

و﴿ الختام أرجو ممن لم يسعفنى الحظ ﴿ الكتابة لهن أن يتقبلن عذرى، فإن كان الأستاذ يترك أثرا ﴿ نفوس طلابه، فثمة طلاب لا تنسى ولا تسقط من ذاكرة الأستاذ.

بلقاس ـ نوفمبر ١٩٩٩م،



مقدمة الطبعة الثانية

عجيب أمر هذا الكتاب. لم أشأ له أن يكون كتاباً. لكنه أصبح كتاباً. ولم أتوقع له كبير نجاح. فإذا به يكون أفضل كتبي شئت أو أبيت. ولم أنتو أن أعيد طبعه، فإذا به يفرض نفسه قبل كتب جاهزة ومعدة للطبع لم تأخذ نصيبها حتى في الطبعة الأولى .

هو حقاً الكتاب الصدفة. ورب صدفة خير من ألف ميعاد. خرج بطريقة غير متوقعة فإذ به يظفر برد فعل غير متوقع. على الأقل منى. فلم أجد ثناءً على كتاب لي ثناءهم على هذا الكتاب. ووجدت البعض يتهادونه. والبعض الآخر يضعه بجوار فراشه. تمتد إليه اليد عندما يشتد الحزن.

أخبرني صديقي الحبيب الدكتور على الدين عبد البديع القصبي الأستاذ في كلية آداب بجامعة جنوب الوادي أنه عندما كان في بعثة في فرنسا وتعرّف على صديق جزائري لم يجد خيراً منه ليهديه إليه. فإذا بالأخير يثنى عليه ويرسل إلي السلام.

وعندما كنت في دورة التويفل استعداداً لمناقشة الدكتورة أهديته إلى الدكتورة المحاضرة وكانت تعاملنا على أننا تلاميذ، فأهديت الكتاب إليها. ليتحول الحال. فلم تعد تعاملنى وحدي على أننى تلميذا. وفي كل محاضرة تشكرني عليه. وهنا لمست أن هذا الكتاب يصر أن يكون صديقاً مخلصاً لي يحقق لي ما لا أتوقعه. وكأنه يقول لي أنت لا تعطيني مكانتى التى أستحقها لكنى مصر أن أثبت لك أننى خير كتبك.

وعندما طلبت من الدكتور الفنان شريف العيسوى المقيم في السعودية أن يصمم لى غلافاً للطبعة الثانية، فطلب منى أن أرسل نسخة من الكتاب ليفهم مضمونه ويصمم على أثره الغلاف. فأرسلت له نسخة من خلال النت. فإذا به يرسل لى رسالة على المحمول: يقول لى الكتاب رائع ، وتعجبت فعهدي به لا يقرأ الكتاب. قال لى: كعادتى كنت أقرأ بضع صفحات لأفهم الموضوع وأصمم الغلاف لكنى كلما قرأت لم أستطع أن أتوقف. كتاب فظيع لا يمكنك أن تقاومه. وأشكره على تصميم الغلاف. وأشكر دار الإيمان بالإسكندرية التى رحبت بإصداره.

وهنا.. بدأت أفكر في مشاركة الآخرين تقديرهم له. وقررت أن أعيد طبع الكتاب وقد زدت عليه أمرين: الأول: أضفت إليه عدة فصول ، تجعل الكتاب صالحاً للجميع بنين وبناتاً. بعد أن كان الكتاب من قبل قاصراً في توجهه إلى البنات. فأصبح ثمانى عشرة كلمة بعد أن كان اثنتى عشرة كلمة. وجعلت الكلمة الأخيرة موجهة للقارئ العزيز.. أما الأمر الثاني فقد أضفت بعض القصص التى كنت أحكيها فأثبتها بنصها بدلاً من حكي مضمونها. وقد أضفت استمارة رأى في نهاية الكتاب فيها تعليق القارئ. يرسلها إلينا برأيه واقتراحاته من أجل أن يكون الكتاب في أكمل صورة.

وأرجو من الله أن يحقق هذا الكتاب هدفه. فيكون مشاركاً في صنع نجاح أبنائنا. أو إزالة حزنهم. فيرشدهم إلى السعادة.. فالسعادة ههنا.

صلاح شفيع

بلقاس - نوفمبر ٢٠٠٨م



الكلمة الأولى:

(الكلمة الأولى)

ومرت من هنا شيماء !

ومرت من هنا شيماء !

السعادة فى الحياة فن، قد لايدرك سره كبار الفنانين، فهناك فنانون كثيرون غير سعداء، وكثيرمنهم ينتحر. وسوف أخصص كلمتى لك عن هذا الفن وأسراره.

﴿ ١ ﴾

أعطى الله ﷻ الناس نعماً بدرجات متساوية، وما اختلافها إلا فى اختلاف تقييم الناس لتلك النعم، وتحديد درجاتها، لكن كما يؤكد الشيخ الشعراوي مُنِح كل إنسان نعماً بدرجات متساوية، لكن أحدهم قد يأخذ مالاً والآخر يأخذ صحة والثالث يأخذ بنين والرابع يأخذ سعادة. وقد يرى مالك المال أنه أشقى الناس حظاً ؛ لأنه مريض ولايقدر أن يتمتع بماله،وقد يرى مالك الصحة أنه أشقاهم حظاً ؛ لأنه لايجد شقة ولا ينال زوجة ولا يقدر أن يحصل على ما يريد.

وقد وقف أنور وجدي الممثل تحت عمارة الإيموبيليا وكانت فى وقتها أعلى عمارة فى مصر يأكل سندوتش فول ويتحسر أن يكون مثله يأكل فولاً فى حين هناك من يتمتع بالعيش فى تلك العمارة الفارهة، وتدور عجلة الحظ معه ليصبح هو ذاته مالكاً لتلك العمارة، ولكن أيضاً مالكاً لمرض يمنعه أن يأكل الزلط كما كان من قبل. ويقف ينادى ربه أن يرد الصفقة، أن يعطيه الصحة ثانيةً ويأخذ منه الجاه الذى تمناه يوماً. إذن كانت سعادته معه دون أن يدرى، وقاتل من أجل انتهائها فلما قتلها فطن أنها كانت معه. وهيهات ! السعادة فى الرضا، فى قبول ما أعطيته، أعرف أناساً ضاقت بهم الحال فحزنوا، فأصابهم الحزن بمرض، وهيهات أن يمضى المرض، لكن ضيق الحال لن يلبث أن يمضى.

﴿٢﴾

ماذا يمكن أن يعكر عليّ حياتي ؟ أشياء عديدة منها: أن اكتشف غدر إنسان، أو يتصرف معى بطريقة لا أفعلها معه، أقف جواره فى محنته وتأتى محنتى فيختفى، هنا قد أجلس حزيناً ضائقاً بكل شيء كافراً بأشياء عديدة. وأرى أن ما يجب أن يتم هو الابتسامة، أزهو لأننى لست هو، وأننى لا أغدر فى حين يفعلها غيري. أن أكتشف فساد ابنى وعدم تفوقه فى الدراسة، وهروبه من المدرسة، وماذا فى ذلك ؟ لابد أن أحمد الله ؛ لأنه لم يدمن ، لأنه لم يمت، لأنه لم ينتحر.

قد تجدين الشخص حزيناً ؛ لأن ابنه مريض وتعرض لعملية جراحية، وأجدنى يجب أن أكون سعيداً ؛ لأننا لحقنا به قبل أن يضيع. قد تجدينه حزيناً ؛ لأن ابنه مات، لكن ربما يكون من الحكمة والمصلحة أن يموت الابن ؛ لأنه قد يصبح شيطاناً لو عاش ولأن الله سيعوض أهله عنه خيراً منه. فكم من ظاهر ينطق بعكس باطنه . ولنتأمل قصة العبد الصالح سيدنا الخضر، لقد فعل أفعالاً ظاهرها الشر، قتل طفلاً، وخرق سفينة، وأقام جداراً لقرية بخيلة ، لكنه عندما فسر مغزى ما فعله وجدناه عين الصواب، لقد قتل الطفل ؛ لأن سيكون شراً على أبويه فأراد أن يعوضهما الله عنه خيراً، وخرق السفينة حتى لا يأخذها الملك الفاسد غصباً، وأقام جداراً ليحفظ كنز اليتامى فلا تأخذه القرية التى لا تستحق.

لقد منحنا الله جائزة على المصيبة، فمن قال عند المصيبة (إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ تَحْزَنُوا۟ اللهم آجرنى فى مصيبتى واخلف لى خيراً منها) فإن الله يستجيب له ويخلفه خيراً منها، ولم لا ؟ وقد وصف الله من يقول هذا القول عند المصيبة بقوله: أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ **البقرة** .

قالت أم سلمة: لما توفى أبو سلمة قلت: من خير من أبي سلمة ؟ ثم لم تلبث أن قالت فأخلفها الله عن زوجها أبي سلمة رسول الله. يقول القاضى شريح: "**أحمد الله عند المصيبة أربع مرات، لأنها لم تكن مصيبة أعظم، ولأنه رزقنى الصبر عليها، ولأنه سيردها إلىّ ثواباً، ولأنه لم يجعلها فى دينى**" .

﴿٣﴾

أيضاً من معوقات السعادة الانشغال بخصوصيات الله. وبدهى أنها لابد أن تكون فوق قدرات ا لإنسان. فانشغاله بها فوق طاقته. وهذا يسبّب له الشقاء والعناء والألم. من ذلك أن ينشغل الإنسان بالغد. وأنا أرى أن أكبر مشاكل الإنسان أرقه من غده. لكن اعلمى أن الله ﷻ اختص نفسه بأشياء. فإذا أراد العبد أن يشغل نفسه بها لم يمنعه. بل تركه ينشغل بها لتتعبه ولا ينال شيئاً ؛ لأنها مادامت خاصة بالله فلابد أن تكون فوق احتمالنا. مثلا: الملك أو الولاية خاصة بالله يؤتيها من يشاء وينـزعها ممن يشاء. ولهذا جاء حديث الرسول ﷺ يحذر من طلب الولاية مؤكداً أنه ما من أحد يسعى إلى طلب السلطة إلا أسلمه الله إلى مشاقها.

ماذا سيحدث فى الغد ؟ أيضاً هذه اختصها الله لنفسه فإذا اهتم بها الإنسان شقى. إن الرزق أيضاً من خصوصيات الله، ولايشغل إنسان باله به إلا ويشقى ولا يرزق بأكثر مما كتب الله له. كذلك النتيجة فى امتحانات الطالب هى أمور مستقبلية من خصوصيات الله. فإذا انشغل بها الإنسان تعطل عن العمل وانصرف عنه. وأيقن أن النتيجة ليست فى صالحه فيتملكه اليأس والفتور والانصراف عن العمل.

﴿٤﴾

أيضاً من معوقات السعادة الوهم.وأنا أرى أن الوهم يصبح حقيقة، لو تصرف الإنسان على أن الوهم حقيقة . اوهمى إنساناً بأي شيء سيتصرف على هدى الوهم. اوهميه أنه شرب شيئاً مسموماً بالأمس. لو صدّق سيتلوى وقد يموت. ثمة صديق توهّم أنه لم يعد يستطيع أن يعيش فى هذا المجتمع. فانتحر حتى لايواجه بعض الناس. لماذا؟ لأنه أخطأ ولم يتخيّل أن يبقى بينهم وقد فقد هالته. لكنه موته علّمنا درساً لا ننساه أن الخطأ يجب أن يظل في حجمه. ولا يكبر أبداً. جاءني أحد تلاميذى مرة وقد أحصى الأخطاء المطبعية في كتاب لي، قلت له مبتسماً: أتظن أننى لا أعرفها ؟! قال لى: لا طبعاً. قلت له: إذن لا حاجة لي بها.

وقتها أحس كأن هذا الصديق معى، يدفعنى ألا أتأثر بالخطأ الصغير، كأنه يقول لي لا تكرر خطيئتى، وتهوّل الشيء الصغير. وبعد مرور الحدث وعدم تأثرى به أرانى أحدثه: ليتك كنت معى لترى أن الإنسان يستطيع أن يعيش وسط الناس وهو يخطأ بل ويسفّه هجوم الآخرين عليه. وقتها أتمنى لو علم أنه الوهم.. الوهم..!!

إياكِ والوهم، اديرى ظهرك له ؛ فهو مفسد لحياة الإنسان. أعرفُ امرأة كانت تشك فى وجود علاقة بين زوجها وسكرتيرته، وذهبتْ إلى السكرتيرة وفضحتها واتهمتها به، ولطخت سمعة الفتاة. أتدرين ؟ أصرتْ الفتاة على الزواج به كيداً فى الزوجة وانتقاماً منها، ونجحت الزوجة بذكاء منقطع النظير فى أن تحوّل الوهم إلى حقيقة، ومازالتْ تتحدث عن بعد نظرها، وكيف أنها اكتشفتْ العلاقة مبكراً ولاتدرى أنها خلقتها.. !!

لي أقصوصة اسمها: " **والوهم أيضا حقيقة** " تتحدث عن رجل وصل إلى منصب عالٍ، خشيت زوجته أن يتكبر عليها بمنصبه ويتركها بادرت بالاستقلال، وكأنها تحصّن نفسها من لطمة الإبعاد. ضايقه أن تظن به السوء، لم يتصل بها، تأكدت أنها محقة فى ظنها. فى المدار نفسه لى أقصوصة أخرى اسمها: "**الفرض ينجب برهانه**" تتحدث عن شاب، يزوجونه وهو طالب، يأخذ مصروفه. يحس أن امرأته ليست حقاً له، يقربها بمقدار، ويحدث ما يتوقعه ويخافه، الهانم حامل، يشتد ضيقه، الأبوة شيء لا يستحقه. يكاد يفرح عندما يسقط جنينها، تفطن لعدم حزنه، تشعر أنه لا يريدها ولذلك يحرص ألا يربطهما طفل. تفتعل مشاجرة وتمضى ؛ لتختبر مكانتها عنده، يحس أن رحيلها دون خطأ منه أبعد حملاً ثقيلاً عن قلبه، لا يذهب إليها، تتأكد مخاوفها وتشعر بالرضا ؛ لأنها ابتعدت، وإلا فهى جسر لبعض الوقت، بمجرد أن يتخرج يبحث عن أخرى !



من معوقات السعادة أيضاً الانجراف لمايريده الناس لا ما أريده أنا. لاتحفلى بما يريده الناس، فمن يحفل بما يريده الناس يدفع الثمن غالياً، يضحى بما يريده هو، ولا يرضيهم !! إنكِ لن ترضى الناس مهما فعلتِ، وليس ببعيد عن الذهن قصة جحا، الذى ركب الحمار هو وابنه فاتهمه الناس بالقسوة على الحمار. وكذلك تعرضا للسخرية عندما ركب أحدهما الحمار، فالأب بلا رحمة لأنه ركب وترك ابنه، والابن غير مهذب لأنه ركب

وترك أباه. وكذلك عندما سارا متجاورين مع الحمار، سخر الناس وضحكوا من رجلين يملكان حماراً ولايركبانه !!

لا داعي لأن نرى بعيون غيرنا ونحن نمتلك عيوننا. انظري بعينيك أنتِ، ولا تحرصي على إرضاء الآخرين، بل ارضي نفسك فقط ؛ لأن الناس كثيرون والمذاهب متعددة وأنت لن تتصرفي إلا تصرفاً واحداً، فكيف لك أن تحصلي على رضاهم؟ لك تصرف واحد، والناس قد يكونون متعارضين متنافسين فكيف ترضي متخاصمين ؟! يقولون إن الحكم الذي يغضب الفريقين يمكن أن يكون عادلاً، أو كما قلت فى إحدى قصصى الحق ملك كثيرين والعدل شيء واحد.

تشبثي بنفسك، لاتضلي عن نفسك أبداً، فأكبر أسباب تخلفنا أننا نسعى أن نكون غيرنا، نجتهد لنحوز إعجاب عدونا، وهل سيعجب بنا إلا مدحورين ؟؟ إن أكبر مصائبنا تتلخص فى محاولة تقليد الغرب تقليداً غير مبصر، دون أن يكون لدينا السبب الذي يمكن أن نقوله لوسئلنا لماذا نفعل ذلك ؟ أكبر مصائبنا ياابنتى هو الاختراق،أن يخترقونا. إن ديننا يصر على عدم الاعتناء بالعدو وعدم الإلحاح فى كسب وده، وقد عاتب الله رسوله ﷺ فى عبس وتولى لذلك، وألح عليه أن عليه البلاغ وفقط وليس عليه الإلحاح فى كسبهم، لكننا نصر أن نقنع الغرب أننا لسنا سيئين. ويرفضون ونضطر أن نتنازل عن هويتنا ليقتنعوا.

في موقعة اليرموك وقف قائد الروم يخاطب خالد بن الوليد، ويعرض عليه أن يرجع بقواته القليلة:

- يا معشر العرب، لقد علمنا ما أخرجكم من دياركم إلا الجوع والعطش، فتعالوا نعطي كل واحد منكم كسوتين واحدة للصيف، وأخرى للشتاء، وطعاماً وعشرة دنانير..

فما كان رد خالد عليهم إلا أن قال لهم - وأرجو أن تنتبهى في الرد إلى أن الدم محرم على المسلمين - قال خالد للقائد:

- لا، لم يخرجنا الجوع والعطش، ولكننا قوم نحب الدماء، وقد علمنا أن دماءكم أشهى دماء..

لم يحفل خالد أن يرسموا صورة للمسلمين خاطئة. في مواجهة عدوك لا تحاول أن تزيّن صورتك، فهو لا يرضى منك سوى بصورة واحدة هى وأنت راكع تحت أقدامه، مادام الأمر كذلك فلماذا أحرص على كسب وده وتزيين صورتي أمامه ؟ لقد فهم خالد المسألة

بشكل واضح. لذلك حرص أن يخيف عدوه. وليس أن يكسب وده.

ابنتى. كونى نفسك. ظاهرك هو باطنك. ثمة بنات تخرج إلى الكلية فتضطر أن تكون شيئاً آخر لتواكب التقدم. وحتى تنجو من سخريات زميلاتها. وحتى تفلت من الاتهام بأنها فلاحة تضطر أن تخلع جلدها وتكون شيئاً غريباً عليها.. يستعمرها وتوافق لتحظى بالإعجاب من غيرها. وهيهات. ماضر التخلف لو كان سيحتفظ لى بنفسى ؟؟ وماذا يكسب الإنسان لو كسب العالم وخسر نفسه كما يقول المسيح عليه السلام .. ؟؟

﴿٦﴾

السعادة كنز. مفتاحه أن نحب الآخرين. وأن نعطيهم. ألا نكون أنانيين. السعادة عطاء حتى لو كان العطاء قليلاً. يقول الإمام على: "**لا تستحى من إعطاء القليل. فإن الحرمان أقل منه**". إن العطاء لايفقد الإنسان شيئاً. وكيف نفقد بالعطاء ؟ وما نعطيه يبقى. وما نختزنه يضيع. وليس ببعيد عن الذهن قصة تصدُّق بيت النبى ﷺ بشاه ولم يستبقوا إلا ذراعاً. فلما عاد النبي سألهم عما فعلوا بالشاه التى ذبحوها. قالوا: ذهبت كلها إلا ذراعاً. فقال بل بقيت كلها إلا ذراعاً. فما تحتفظين به لنفسك مفقود. وما تبذلينه باق. لايضيع.. ما تحتفظين به: أداة حفظة الجيب وقد يكون مثقوباً. وقد يسرق. وقد يبلى. لكن ما نبذله تحفظه قلوب. يقول ﷺ: "**ما نقص مال من صدقة**". كوني إذن أكثر إصراراً على حسن التعامل مع الناس. ولا تتحولى عن موقفك لسوء الرد. فلا تكوني قصديراً يتشكل بالضربات. بل كوني كالماس يُشكّل غيره ويؤثّر فيه.

﴿٧﴾

شيماءُ.. إن الإصرار أروع هبة من الذكاء. والمصرُّ على هدفه وإن كانت قدراته ضئيلة يصل إلى الهدف. ولايصل إليه الموهوب ذو القدرات العالية. فى مفهومى أن النجاح إصرار. الإنسان الناجح فى نظرى هو المصرُّ على ما يريد. وفى رأيى ما أصر إنسانٌ على شيء إلا وصل إليه. لم أصر على شيئ إلا وصلت إليه. ولم أعالج أمراً مساحته الزمنية أسابيع في أيام إلا أنجزته. فكم يتسع الوقت إذا عكفت على شيء واحد لا يتخلله غيره.

ولا يمنع الإنسان من الوصول إلى هدفه إلا إذا وقفت نفسه تحول بينه وبين الهدف. كم من عظماء لو قيل لهم: إنكم ستكونون عظماء. لسخروا من القائل. فلم يكن فيهم من مقومات العظمة سوى المشى في الطريق. وإذ بهم بعد وقت قد قبضوا على عرش هذا الطريق.

إن المستحيل لا يقدر إنسان على تحقيقه. ولا يُكسَر المستحيل إلا بالله عَزَّلَ، تظل بين الإنسان الناقص والمستحيل مسافة لا يمكنه أن يحققها ولهذا يظل المستحيل مستحيلاً. هذه المسافة الناقصة يختصرها الله للمصر الدءوب الحريص على الوصول. هذه المسافة الناقصة التى لا يقدر الإنسان أن يحققها. يحققها له الله مكافأةً له على إصراره. فلا فشل. إلا إذا أراد الإنسان. وإذا كانت عجائب الدنيا كثيرة فأعجبها جميعاً هو الإنسان. كما قرأت فى مقدمة فيلم الاسكندر الأكبر.

كلُّ بعيدٍ.. بالسعى إليه قريبٌ.. واللهِ لا أرى أن هناك مستحيلاً سوى المستحيل نفسه !

﴿٨﴾

القضية ليست فى الوصول إلى القمة. فقد ورث معاوية الثاني الخلافة عن أبيه يزيد بن معاوية. فزهدها واعتزل فى بيته. ورفض أن يتولى الحكم. أما عمر بن عبد العزيز فكان لايتحقق له شيء إلا طلب الأعلى منه. أراد الولاية فنالها. ثم تطلّع إلى الخلافة. فسعت الخلافة إليه وهنا تمنى الجنة فزهد فى الدنيا وودّع حياة القصور. ورفض العقاد الوزارة والدكتوراة فظل أكبر منهما.

فما أكثر الذين وصلوا إلي القمة لكن على سفينة ملوثة من دماء أصدقائه. فهناك من يبيع وطنه ليتربع على عرشه. الخديو توفيق مثلاً. وهناك من يخون أصدقائه ويفشى سرهم لتقربه الدولة ويصبح فى منصب عال. مثل هؤلاء لم يصلوا إلى القمة. القمة فى نظرى هى بذل أقصي ما أستطيع مع نظافة الوسيلة. سواء اعتلى القمة أو لم يفعل. فتلك هى القمة.

وأخيراً ؛ لأننى أظننى قد أطلت اعلمى أن النجاح ليس فى نوع المجال. ليس معنى أن أكون فى أعلى الكليات أنى قد نجحت ووصلت إلى القمة. النجاح يجب أن يكون داخل المجال ذاته. أن أكون الأول فى تخصصي. فقديماً قال يوليوس قيصر "**أفضل أن أكون**

الأول فى قرية صغيرة عن أن أكون الثاني فى روما ". فى وقت كانت روما عاصمة الدنيا، فاحرصى ألا تكوني الثاني،لا تكونى "كومبارساً" فى المجال الذى تعملين به. فالكومبارس منه كثير، والغبار والذباب لا يُحس بغيابهما.

إن أكبر نجاح للإنسان هو أن يترك بصمته فى المكان الذي يمر به، لابد أن يترك شيئاً يقول للناس كنت هنا، أو بمعنى آخر مرت من هنا شيماء.

﴿٩﴾

ابنتى.. والله أقولها حقيقةً لو لم تكوني ابنتى لتمنيتُ أن تكوني ابنتى. ومَن في الناس مثلك ؟؟ أختم كلمتى بقصة أناضل لأجعلها فلسفة حياة، أريد من الناس أن يفهموا أنهم في الجنة، وقد يفقدونها بحرصهم على أن يصلوا إلى ما حرموا منه، أحد أهدافي أن أقنع أبنائي بأن ينظروا إلى ما أُعطوا لا إلى ما حُرموا . كلنا في جنة لو نظرنا إلى ما حصلنا من نعم، وكلنا في جهنم لو انشغلنا بما حُرمنا منه.

قصة قصيرة

جنة عزوز

١

الجنة كلها له إلا شجرة، والخلد له لو ظلت فى ستر السوءة، لكنما الشيطان هناك، لاينسى أنه طرد من الجنة بسببه.. يتسلل إليه

-ماينقصك إلا الخلود..

- وكيف الوصول إليه ؟

- تصل إليه فوق ثمرة واحدة من هذه الشجرة !

يلتهم الثمرة.. تنكشف السوءة ويفقد الجنة والخلد.. يقف خارج الجنة، ينظر إليها متحسراً، ألم يكن

يملك الخلود؟ فلماذا أراد شيئاً لاينقصه ؟ أراده ليفقده.. ألم يكن يهنأ بيومه فلماذا تعجل الغد ؟؟ تعجله ليضيّعه.. ألم يكن إبليس عدوه ؟ فلماذا نسى.. ؟؟ قضى الأمر وماعليه إلا أن يجنّب أولاده مصيره .. تحضره الوفاة، لايترك لأولاده إلا وصية من ثلاث كلمات:

- من يسبق يومه، لايلحق بغده..

- إياكم وما لا تحتاجون إليه..

- لا تغفلْ عن عدوك، فإنه عنك لايغفلُ..

٢

لعلها لم تكن الجنة، لكنها لم تعرف لنفسها اسماً إلا الجنة.. ولعل الحياة فيها لاتسعد، لكن أهلها لم يعرفوا يوماً التعاسة، عندما ينظر الحزن لنفسه فى وجوههم يصبح ضحكة.. سرعان ما تتسع.. وتتسع.. حتى يبكوا من الضحك..ويتمتمون: اللهم اجعله خيراً.

نورهم النهار، وأسلاكهم أشعة الشمس، لكنهم يعيشون، يصحون، يعملون، يأكلون، يضحكون، ينامون..يطأ أرضهم البكر رجل بقبعة:

- معى الراديو والمانيكير والشيبسى والدولسى.. معى الباكينى.. والاسترتش .. معى الجاتوه والجريب فروت.. معى الصوبات والبيوت الزجاجية.. معى الدش والفيديو.. لاينقصكم إلا مامعى، هلموا إلىّ..كفاكم موتاً.. حياتكم عندى..معى الجنة التى طرد أبوكم منها..

- لانملك الثمن..

- لاعليكم.. يمكننى أن أنتظر..

ويجرون إليه، يعترضهم مجذوب القرية ..

- يالضيعة آدم لو خرج أولاده من الجنة..

لايأبهون له: أو كنا فى جنة يامجذوب ؟؟ ويجرون إلى التاجر فارحين بالخروج إلى الحياة، ويبدو التاجر- وهو يدس أوراقاً تثبت حقه- فرحاً لأنه أدخل الفرحة عليهم، ويتكرر فرحه..

- عندى.. اليوم لكم، مالاعين رأت.. الحرية.. حقكم فى التحرر.. أن تكون كل قبيلة منكم دولة مستقلة بعيداً عن الملك المريض..

- كيف.. وله جنوده.. ومعهم العصوات الغليظة..

- ماعليكم.. تحتاجون السلاح، وأنا به..

ويستقلون.. عن الملك المريض.. ويقعون فريسة للرجل العفى ذى الصحة.. عليهم أن يسددوا له ديونه الكثيرة.. ويربطون على بطونهم ليسددوا له.. يتضورون جوعاً.. غارت الخدود فلابودرة تثبت عليها، وباعوا الأجهزة بنصف ثمنها.. وظلت الديون تنمو..

يمضى المجذوب يردد كلماته.. ينظرون إليه.. كما نظر أبوهم للجنة التى حيلت دونه.. ويتمنون لو يعودون إلى الجنة..

(الكلمة الثانية)

الأقوال المأثورة دستوراً

الكلمة الثانية :

الأقوال المأثورة دستـــوراً

الأقوال المأثورة فى نظرى مبادئ للسلوك. لا يلبث القول عند اتباعه أن يصبح دستور حياة..

﴿١﴾

يأتى فى مقدمة الأقوال التى أعجبت بها إلى درجة العشق عندما صادفتها وأنا مازلت صبياً:

إذا لم يكن من الموت بد فمن العجز أن تكون جباناً .

قالها أبو الطيب المتنبى. إن من يتنازل تجنباً للموت قد يموت برغم تنازله. استفدت من هذه النصيحة فى مرة طلب منى زميلى أن أعتذر لأستاذ له السطوة على ؛ كى أفلت من الرسوب، لكنى رفضت. فقد كانت تلك القولة تغطى عينى. وتجعلنى لا أرى شيئاً سواها. وقلت قد أعتذر وأرسب وأكون قد خسرت نفسي والنجاة معاً. ولم أعتذر ونجحت. وربحت نفسى والنجاة معاً. بل وقابلنى الأستاذ وقال لى لقد حرصت أن أرى نتيجتك بنفسى. هنأنى واحترمته جداً عندما وجدته يحترم من يعتزُّ بنفسه.

فى الجيش. رفضت تماماً أن أقدم تنازلات لأحد ضباط الصف. بينما فعل زملائى. وعجز أن ينال منى ؛ لأنه لم ير منى خوفاً. كانت نظرة عينى تقول له: ماذا بعد الموت ؟ أهلاً بالموت ولا أهلاً بما تريد.. !! أتدرين بعد سنوات وجدته يرسل لى السلام وسط دهشتي الشديدة ؟! فقد كنت أظن أنه لابد أن يسقط من ذاكرته صداعه الوحيد. الشخص الذى قال له لا. وقتها قلت قد لايكون بيننا حب. لكن الاحترام كالمسك. لو أمسكت به يد ملوثة لن تغيّره. بل سيترك هو فيها رائحته الطيبة.

إذا استطعتِ أن تجلسي خارج نفسك لتشاهدى نفسك فافعلي. فلا ينزلق الإنسان إلا فى الأوقات التى يغيب فيها عن نفسه كثيراً. قليل من الغياب لا يضرُّ ؛ لأنه حتى لو أخطأ فقد خُلِقَ الإنسانُ ليخطأ. المهم ماذا بعد الخطأ ؟ هل الإصرار على الخطأ والاستمرار فيه أو رفضه ومقاومته ؟ إن رجلاً كعمر بن الخطاب حارب الإسلام ثم اكتشف أنه على باطل فدخل الإسلام وحارب باطله بنفس القوة أو أشد. لهو الصواب المطلق. لإنه بإسلامه غُفرت ذنوبه. والمغفرة لا تعني محو الذنب. بل ستره. فإذا تاب الله حوّل له هذا الذنب إلى حسنات. فكانت سيئاته قبل الإسلام أيضاً حسنات.

وانظرى مضاد عمر إنه عمرو بن هشام: كان فى خندق واحد مع عمر. يحارب الإسلام بشدة واكتشف أيضاً باطله. لكنه أصرَّ عليه. انظرى أين هو من عمر؟ أحدهما ضمن الجنة وهو مازال على الأرض. والآخر ضمن جهنم وهو أيضاً على الأرض برغم أن كليهما غاب عن نفسه فى البداية بعض الوقت.

رباه. إن الشيخوخة صقيع. فى وقت بنية الجسم ضعيفة، فلو كان لهذا الإنسان تصرفات محترمة لتشكلت على هيئة معطف من الصوف يقيه البرد. ويمضى يحس الدفء. فى حين يرتجف غيره برداً. هكذا الاحترام كالنور لو اجتمع عليه ظلام العالم لم ينل منه. بل قد يترك النور بصمته فى بعضه.

﴿ ٢ ﴾

قول آخر. هو: "**إنْ تعف فأنت على صواب**" هذا القول قولى طرأ على ذهنى فى لحظة مهمة. كنت أصدر مجلة أنا وصديق لى. فعرض بعضهم علىّ عرضاً مغرياً. أن أكون وحدى رئيساً ويتم الإطاحة بصديقي. رفضت وقلت الإنسان أبقي من الأشياء. وماذا لو قبلت. وبعد وقت غير طويل أطاحوا بي ؟؟ خسرت المنصب لكنى لم أخسر صديقي. ولو كنت أطعت الإغراء لخسرت صديقي وطردت أيضاً. وبعد ذلك قرأت أكثر من مرة لأكثر من شخصية عظيمة أقوالاً فى معناه أذكر منهم علي بن أبي طالب وهنا نقول إن الحق

قدمت نصيحة عابرة لأحد المحيطين بى، وقلت له: "**لا تؤجل رأيك فتضطر إلى تأييده عندما ينطقه غيرك**". وضربت له مثلاً بابن عمر الذى كان وحده يعرف إجابة سؤال سأله الرسول ﷺ ، ولم تستطع الصحابة الإجابة. فلما أخبر أباه أنه كان يعرف الإجابة، قال له أبوه: لو قلتها لكان أحب إلى من الدنيا وما فيها. ثم وجدت هذا الشخص حزيناً ؛ لأنه لم يسارع بإعلان رأيه فسبقه آخر. وهنا قلت له: لا يجب عليك أن تحزن ! فتعجب، وقال لى ألست أنت القائل لتلك العبارة ؟! قلت له: لا يجب أن تحزن ؛ لأنه وإن كان قد سبقك إلا أنك استفدت شيئاً، اكتشفت أن فطرتك سليمة. وهذا شىء لا يغضب. ولعل عمر بن الخطاب برغم تمنيه أن ينطق ابنه الإجابة كان سعيداً سعادةً لا توصف ؛ لأنه اكتشف ذكاء ابنه، وإن كان لم يعرف به أحد.

﴿٣﴾

قولة أخرى تتعلق بالسياق السابق، قال حكيم: "**اعص النساء وهواك وافعل ماشئت**"، عصيان الهوى هو الخطوة الأولى للنجاح. وفى هذا الصدد يقول على بن أبي طالب كرّم الله وجهه: "**خالف نفسك تسر**". إن النفس أمارة بالسوء، فإن تخالفها تتلاف السوء بطبيعة الحال. لم أترفع عن هوى إلا وكنت حقاً، إلا كسبت الأكثر بقاء، كسبت إنساناً وخسرت شيئاً. والإنسان هو أعجوبة الزمان.

مازالت آومن أن المكاسب المادية تزول، ولا يبقى إلا الإنسان، وأقصد بالإنسان المعنى النبيل، فلو ضحيت بشىء مادي وفاءً لصديق، فقد انتصرت للوفاء، وهذا النبل هو الإنسان. ولو تنازلت عن مكاسب عديدة من أجل من تحب، فقد انتصرت للحب، والحب هو الإنسان فى معناه النبيل، ولو خسرت مادياً حتى لا تكون جشعاً فقد انتصرت للإنسان داخلك، فالإنسان هو مجموعة المعانى النبيلة التى تبقى عندما تزول الإشياء، فإذا وضعت الدنيا فى كفة، وأحد المعانى النبيلة تلك فى كفة، فحذارِ أن تختارى الدنيا، بل اختارى الإنسان. قابل يونس بن عبيد رجلاً يحمل حلة، فعرف أنه اشتراها من دكانه،وكان ثمنها مائتين، فسأل الرجل بكم اشتراها؟ فقال بأربعمائة، فقال لا تساوى أكثر من مائتين فارجع حتى تردها، فقال الرجل: هذه تساوى فى بلدنا خمسمائة وأنا أرتضيها، فقال له يونس: انصرف معى فإن النصح فى الدين خير من الدنيا بما فيها.

ثم رده إلى الدكان ورد عليه مائتى درهم، وخاصم ابن أخيه: وقال: أما اتقيت الله ؟ تربح مثل الثمن وتترك النصح للمسلمين ؟ فقال: والله ما أخذها إلا وهو راضٍ بها. قال: فهلا رضيت له. ما ترضاه لنفسك !! أرأيت ؟؟ خسر مادياً ليكسب نفسه.

﴿ ٤ ﴾

قول ثالث لكولردج Cosredg: "**أنالم تجرحنى قط أي سخافة مالم تكن صادرةً منى**" . أذكر مرةً أنى كنت واقفاً أمام فصلى وجاء أحد المدرسين الكبار فى السن فقط وقام بضرب الطلاب وهم واقفون معى متجاهلاً وجودي، وكظمت غيظى، وجاء مرّة ثانيةً وكررها، ولما خاطبته افتعل أنه كان لايرانى، ودخلت الحصة وأنا شديد الانفعال والغيظ من التصرف الذي أهملنى.

لكن فى لحظة إلقاء التحية على الطلاب قفزتْ إلى ذهنى قولة كولردج السابقة، وكانت برداً وسلاماً على ناري. فهى حقاً سخافة، لكنها لم تصدر منى. وعلى الآخر أن يتضايق ؛ لأنه أخطأ. وليس مطلوباً منى أن أتضايق لخطأ الآخرين وإذا كان النهر يتكدر صفاؤه بما يلقى فيه من قمامة، فعليه أن يجتهد فى عدم الإحساس بها. فلا يجب أن نتكدر لسخافات الآخرين، بل يجب ألا نحفل بها. والأيام دول، وسيأتى الوقت الذي يتم فيه تجاهله،والبادئ أظلم. أحياناً أيضاً ألقى السلام على أحدهم فلا يرد، وأمضي مغتاظاً ثم أتذكر هذه القولة التى تحولت إلى سلوك، فأبتسم وأقول: الأيام دول وقد يمر بك ويلقى السلام فلا ترد، أو تمر به مرة أخرى وينتظر السلام فلا تلقه.

﴿ ٥ ﴾

قولة أخرى: لرجل يدعى أمبروزيوس، تقول: "**النجاح هو الخطيئة الوحيدة التى يرتكبها الإنسان بحسن نية ومع ذلك لايغتفرها له الآخرون**".ويقول سنيكا: "**النجاح حالة لا تعرف الراحة**" . وأعقّب على ما سبق بأن النجاح قتال، ولا ينجح إلا ذو حمية، وأن الإنسان لو تقمصه هذه الحمية وهذا الإصرار لكانت روحه فى يده يمكنه أن يفعل ما يتم فى شهور فى بضع ساعات. هذه الروح تذكرنى بإعرابية كانت تقول: "**كنت فى شبابي أحسن من النار الموقدة**" . والمثل يقول: "**اللى يعمل ريس يجيب الريح من قرونه**" . إنها روح يمكن أن نراها مُجسَّدة على وجوه أبطال أكتوبر. روح

تكسر المستحيل، بل روح لا ترى المستحيل وإن رآه الجميع.

لذلك لا أومن أبداً بأن الوقت لا يكفى، قد يكون الوقت قصيراً. لكن يمكن أن يتمدد بتلك القوة الروحانية التى تجعل الإنسان يفعل الكثير فى وقت قصير. وكم من عظيم لم يعش كثيراً فكيف حقق العظمة فى وقت قصير ؟؟ دائماً أعتقد أن كل شىء ممكن مادام سيف الوقت لم يهبط على الرقبة.

للنجاح مقومات: منها الإيمان بالله . ومنها تلك الروح التى تجعل الوقت القصير مساحة رحيبة يمكن أن يتم فيها كل شىء. تلك الروح التى يمكن أن نسميها الإرادة أو الإصرار فهى فى نظرى أمضى سلاحاً من الموهبة والذكاء، وما أصرَّ إنسان على شىء إلا كافئه الله ﷻ على إصراره بتحقيقه له حتى لو كان مستحيلاً. إن الله لا يبخل بأمره الإلهى (كن) على من يصرّ على هدفه. **فالله فى عون المرء ما كان المرء فى عون نفسه.**

ومن مقومات النجاح أيضاً: الثقة فى الوصول، فلن يصل إنسان لا يثق فى قدراته، وإذا كنت لا أثق فى وصولى فلن أبذل جهداً للوصول.

ولا أرى تعارضاً بين الطموح والرضا، فمن رأيي أن يصرَّ الإنسان على هدفه وأن يطلب العلا ويتشبث به، فأثناء العمل أو المباراة يطلب ما يشاء، لكن مع النتيجة يرضى بما قسم الله. وما أدرانا فقد يكون الخير فيما نراه شراً.

والاستعداد لتحمل عاقبة الفشل، أو عدم الهرب من مسئولية الفشل. إن من يتهم نفسه بأنه السبب فى الفشل حتى لو كان الفشل يرجع لأسباب خارجية هو ذاته القادر على تجنب الفشل ذاته مرة أخرى، بينما من يبحث عن شماعة فما أكثر الشماعات، ومن يعلل لن يعدم تعليلاً، ولذا سيتكرر الفشل وفى كل مرة سيجد التعليل. وفى الختام سينتهى إلى يقين بأنه سيء الحظ أو "أرشل". إن إبليس ذاته لا يعدم تبريراً لعصيانه أمر الله بالسجود لآدم. إذ يمكنه أن يقول لم أسجد لآدم لأني لا أسجد إلا لله ! وما أكثر ما هُزمنا فى ميارايات فاتهمنا الحكامَ بالتحامل علينا.

وآخر عوامل النجاح عدم الارتكان على الغير، فالعرب تقول: " **ما حك جلدك مثل ظفرك، فتول أنت جميع أمرك**". ويقول المثل المصرى: " **بدل ماقول للعبد ياسيدى أقضى حاجتى بأيدى**". وفى طفولتنا دُرِّسَتْ لنا قصةٌ عن فلاح يريد قطع الشجرة، وتأتى أم العصافير، فيخبرها صغارها بأنهم سمعوا الفلاح يتحدث مع أخيه ويطلب منه الحضور لقطع الشجرة، فلا تحفل الأم، ومرة أخرى، يقولون لها: لقد سمعوا الفلاح

يتحدث مع جاره ويطلب منه الحضور ليقطعا الشجرة.ولا تحفل الأم, إلى أن يقولوا لها لقد سمعوا الفلاح يقول لابنه: أنه سيحضر غداً لقطع الشجرة. هنا تنقل العصافير صغارها : لأن الأم الحكيمة فهمت أنه مادام قد اعتمد على نفسه فسينجز.

وقد وظفت تلك الحكاية فى قصة قصيرة جداً لى, وجعلت مكان الفلاح يتيمين, وجعلت العصافير غرباناً, وظلت الغربان لا ترحل, الصغار تقول للأم, لقد طلب اليتيمان من عمهما الحضور, فلا تأبه, طلبا من خالهما الحضور فلا تأبه, ثم يقولون لها لقد سمعنا اليتيمين يتفقان أن يقطعا الشجرة غداً, فلا تأبه, فلم يعد مجرد الاعتماد على النفس كافياً للإنجاز, بل لابد من الشروع, لذلك لم تأبه أيضاً, لكن عندما يبدأ اليتمان فعلاً في ضرب الغربان بالحجارة, تحمل صغارها وتمضى. فى القصة إضافة على الحكاية القديمة, إن النية نفسها لا تكفى, وكذلك الاعتماد علىالنفس لا يكفى دليلاً على التنفيذ, بل لابد من الشروع فعلاً فى التنفيذ.

فلا تركنى لتعليل مقنع, فهو باب مغارة مظلمة, وإذا حدث فشل فاعتبرى نفسك المسئولة, هنا سأبحث عن قصور ما وأعالجه, بينما الذى وجد التعليل استكان إلى ذلك وانتهى الأمر وظل القصور موجوداً, وإذن فمنظومة الفشل مازالت مستمرة.

﴿٦﴾

قولة أخرى لنيتشه: " **كل مالايقتلنى يقوينى** " . أضعها نصب عينى دوماً فى كل الأزمات ولهذا أحوّلها من ضربة قاتلة إلى لبنة فى بناء جسمي. وهذه القولة لها ما يماثلها فى تراثنا العربي, وفى أمثالنا: "**الضربة التى لا تميت تشد الظهر**" . لكنها ظلت فى ذهنى مرتبطة بأول من قرأتها له.

﴿٧﴾

من الأقوال التى أعجبت بها فى شبابي المبكر قولة لتولستوى Tosstoy يقول:" **لا تقاوم الشر بالشر, وإلا اشتركت مع الشرير فى شره فماتت الفضيلة بينكما**" . ثم لم ألبث أن أكتشفت أن تولستوى المحب للشرق والإسلام قد اقتبسها من آية قرآنية هى : ﴿ وَلَا تَسْتَوِى الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ . **فصلت**

﴿٨﴾

يقول المتنبي فى بيت شهير:

الخيل والليل والبيداء تعرفنى والسيف والرمح والقرطاس والقلم.

لكن ما شأننا بقولة يفتخر بها صاحبها، حقاً إنه بيت فخر لكنه لعب دوراً فى حياة قائله، فعندما أراد أن يحيد عن طريق يقف فيه أعداؤه : لأنه كان وحده في مقابل أعداء كثيرين ، ذكّره خادمه بهذا البيت،فلم يقدر أن يهرب من نفسه وشق طريقه إليهم، وظل يقاتل فى شجاعة حتى لاقى حتفه، مات حتى لا يتضاءل أمام نفسه. فما كان سينجو لو هرب من أعدائه بهذه الطريقة، بل كان سيهرب إلى شقائه ؛ لأنه سيهرب إلى نفسه التى شهدت صورته الضئيلة، لقد مات المتنبى فخُلّدَ، ولو هرب إلى الحياة لمات وهو على قيد الحياة. لذا اختار الموت ليحتفظ بصورته رائعة أمام نفسه حتى اللحظة الأخيرة.

وأروع من ذلك موقف خبيب الأسير الذى وقع فى كمين، ورفض أن يسلم إلا بعد أن عاهده الأعداء على الأمان، لكن الكفار خانوا عهدهم، وباعوه إلى أهل مكة، فاشتراه رجل موتور من خبيب لأن خبيباً قتل أباه فى بدر، وقرروا أن يقتلوه. وفى انتظار القتل كان معه موسى حادة يحلق بها، وغفلت صاحبة البيت عن ابنها، فدرج حتى وصل إليه، وحمله خبيب على ركبتيه، وذهلت المرأة عندما رأت طفلها بين يدى الأسير المنتظر القتل وفى يده الموسى ، وأيقنت أن ابنها هالك لا محالة. لكنه طمأنها وقال لها لا تخافى ما كنت لأفعل ذلك وترك الطفل. فكانت بعد مصرعه تقول: لم أجد أسيراً أكرم من خبيب.

أخلص من ذلك ألا يهرب الإنسان من نفسه، وأن البعض قد يفضّل الموت ويظل بحجمه لا يصغر ؛ لأنه لا يطيق أن ينظر فى مرآة نفسه فيجد نفسه صغيراً.

لا تسمحي لألبوم ذكرياتك أن يكون فيه صورة لك ضئيلة منكمشة باهتة. تهربين منها كلما طافت على بالك، كوني مثل ذلك الصبي المملوك الذى كان يرعى الغنم لسيده فالتقاه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فقال له عمر مختبراً: بعنى شاةً من هذا الغنم، فقال إنى مملوكٌ، فقال له: قل لسيدك أكلها الذئبُ، فقال الراعى: فأين الله ! فبكى عمر وذهب إلى سيده فاشتراه منه وأعتقه لأنه رأه من أعلى الناس. نوعية من لا يهرب من نفسه،

مما سبق يمكنك أن تفهمي كيف يظل الإنسان متحداً مع نفسه يعجز عن الهرب عنها، لو كان الله فى ذهنه. لقد لبست امرأة ثوباً ٤٧سنة فلم يخرق. فسئلت فى ذلك فقالت: "**الثوب إذا لم يعص الله فيه لا يخترق سريعاً**".

﴿٩﴾

"**الآن وهنا**". شعار رائع، إذا أردت أن تفعلى شيئاً فافعليه فى هذه اللحظة وفى هذا المكان. إن من يؤجل عمله لسبب ما يظل يختلق الأسباب ويؤجل. إن كل إنسان يسعى إلى عمله بإصرار يصل إليه، إلا إذا كان عوناً مع المعوقات على نفسه. فلو ظن الساعى إلى هدف ما أنه لن يصل، فلن يصل. فمادام هو ليس عوناً لنفسه، فلن يصبح هدفه واقعاً. إن كل من يكسر المستحيل كان يوقن وهو في الطريق بأنه سيكسره . وأولى المعوقات أن تأتينى العزيمة على عمل، فأوخرها إلى موعد قادم، بل انهضى إليها في اللحظة نفسها. هنا طلاب يعزمون على المذاكرة بعد إجازة العيد، أو بعد أن يأتي مكتب جديد. مثل هذا الذى لا ينبرى إلى عمله في اللحظة وفي المكان لن يفعل في لحظة أخرى ولا في مكان متغير.

إيماناً بهذا الشعار، عندما كنا نهم بإصدار مجلة أدبية اخترتها لها هذا الاسم، وبدأنا في التجهيز فعلاً رغبة مناً في تكريس هذا الشعار في نفوس القراء. ولو لم نفعل شيئاً سوى بث هذا الشعور في النفوس فهذا في نظرى قمة النجاح، لكن طرأت متغيرات أخرى جعلتنا نغيّر الاسم إلى اسم آخر، فرضته طبيعة اللحظة الراهنة وقتها، فآثرنا أن نطلق على المجلة اسم "**٨ ديسمبر**". تقديراً لأطفال الانتفاضة الذين هبوا يحاربون إسرائيل بالحجارة، لم ينتظروا سلاحاً، ولم ينتظروا أن يكبروا، بل حاربوا بما يملكونه في لحظتهم وفي مكانهم، فكانوا هم مصداقاً لشعارنا "**الآن وهنا**" فآثرنا أن نبرز يومهم الذى انطلقوا فيه وأطلقنا على المجلة اسم "**٨ ديسمبر**" وقد كتبت أقصوصة بالاسم ذاته تحيةً لهم . تقرر أن عيون الناس الصماء على الحق لا تفتح إلا بحركة صاحب الحق:



٨ ديسمبر

ويقتنع الكبار، جسد هذا الفقير يتسع لآخر معه. يأتى الآخر يقاومه الفقير أول حقوقه أن يكون جسده له. ينتهى التشاحن بانفراد الغريب القوى بكل الجسم..

وقف صاحب الجسد بعيداً عن جسده. عارياً. جائعاً. لايطلب سوى أن يعود داخل جلده. لكن الغريب يحاول أن يدفنه حياً. مستغلاً أنه بلا جسد. فلايراه أحد. يستغيث صاحب الحق. لكن عيون الناس من حجارة..

وحده عليه أن يقاوم. يتناول حجراً يقذف به جسده الحبيب. عله يؤلم الساكن فيه. يرفع الساكن كل الحجارة. يتلفت صاحب الحق حوله. لايجد حجارةً إلا عيون الناس. تمتد يده إليها. يقذف بها اللص. تتفتح عيون الناس لتنظر إليه.

﴿ ١٠ ﴾

يقول مارك توين: " **كن مهملاً بلباسك إذا اضطررت ولكن احتفظ بنفس نظيفة** ". كونى كالشمس تمر بأماكن قذرة وتظل دوما نظيفة. ابنتى، إن النفس مثل قطعة الشاش، فلا تسمحى أن يعلق بنفسك أتربة من تصرفات الآخرين. إن كل شىء يمكن أن يضايق، ويمكن ألا يضايق، وشت جارية لصفية بنت حُيى أم المؤمنين بها لأمير المؤمنين عمر، واتهمتها بأنها تقدس السبت وترعى اليهود معتمدة على أن صفية كانت قبل إسلامها من بنى يهود، فلما علمت صفية بالوشاية، سألت جاريتها عما حملها أن تفعل ما فعلته، فقالت الجارية: الشيطان، فقامت صفية بعتق الجارية لترد على خطيئتها بالعفو.. ولم تسمح لها أن تغير نفسيتها. ولا عجب ؛ لأن صفية كانت فى بداية إسلامها بركةً على قومها، فعندما انتصر الرسول ﷺ على قومها اليهود وقعت هى. وهى ابنة زعيمهم. من نصيب الرسول، فأعتقها وتزوجها، وهنا قال الناس أصهار رسول الرسول ﷺ ، فأعتقوا ما فى أيديهم، فلم تكن هناك امرأةٌ أكثر بركةً على قومها منها. وكان ﷺ يلقّنها ما تدافع به عن نفسها ضد من يقلل من شأنها: **قولى أبى هارون وعم موسى وزوجى محمد.**

﴿١١﴾

واختم كلمتى لك بمجموعة من الأقوال الخاصة بى، سبق أن أهديتها فى مقدمة أحد الكتب لابنى أحمد، وجدت أنها تكمل نسيج كلمتى، وقد أحاول أن أعلق على بعضها.

" **وتجمعنى به، ولاتجمعنى بك الوسيلة الواحدة** ". أرى أن الفارق بين إنسان وآخر، يرجع إلى مقياس محدد هو الوسيلة، فهى الفارق بين الناس. أنا لاأرى الغاية هى ترمومتر التقييم، بل أرى أن الوسيلة هى الأهم ؛ لذلك كنت أنفر من هذا وأتجه إلى ذاك بمقياس الوسيلة.

" **لاتفضّل على نفسك من يفضّل نفسه** "، مازلت أرى الأناني لا يستحق الإيثار، فى مرة لمست عند صديق أنانيةً فى طلب له، وكان قبل ذلك بلحظة يمتلك الكثير فى قلبى، إلى درجة لو شعرت بحاجته إلى شىء يحتاجه لقدمته عن طيب خاطر دون أن يطلبه، لكنى عندما قرأت فى طلبه حبه لنفسه، وجدتني أعتذر، ومضى يتملكه العجب لرفضى فقد كان يعرف مكانته عندى.

" **الجرم هو مابعد الجرم** ". أقصد بهذا القول أن الإنسان يشفع له الخطأ، لكنه قد يضطر لإخفاء الخطأ بارتكاب خطأ أشنع، قد يكابر، هنا تكون جريمته الحقيقية. لقد ذهب رجل إلى رسول الله ﷺ يعترف بأنه ارتكب إحدى الخطايا، لم يره أحد، لكنه اعترف، ويلح فى طلب العقاب، كان موقفه الثاني هو الذى قاده إلى الجنة، فقد تاب الله عليه.

"**الندم أطول جريمة ؛ لأنه فيروس يتوالد ذاتياً** ". أقصد قد يفعل الإنسان خطيئة، فيستلمه الشيطان. فى يوم تعارك اثنان، فضرب أحدهما الآخر فوقع على الأرض، ظنه مات ولم يكن كذلك، ويراه عزوز وقد ارتكب جريمته، وهنا يستغله عزوز ويبتزه ويسخّره لما يريد، يجعله يشترك فى جريمة أخرى، ولا يلبث الرجل أن يكتشف أن الذى مات لم يمت، لكنه أصبح فى قبضة عزوز بالجريمة الثانية، وهنا لا يفلته عزوز من متوالية جرائم. هذا العزوز يسمونه إبليس. فلسفة الشيطان أن يقذفك إلى ترعة الخطأ، ثم يقف على الشط يلومك.

وثمة قصة عن الراهب برصيصا،وهو عابد بني إسرائيل، فقد استحفظه ثلاثة إخوة أختهم البكر حتى يعودوا من سفرهم، فلم يجدوا في بلدتهم أحداً يأمنونه أكثر منه فهو أعبد أهل زمانه، فوضعوها في بيت مقابل لصومعته، وقد ظل الشيطان يطمّعه في عمل

الخير، فبعد أن كان يضع طعامها على باب صومعته وتنزل هي من بيتها وتقطع الشارع لتأخذ الطعام، قال له الشيطان إنك بذلك تعرضها لعيون الناس وقد يعلق بها أحد، فأصبح يضع الطعام على باب بيتها، وواصل الشيطان ترغيبه في الخير، حتى أصبح يدخل إليها الطعام بداخل البيت، ويحدثها، وانتهى الأمر بأن واقعها وحبلت منه، فجاءه إبليس وخوّفه من إخوتها لو رأوا ابنها، وأغراه بذبحه، وطمئنه بأنها ستكتم ذلك حتى لا يعرف إخوتها بما صنعت بها، فلما فعل، خوّفه منها، وقال له بعد أن ذبحت ابنها ستخبر إخوتها بما صنعت بها، فاذبحها وادفنها مع ابنها، ففعل . فلما جاءه إخوتها نعاها لهم، وقال كانت خير امرأة وقد ماتت وهذا قبرها، فبكوا أختهم، وانصرفوا، فجاء الشيطان لكل منهم في المنام فأخبرهم بالقصة كاملة، وقال لهم لوفتحتكم القبر ستجدونها مع ابنها مذبوحين..

وتأكدالإخوة من ذلك فرفعوا أمر الراهب إلى الملك، فأقر بما فعل، فسيق إلى الصلب وسط عيون كانت تقدّسه، والآن لا تحتقر أحداً مثله.

لقد دفعه الشيطان إلى أن يحوم حول الحمى، فوقع في جريمة، فاستغلها الشيطان ليجعله يفعل ما يريد. وللقصة بقية، إن برصيصا عندما قُدم للصلب، جاءه إبليس وهو موثق على الخشبة، فقال له: إنْ أنتَ أطعتني اليوم وكفرت بالله خلّصتك مما أنت فيه، فكفر العابد، فضحك الشيطان منه وتركه ومضى، ومات العابد مصلوباً كافراً بربه، حتى الكفر فعله، ويقال إن برصيصا هذا هو الذي حكى القرآن قصته في قوله عز وجل:

﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ [1] ﴾.



(١) الحشر: ١٦.

(الكلمة الثالثة)

وصايا آدم

الكلمة الثالثة :

وصـــايا آدم

﴿١﴾

يوما ما كتب لي أستاذي الدكتور مهدي علام قائلا: " **اجعل صلاحك شفيعك إلى الله** ". ومازلت ممتناً لهذا الرجل فقد حباني بنصيحة لايمكننى الهرب منها ؛ لأن اسمي يذكرني بها حتى إذا هربت إلى نفسي وجدت نفسي تردني إلى الله. فالله هو الحقيقة الوحيدة الصادقة فى هذا الوجود.

ومازلت دوماً أجد صدى هذه الكلمة فى نفسي ؛ لذا لا أجد أصدق منها لأستهلُ بها كلمتي لك. وسوف أجعل كلمتي لك تحت عنوان نقل خبرة. فقديماً قال العقاد "**أقرا لأضيف إلى عمرى أعمار من قرأت لهم**"، فمن يقدم لك خبرته فقد وهبك عمره ليضاف إلى عمرك.

وسوف أخصص هذه الكلمة لبعض القضايا الفكرية التى شغلتنى فى حداثتي، وأدرى أنها تشغل كثيرين .

﴿٢﴾

قيل لآدم: لا تأكل من الشجرة. فما الشجرة ؟ الشجرة كما نفهم هى منهج الشيطان. الشجرة إذن لم تكن شجرة فى الحقيقة، بل هي اتباع الشيطان. فلو طلب منه الشيطان أن يأكل من الشجرة الوهمية وأطاعه فقد أكل قبل منها قبل أن يدخل الأكل فمه . وحتى لو طلب منه الشيطان أن يأكل من شجرة أخرى غير تلك الشجرة. فبمجرد أن يستجيب آدم له يكون قد أكل من الشجرة المحرمة ذاتها.

لكن أيمكن أن تكون لشجرة الشيطان جذور فى تربة الجنة ؟ مستحيل بالطبع. أن تنبت تربة الجنة الطاهرة شجرة جذرها إبليس، فلابد أنها شجرة بلا جذور. واقفة بقدرة

الله، يراها الإنسان لكنها ليست راسخةً فى الأرض. آدم ﷺ إذن قد عاش فى الجنة بشرط ألا يقربَ تلك الشجرة. وأسفر أكله منها عن خروجه من الجنة. وأسمع كثيراً بعض العامة يلومونه ؛ لأنه أكل من الشجرة. ولا يدرون أن الإنسان يُولد حاملاً معه شجرته فإذا أكل منها (أي اتبع الشيطان) لم يدخل الجنة، وإذا انصرف عنها دخل الجنة. إذن فكلنا آدم جديد .

مع فارق غير جوهري: إن الشجرة مع آدم كانت بداخل الجنة، فإذا أكل منها لفظته خارج الجنة، فى حين الشجرة معنا بخارج الجنة فإذا أكلنا منها ظللنا بالخارج. ولو تجنّبها آدم لبقى بالجنة، ولو تجنّبها أولاده لدخلوا الجنة أفواجاً. كما يتضح من الجدول الآتى:

	آدم	أبناء آدم
مكان المعيشة	الجنة	خارج الجنة
شرط الجنة	تجنب الشجرة	تجنب الشجرة
ماذا يحدث عند تجنب الشجرة	يبقي في الجنة وتنبذ الشجرة خارجها	يدخل الجنة وحده دون الشجرة
الفارق	الشجرة مرئية	الشجرة غير مرئية

والخلاصة: كان آدم ﷺ فى الجنة فقيل له تجنّب تلك الشجرة تبق فى الجنة.. لكن أبناء آدم ولدوا خارج الجنة، ونقلت الشجرة معهم خارجها، وقيل لهم الأمر نفسه الذى قيل لأبيهم، تجنبوا تلك الشجرة تدخلوا الجنة.

الإنسان زمن لذا يولد كل يوم من جديد. وكل منا آدم جديد يحمل شجرته، ولا ينبغى أن نأكل من الشجرة ثم نسخط على أبينا لأنه أكل منها. لقد منحنا نفس فرصة أبينا.. مهر الجنة تجنب الشجرة.

﴿٣﴾

كثيراً ما تساءلت: هل ترك سيدناآدم وصية ؟ لابد أنه فعل، فماذا عساها تكون ؟

بدهى أن الوصية الأساسية هى تجنب الشجرة ليساعدهم إلى العودة إلى بيتهم الجنة. لابد أنه سيظل يحذرهم الاقتراب من الشجرة،وأن سيدنا آدم لو أراد أن يترك وصيةً لأولاده، لكانت الوصية حتماً هي نتاج خبرته أو دروسه المستفادة من صراعه مع عدوه إبليس. وعلى أولاده ـ ونحن منهم ـ أن نتمثّلها عند تعاملنا مع عدونا سواء كان العدو إبليس أو أعوانه من البشر..

وهذه الوصايا يمكن أن تكون:

- **من يسبق يومه لا يلحق بغده.**
- **إياكم وما لا تحتاجون إليه**
- **لا تغفل عن عدوك فإنه عنك لا يغفل..**

فقد نتجت تلك الوصايا من أنه قد أكل من الشيطان ليحقق الخلود. ولو لحظنا قبل أكله منها لوجدناه كان خالداً بالفعل، يأكل فلا يُخرج، وجلده هو أظفارنا اليوم. فمن أين يأتيه الفناء ؟؟ ويطيع الله فلن يخرجه من الجنة. إذن كان يعيش حياة الخلود قبل أن يتطلع إليه. ثم عندما أراد أن يمسك الخلود فى يده كانت الكارثة: انقشع عنه جلده العظمي، وانكشفت سوءته فأصبح بشراً من الذين نعرفهم الآن يأكل فيُخرج، يأتي البرد فيبرد، أي حصل على عوامل الفناء. فضلاً عن طرده من الجنة، أي أنه بتطلعه إلى الخلود فقد الخلود، وبحرصه على شيء فى الغد فقد اليوم.

واليوم إذا حاولنا أن نطبّق ذلك على حياتنا، أرى رجلاً يبني قصراً أكثر من دور، ويفرغ ماله فيستدين ليجعله تحفة، ويضطره الدينُ أن يبيعه بعد ذلك !! أما كان أغناه أن يقف عند ما يقدر عليه ؟! وقد نجد دولةً تستدين لتجعل من نفسها دولة عصرية ويضطرها الدين إلى الرضوخ للدول الكبرى التى تمتص دمها، فتتحول من دولة عصرية إلى جثة. ونرى لاعب كرة يحلم بالتتويج أثناء المباراة. ماذا يحدث لو حدث النصر؟! ويعيش لحظات ما بعد صفارة الحكم وفى غمرة انشغاله بالغد تدخل الكرة مرماه ويضيع الغد ويضيع التتويج، ونرى طالباً يضرب أخماساً فى أسداس ويحسب النتيجة، ويعيش فى احتمالاتها، وقد يرى أن ما يتمناه بعيداً فينصرف عن المذاكرة ؛ لأنه شغل باله بالغد.

وتأتي الوصية الثالثة ونراها نتاجاً طبعياً لما حدث بينه وبين إبليس، فقد طُرِدَ إبليسُ

من الجنة بسبب رفضه السجود لآدم، فلم ينسها له وظل يتحين الفرصة لينتقم منه، فى حين لم يفطن آدم لهذا العداء، فلما دخل إليه يطلب منه الأكل من الشجرة لم ينتبه فتمكن منه إبليس وأخرجه من الجنة.

هذه الوصية تصلح لنا، على مستوى الأفراد والدول، فإسرائيل هي عدونا شئنا أم أبينا، وهي لا تنسى ذلك كما لم ينس إبليس، لكن آدم الطيب يجتهد أن يُوهم نفسَه أنها تريد السلام !! وتكون النتيجة في كل مرة خروج آدم الطيب الغافل عن عدوه من الجنة، ليبدأ رحلة العناء والكبد في المنفى . وانظرى إلى أهل فلسطين.

﴿ ٤ ﴾

"**الإنسان هو الوقت**"، هذا ليس قولة مأثورة لأحد، بل هى فلسفتى ، إن الإنسان يعيش بين لحظتين، ميلاده ووفاته، لو أردنا تعريفاً للإنسان لقلت إنه مساحة زمنية، جسمه مسام وقتية ؛ لذلك أرى أرى أن من يجتهد فى إضاعة الوقت كأنه يقطع أجزاء من جسمه.. وحكمه فى نظرى حكم المنتحر. أليس الله سيحاسبه على عمره فيم أفناه ؟؟ وماذا خسر المنتحر سوى الوقت المتبقى من حياته ؟ وصدق من قال: "**ليبارك الرب كل الذين لا يسببون لى ضياع وقتى**".

التأجيل إذن وهو مذهب إبليس المفضل، هو حرب مركزة على الهدف مباشرة. إن إبليس يضرب فى جوهر الإنسان من الأساس، إن التأجيل معناه ضياع الوقت، معناه ضياع الإنسان، وليس غريباً أن يكون الوقت أحد ثلاثة أشياء يحاسبنا الله عليها. وقد قالت رابعة العدوية: "**يامعاوية، إنما أنت أيام، فإذا ذهب يوم مضى بعضك**".

إن أفضل أساليب الشيطان هو التأجيل، فهو لايدخل إليك مباشرةً طالباً منك الانصراف عما لايريده، بل يطلب منك تأجيله، ثم يداهمك الوقت فإذا به قد فات. ولعل ذلك يتسق على ماقلت آنفاً من أن الإنسان هو الوقت، فالتأجيل يعنى الانشغال عن الوقت أو الانشغال عن الذات، والانشغال عن الذات هو الموت. وقديماً فى أساطير اليونان قصة شهيرة متفرعة عن أسطورة أوديب Oedipus تتحدث عن الوحش أبى الهول Sphinx الذي يقف على باب مدينة طيبة Thebah يسأل كل من يدخلها حل اللغز (من ذا الذي يمشى على أربع صباحاً واثنين ظهراً وثلاث مساءً ؟) ،فمن لا يحل اللغز يلتهمه الوحش، فإذا أجاب أحدٌ على السؤال ينتحر الوحش، ولما كانت إجابة السؤال هي الإنسان، فإن من يغفل عن الإجابة يموت ويعيش الوحش، ومن يفطن

إلى ذاته ويعرف الإجابة يعيش ويموت الوحش. فالعلاقة عكسية بين الشر والإنسان. يعيش الشر (الوحش) فى غفلة الإنسان وغيابه عن ذاته. ويموت إنْ وعى الإنسان ذاته.

وعندما عرف أوديب الحل فقد عرف حقيقة ذاته. لذا لم يتحمل الوحش أن يعرف الإنسان نفسه فانتحر. وسيظل الصراع بين الإنسان والشر مرهوناً بإدراكه ذاته ولا انتصار للإنسان إلا بعدم غيبوبته. وقديماً أيضاً قال سقراط Socrates أو قرأ على باب معبد دلفى: " **اعرف نفسك أيها الإنسان فالحقيقة كامنة فى ذاتك** ". ويقتضى ذلك أن يكونالإنسان نفسه. فلا يتخلى عن صفات له ؛ لأنها لاتعجب المجتمع أو لأن الناس قد لا توافق عليها. ولنقل مثل سقراط: كنْ نفسك أيها الإنسان . يتحد ظاهرك مع جوهرك. فالإنسان يفقد نفسه فى تلك المنطقة مفرغة الهواء وهي انفصامه بين ظاهره وجوهره.

﴿ ٥ ﴾

سئلت مرة أو مرات عن التسيير والتخيير فى حياة الإنسان أي فى الفترة بين حياته ووفاته. ورأيي أن الإنسان مخيرٌ فى كل أفعاله. حرٌّ فيها. ولايكون مسيراً إلا فى اتباع الشر. بمعنى أنه مخيَّرٌ إذا اختار الخير. مسيَّرٌ إذا اختار الشر.

والمسألة ليست انجذاباً للجناس. التخيير مع الخير. والتسيير مع الشر. لكن لأن من يتبع الشر يكون مجبراً عليه. لكن ليس من قِبل الله ﷻ. بل من قِبل الشيطان.وإذن من حق الله ﷻ أن يحاسبه.

الإنسان مسئولٌ عن أفعاله. وهذا لا يتعارض مع علم الله بها. إن الله لا يجبرك أن تختار مايريده. بل يتركك وشأنك. لكن الشيطان يشدك إلى اتجاهه شداً. فلو اخترت اتجاه الله (الخير) وأنت بذلك مخيَّرٌ. نلت خيراً. ولو اخترت اتجاه الشيطان (الشر) فأنت مسيَّرٌ. لكنك ستعاقب عليه ؛ لأن حجة (غصب عنى) هذه لا يمكن أن تقدمها لله. بل تقدمها للذى أرغمك. والذى أرغمك ذاته سيقول وما شأني بك. لماذا انصعت إلي ؟؟

ومن هنا يأتى اتساق الجزاء مع التخيير.

﴿٦﴾

قيل لى من أحد تلاميذى فى بلقاس الثانوية بنين. كيف يكون الإنسان مخيراً،وقد سُجل كل شيء على الإنسان قبل أن يفعله ؟ كيف يكون مخيراً وهو لابد فاعل ؟ وإجابتى، كانت:

- لو شاهدت فيلماً تم تصويره، وأخبرت الآخرين بما رأيت، أتكون مسئولاً عما فعله بطل الفيلم ؟ لمجرد مشاهدتك ؟

قال: لا، لكن، هذا لو كان بطل الفيلم يعلم بما فعله، لكن اللبس سببه، أن البطل لم يعلم بما فعله، فكيف يكون مسئولاً عن سيناريو لا يمكنه أن يخالفه، وقد تم تصوير الفيلم قبل أن يفعل شيئاً ؟؟

- سألتك سؤالاً، هل المشاهد للفيلم يكون مسئولاً عن أفعال البطل.. أم البطل ذاته..؟

- البطل.. لكن.. ؟

- أفهم ماتريد أن تقوله، لكن دعنى نتفق أن مجرد العلم بما فى الفيلم لا يعنى مسئولية الذى علم..أتوافقنى ؟

- نعم..

- لو قمت الآن بتركك على حريتك، مع وضعك تحت كاميرا تصور كل ما تفعله أنت دون تدخل منى، ودون أن تلحظ حتى وجود الكاميرا، أأكون مسئولاً عن أفعالك أم أنت المسئول؟ .

- أنا طبعاً..

- ماذا لو أخذت شريط الفيلم هذا فى رحلة زمنية إلى الماضى، وقابلتك وأنت شاب وعرضت عليك الفيلم الذى صورته أنت بكامل حريتك، أأكون أنا المسئول عن أفعالك لمجرد أنك ستفعل ما جاء فى الشريط بالضبط ؟ إنك لن تخالف شيئا مما فى الشريط، بل تعجز لو أردت المخالفة : لأن الشريط صوّر ما فعلته أنت بالفعل. كل ما هنالك قدرة لشخصي الضعيف فى الإبحار فى الزمن والعودة إلى الماضي بعض الوقت. ماذا تفعل عندما ترى نفسك لا تقدر أن تخرج عما جاء فى الشريط الذى حملته إليك ؟ أتتهمنى أننى المسئول عن أفعالك وأنك أجبرت عليها ؟ لا حظ أننى لم أتدخل أبداً فى أفعالك. أجب.

- لا، طبعاً.

ـ ألا يقدر الله بإرجاع شريط تم تصويره إلى بداية الزمن ؟؟ المسألة مسألة قدرة على رد الزمن للأمس بعد أن يفعل كل إنسان مايريد. تم تصوير كل شيء. كما أراد الأبطال، وأخذ الشريط إلى بداية الزمن. وهذه قدرة بسيطة بالنسبة لله الذى خلق الزمن ذاته.

الدليل على صدق ما أقول، إنك تعلمين أن رؤية النبي حقيقة، فلو رأى شيئاً لابد أن يحدث، فهل عندما يتحدث قبل حدوث الشيء عنه يكون مسئولاً عن الفعل، وليس فاعله ؟؟! بالطبع لا، هو كل دوره فقط العلم، لكن قرار الاختيار تم من فاعله، وليس النبى بمسئول لمجرد أنه علم بالفعل قبل حدوثه، فالعلم بالشيء لا ينافى أبداً أن يكون الفاعل مسئولاً عن فعله.

الله إذن لا يعد مسئولاً عن أفعالنا لمجرد علمه المسبق بها قبل أن نفعلها.

﴿٧﴾

فى هذا السياق، أذكر أن طالباً آخر قال لى: لكن هناك حديث لا أذكر نصه يقول إن الله أخذ بيمينه.. وأخذ بشماله، فما جاء بشماله: فهو فى النار، وما أخذ باليمين فهو فى الجنة.

وكانت إجابتى: إنها يد واعية، تدرى بالنفوس التى خلقتها، وهل ما جاء فى يده اليسرى إلا أمثال أبي لهب وفرعون ونمرود، وإذن الله عزّ وجلّ كان يدرى بعجينة تلك النفوس وأنها نفوس شريرة عندما تنزل إلى الحياة سترتكب مبررات دخولها النار وستكابر، وترفض طاعة خالقها.وتلك النفوس الخبيثة لا تملك قرار الاختيار، لا تستطيع بعد أن سلمت نفوسها للشيطان أن تتركه وتختار سواه، فهى مُسيَّرة، عاجزة. لو لديها القدرة على الاختيار لقاومت إبليس وهو يسوقها كما تُساق البهائم.

لقد أظهر الله عجزهم، وتحداهم أن ينفوا هذا العجز، فقد أنزل فى قرآنه مصير بعضهم محدداً بالاسم،ولنضرب مثلاً بأبى لهب وزوجته، لقد أخبر القرآن عنهما بأنهما فى النار، وكانا مازالا على قيد الحياة، فهل حاول أحدهما أن ينقذ نفسه ؟ قد يقول قائل ربما لم يقتنعا بأن محمداً صادق، والحقيقة أنهما كانا متأكدين من صدق محمد ﷺ، بدليل خوف أبي لهب الشديد على ابنه ؛ لأن محمداً ﷺ دعا على ابنه بأن يأكله كلبٌ من كلاب الله.

يقول الشيخ الشعراوى: لقد كان أبو لهب يستطيع أن يقضى على الإسلام وعلى محمد بكلمة واحدة، لو أعلن إسلامه بعد أن نزل القرآن بقوله ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١﴾. إن أبا لهب المحارب للرسول ﷺ بكل قوته، الهادف إلى إظهار كذبه بكل ما يستطيع إلى درجة أن يمشى وراء النبى ليكذبه للعرب، تأتيه الفرصة ليدمر هذا الدين بكلمة واحدة أن يعلن إسلامه ولو كذباً،فإذ به يظهر عاجزاً عن الاستفادة من الفرصة.

لكن أكان يمكنه إعلان إسلامه، مستحيل، قد سلبه الشيطان نفسه، وتركه عاجزاً عن اتخاذ قرار أو اختيار، فلم يعد قادراً على ترك حزب الشيطان.ألستم معى أنه مُسيَّر، لا حول له ولا قوة ؟؟ وقد أظهره الله للعالمين فى تلك الصورة البشعة، ولكن هذا لا يعفيه من العقاب : لأن الذى سيحاسبه (الله) جعله مخيراً، فانقاد لآخر (الشيطان) انحرف به، فاستحق العقاب.

ولايقدم الله جنته جزاء عمل، لقد عبد رجل ربه خمسمائة عام، فقال الله له: ادخل الجنة برحمتى، قال بل بعملى، فحاسبه ربه على نعمة واحدة هى البصر، فوجد عمله كاملاً لايسدد تلك النعمة، فقال الله: خذوه إلى النار، فقال له بل ادخلنى الجنة برحمتك، فأدخله.

فالقضية باختصار، إن الإنسان مُخيَّر، أمامه الخير والشر، ومعه فطرته المتجهة إلى الخير والإيمان، سيتجه إليه لو لم يتدخل أحد ويأخذه بعيداً عن الطريق، فإذا اتجه إلى الخير وطابق الفطرة استحق مكافأة الله وأن يدخله الله الجنة برحمته. لكن لو شده إبليس ليصرفه عن هذا الطريق وعجز الإنسان أن يقاوم هذا الشد أو القيد، بل مضى كالعبد وراء سيده فهو مُسيَّر. ويستحق أن يعاقبه الله على مخالفة الفطرة.

وأتركك في نهاية الكلمة مع قصة أعتبرها محاولة لكتابة قصة قصيرة لحدث تاريخي سابق، فهى قصة يمكن أن ينطبق عليها من الأدب الإسلامي: فهى محاولة لجر الماضى إلى الحاضر، وتجسيد حدث قديم معروف لكن بحرفية القصة التى تشدك وكأنك لا تعرف ما سيحدث.



إنهم قاتلوك

لأنهما صديقان، مدينة كل منهما هى مدينة الآخر . فهما الآن معاً، يطوفان بالكعبة، كما كان يفعلان دوماً، وكأن شيئاً جديداً لم يحدث، لكنه حدث، يشهد على ذلك محاذرة كل منهما الحديث فيه، يأخذان في الحديث في كل شيء إلا فيه، هو إذن موجود، ومن ينكره ؟ وبخاصة هنا في مكة، وكل شيء فيها ينطق به، وبرغم رحيل محمد من مكة، فلا يشغل أهلها سواه. إنه حاضر بغيابه، فكيف لا يكون موجوداً؟؟؟

كان كل منهما يمشى صامتاً، فإذا انتبه أحدهما على صمته، يقف أن صاحبه أيضاً كذلك، ويوقن أن صاحبه كان في تلك اللحظة يفكر التفكير نفسه، لقد كانا صديقين تتوارد خواطرهما، ويفهمان بعضهما البعض، ربما ينطق أحدهما الجملة فيكملها صاحبه، ألا يفهم الآن كل منهما أن صاحبه الصامت جواره يفكر في هذا الأمر الذى يتجنبان أن يظهر في حديثهما، ويسيطر على تفكيرهما.

يخرجهما من الصوت صوت جهورى، صوت من لا يعرفه يقول هذا سيد تلك البلدة، صوت مسيطر ومفعم بالإحاطة، كأن تلك البلدة قصر وهو ملك القصر، يرتفع صوته وحده، وينتبه الجميع.

- أبا صفوان !!

لم يضلا عنه، أحدهما يعرفه جيداً، والآخر عرفه من نبرة صوته، ذلك الصوت الذى يردهما إلى ما يحاذران منه، ويتجنبان بصمتهما الإشارة إليه، وإن كان صمتهما يشير إليه.

لم يردهما الصوت إلى ما يحاذران منه فحسب، لكنه كان يكشف عن المكانة التى يضع فيها صاحب الصوت نفسه، فكأنه ينادى عبداً من عبيده، وليس سيداً مثله من كبراء مكة، العجيب أن أبا صفوان أمية بن خلف لم ينكر تلك السيادة لصاحب الصوت ، بل يجسدها، وكأنه يعترف له بتلك السيادة.

قال أمية هامساً لصاحبه :

- هذا سيد مكة.

كان الصوت فارقاً بين الاثنين، وكأن أمية يسمع صاحبه يقول في نفسه : بل سيدك أنت !

أكمل أمية :

- أبو الحكم بن هشام.

ومرة أخرى يكاد أمية يسمع صاحبه يقول في نفسه :

- أبو جهل بن هشام.

هكذا سماه محمدهم. فلا ريب أن سعداً كان يجول في خاطره لحظتها ترجمة الاسم بلغتهم. أمامهما حائط يعوق استمرارهما معاً. ظلا يهربان منه. وهاهو أبو جهل يجسده لهما. حتى لا يواصلا غض البصر عنه.

- من هذا الذى معك ؟

حقاً تحولت مكة إلى قصر. هذا سيده. وكل من في القصر عبيد له. منذ متى يتدخل السيد في خصوصيات سيد آخر ؟ نظر سعد إلى صاحبه. وجده كالصبي الصغير الذى ضبط متلبساً بخطأ. لقد كان أمية قلقاً. فالبلد في عداء مع محمد. وهذا العداء يبيح للقائد أن يفعل أى شيء. وتوقيف أبي جهل لهما يعنى أنه يعرف من هذا الضيف ؟

- إنه سعد بن معاذ. أخي من يثرب. يكرمنى هناك. فأرد له الكرم هنا.

- ألنا أخوة هناك يابن الرقطاء !

لزم أمية الصمت. لقد نصب أبو جهل نفسه سيداً. بل نصبوا هم أنفسهم له عبيداً. وصدق الله العظيم في فرعون : استخف قومه فأطاعوه. وهذا فرعون تلك الأمة.

انصرف سعد بوجهه عن صاحبه. فلم يعد له بصاحب. وهل مازال إنساناً. إنه فأر صغير لقد قال عنه الرسول إنهم قاتلوه. لكنه ظل يطمع أن يؤمن. وكان يراود نفسه كيف يفاتحه في الحديث. لينجو به. الآن وثق أن لا نجاء. وأن هذا الفأر أحق بالقتل الذى أنبأ عنه الرسول.

كان يؤمل أن يرد عنه هذا المصير لكن أمية باستخذائه أمام هذا الفرعون قطع كل أمل. وفي الوقت الذى استجمع أمية ضعفه أمام سيده. كان سعد يشحذ نفسه ليكون أقوى من سيده. إنه يتحفز له بالرد.

- ياهذا. أتعينون أعداءنا علينا. ثم تأتون إلينا تريدون أن نكرمكم. وكأن شيئاً لم يكن..

قال سعد :

- ياهذا : أما والله لئن منعتنى هذا لأمنعك ما هو أشد عليك منه. وهو طريقك إلى المدينة.

لم يعد الشيء الخفى خفياً. بل أصبح أوضح شيء. هى الحقيقة هما فريقان. وهذا سعد يلبس إسلامه جلياً في وجه أبي جهل. لا يخشاه. بل يقف له نداً بند. ووجد أمية نفسه بعيداً عن صاحبه. ويقف في خندق سيده. لم يعد يقدر على الجمع بينهما كما كان يفعل من لحظات. لقد كان يجل أبا الحكم. ويصاحب سعداً في رحلته في مكة. الآن أمام تلك المواجهة السريعة التى لم تتحرج أو تحاذر. كان عليه أن يقف في أحدالخندقين. وقد وجد نفسه في ذيل سيده. ووجد نفسه يصرخ في صديقه الذى كان يرافقه. وليس يحميه أمام من يعترضه :

- لا ترفع صوتك ياسعد على أبي الحكم. سيد أهل الوادي.

لم يتفاجئ سعد بذلك. فقد ظهر الحق. فالكفر ملة واحدة. وعند سفور العداء لن يغالط نفسه. ويرى في أبي جهل عدواً.وفي أمية صديقاً. وكما لم يغالط أمية نفسه ووقف مع حزبه. كذلك لم يغالط سعد نفسه. ووقف مع نفسه. فقال موجهاً حديثه إلى سعد :

- دعنا عنك يا أمية. فوالله لقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إننا قاتلوك.

ومضى سعد تاركاً الاثنين..

- ما بك يا أبا صفوان، هل أفزعك قوله ؟
- لقد علمت يا أبا الحكم أن محمداً لا يكذب.
- دعك منه لقد أراد مضايقتك.

عاد أمية أإلى بيته، لو كان الخوف يمكن أن يصبح رجلاً لكان أمية هذا الرجل، لم تكد أم صفوان تراه حتى فزعت:

- ما بك ؟ يا أبا صفوان..

لم يرد

- أين صديقك سعد ؟؟
- زعم أن محمداً أخبرهم أنهم قاتلى.
- بمكة ؟
- لا أدرى، لكن كيف له بي في مكة، لابد أن يكون ذلك خارجها، والله لا أخرج من مكة.
- أخشى ألا توفى بقسمك إذا خرجت مكة لقتال محمد !
- والله لا أخرج من مكة !

لم يكد يصرخ القائل:

- اللطيمة، اللطيمة.

حتى تحولت مكة من نائم إلى رجل يطارده أسد، هذه تجارتهم في خطر يعترضها محمد، وأصر أبو جهل على الخروج، ولا كلمة في تلك البلد سوى له، ورأى فيه أمية أنه خروج فرعون وراء موسى، خروج بلا عودة. يقسم بينه وبين نفسه أنه لن يخرج معه.

لكنّ أبا جهل يناديه بصفة خاصة أمام الناس:

- لعلك لن تخرج معنا يا أبا صفوان ؟ فقد غلبك الجبن، واستعبدتك قولة سعد ! لو لم تخرج ما تعجبت.

هكذا أبو جهل يدرى جيداً كيف يحمل الآخرين على مايريد، هكذا فعل مع عمه أبي الوليد بن المغيرة عندما لمس فيه ميلاً إلى محمد، فجمع له مالاً وقال له: القوم قد جمع لك هذا المال لأنهم رأوك قد تهم إلى محمد بغية المال، فانبرى عمه للنفى، وأنه ليس بحاجة إلى المال، وليثبت أنه لا حاجة له إلى المال كان عليه أن ينفى ميله إلى محمد. كذلك هاهو يتهمه الآن بالجبن علناً أمام الناس ليدفعه أيضاً للنفى، ومن ثم يجد نفسه في الحملة الخارجة من مكة.

ولأنه جبان فعلاً كما يقول أبو جهل، جبن أن يقر بالجبن.

أبو جهل يدرى جيداً كيف يحمل الآخرين على مايريد، هكذا فعل مع عمه أبو الوليد بن المغيرة عندما لمس فيه ميلاً إلى محمد، فجمع له مالاً وقال له: القوم قد جمع لك هذا المال لأنهم رأوك قد تهم إلى محمد بغية المال، فانبرى عمه للنفى، وأنه ليس بحاجة إلى المال، وليثبت أنه لا حاجة له إلى المال كان عليه أن ينفى ميله إلى محمد. كذلك هاهو يتهمه الآن بالجبن علناً أمام الناس ليدفعه أيضاً للنفى، ومن ثم يجد نفسه في الحملة الخارجة من مكة.

ولأنه جبان فعلاً كما يقول أبو جهل جبن أن يقر بالجبن، وانبرى يدافع أمام الناس أنه خارج

على رأسهم في الغد. كان يعشم نفسه ألا يكون هناك قتال. فهم ذاهبون لحماية القافلة. ولو علم محمد بعددهم سيتحاشى قتالهم. لكن ماذا لو حدث قتال. سينتصر قومه. لكنه لن يعود. سيكون من ضمن العدد القليل الذى سيقتله محمد. لم يكن هكذا. فماذا حدث له منذ هذا اليوم. لقد رأى في سعد شجاعة لم يرها فيه من قبل. ومن وقتها عهد في نفسه جبناً لم يعرفه في نفسه من قبل..

كان يرتعد خوفاً وهو يلبس دروعه :

- كم من ميت مات ودروعه عليها ؟ هل يمنع الموت إذا نزل شيئ ؟؟

- أمازالت تخشى كلمة سعد كما قال أبو الحكم ؟؟

- بل أبو جهل !

- أتقول كما يقول المسلمون ؟

- قاتله الله. إنه يجرنى إلى هلاكي. أساق كالمربوط بحبل إلى بئر.وهو الذى يسوقني. صدق والله محمد عندما سماه أبو جهل. أنه يقودنا إلى الهلاك.

- وما الذى يجعلك موقناً بصدق سعد ؟

- مازالت أذكر قولة أبي جهل لمحمد : نحن لا نكذبك. لكنا نكذب ما جئت به. فمحمد لا يكذب.

- فإذا كنت تصدقه فلم تكذبه ؟؟

- لا أدرى. أدرى بصدقه. ولا أقدر على إعلان تصديقه. كأن أمرى سُحب مني. ولم يعد من حقي أن أفعل شيئاً. كأنى أصبحت مثل أبي لهب. كان يجتهد في تكذيب محمد. فلما هجاه محمد قلنا له : لو آمنت به لأخرجته كاذباً. لكنه عجز أن يفعل. كنت أتعجب لماذا لا يفعل وهى القاصمة لمحمد ؟؟ الآن أتفهم لماذا لم يفعل. لأنه لم يكن يستطيع أن يفعل. لأنه مثلى سُلب السيطرة على نفسه .

- كأنك تريد أن تؤمن بمحمد..

- بل قولي كأنك لا تستطيع أن تؤمن بمحمد. قولي قد حكم محمد عليّ كما حكم على عمه. ولم يعد لنا سوى الطريق الذي اخترناه في البداية. كلانا ثمة سد بينه وبين نفسه. لو أراد أحدنا أن يؤمن بمحمد ما استطاع.

- لكن أبو لهب لا يريد..

- والله لو أراد ما استطاع..

- فهل تفعلها ؟

- لو كان هذا ينقذني من الموت. لا أريد سوى الهرب من الموت..لا أريد أن أموت.

- فافعلها إذن. والحق بمحمد.

- لا أقدر. قد حكم علي. ولم يعد لى مناص. ويلي. ويلى.. أنا الذى ظل محمد يلح عليه سنين أن أتبعه. فلا يجد سوى المكابرة. الآن قد أغلق بابه. وليس بينى وبينه سوى السور.

- إن خوفك يضخم وهمك. فدعك مما أنت فيه. فلن يسرى عليك سوى ما يسرى على غيرك. ولعل الحرب لا تقوم..

- هى والله قادمة وإنى والله مقتول فيها. هى روحة بلا عودة. قاتلك الله يا أبا جهل.

مضى إلى الحرب يجر أقدامه كأنه مقيد يُساق إلى الإعدام.وعينا أبي جهل تكاد لا تطارد

سواه.وابتسامة ساخرة على وجهه كأنها تعريه. وتقول له:

ـ يا أسير قولة سعد. ما حال خوفك ؟

هو أيضاً يراه لأول مرة على حقيقته. لم يعد السيد الذى يرضخ له بهواه. بل عبد يكرهه. لم يعد يذكره إلا باسمه الذى سماه به محمد: أبو جهل. ما يكاد يراه حتى يقفز هذا الاسم إلى ذهنه. كأن شكله ينادى هذا الاسم. صدق محمد ورب الكعبة: ما هو إلا الجهل نفسه.

ما الذى يمنعه من الإسلام ؟ ومحمد مازال ينادي الناس إلى الإيمان ؟ وهو نافر من نفسه ومن حزبه. وكافر بقائده ؟ فلماذا لا ينفلت من هذا المعسكر إلى المعسكر الآخر ؟ أيكون السبب كلمة محمد: إنهم قاتلوك ؟ لقد اعتمده محمد كافراً وحكم عليه. ولأنه نبي فالحكم لا بد أن ينفذ. ولو أسلم لمنع تنفيذ الحكم. إسلامه يُخرج محمد كاذباً. إذن لابد أن يظل هكذا عاجزاً عن الإسلام ليظل محمد صادقاً. وصدقه يعنى القتل. كذلك أبو لهب. حكم الله عليه بالكفر والذهاب إلى جهنم. وهاهو عاجز أن يترك الكفر ولو على سبيل الادعاء. لكن أبا لهب أحسن حالاً منه. فلم يخرج إلى القتال واستأجر بدلاً منه رجلاً يقوم مقامه. الحال إذن واحد. وأبو لهب يوقن بالنهاية ولهذا يؤجلها قدرما يستطيع. هى النهاية إذن بالنسبة له. لقد حكم رسول الله عليه بالقتل. وهو الآن مساق برغم أنفه إلى هذا القتل. لو هذا الغبي أبو جهل يفهم. هو يسوقه لاثبات صدق محمد. لكنه الجهل نفسه. لا يفهم ويظن نفسه أبا الحكم.

لا يعنيه الآن سوى أن ينجو من الموت الذى يحاصره كرمال الصحراء. يريد أن يصرخ:

ـ ياقوم. هذا أبو جهلكم يسوقكم إلى الهلاك. ياقوم. محمد الذى لا أستطيع أن أومن به نبي. حكم عليّ بعدم الإيمان. وهأنا ذا أدرى أنه نبي.

ويلك ياأمية أصبحت أسوأ حالاً من عبدك بلال. بلال. وددت لو بادلتك وكنت الآن في مكانك. أتراني غداً أقف أمامك وجهاً لوجه. الوجه الذى وقفت عليه بقدمي. أيقف في وجهي ؟؟ أدرى أنه سيقف. ولعله يتجاوز ذلك.. بل سيفعلها. ويقف على وجهي كما فعلتها معه.. هل أستطيع أن أرفع يداً ؟ وأنا أعجز من أشل ؟؟ وهو سيلبس ثوب الشجاعة الذى لبسه سعد في وجه أبي جهل.

لم تكد تبدأ المعركة حتى تيقن مما يخاف. لقد أصبح المسلمون بعددهم القليل كلهم سعداً. لم ير يوماً كهذا. فرسان مكة وأبطالها كأنهم حيل بينهم وبين أنفسهم. لم يعودوا هم. لا يفعلون سوى الاستسلام الأبله للسيف أو الأسر. أو الهرب.هؤلاء القتلى يبرهنون أن أبا جهل قدشدهم إلى هلاكهم في هذا المكان. وجذبهم من بيوتهم ليكونوا برهاناً على صدق محمد. إنهم روحة بلا عودة. لقد خرج بهم خرجة فرعون وراء موسى. فالنهاية واحدة..

هاهو فرعونهم يحاصره صبيان يناوشانه بالسيف. ولا يستطيع أن يحمى نفسه منهما. وهاهو أمامه. ولا يقدر أن يسرع لإنقاذه. بالأمس لم يتحمل أن يرفع سعد صوته عليه.واليوم يتحمل أن يرى صغيرين يرفعان سيفيهما عليه ويطرحانه أرضاً. وهاهو راعي الغنم يراه مقتولاً فيرتقى على صدره. أبو الحكم الذى كان صوته يزيح الناس أمامه. يقف هذا الراعي على صدره. لقد سبقنى إلى الميتة التى تنتظرني. يرى أبا جهل قد استحال إلى صورته. وقد استحال راعي الغنم إلى بلال. ليس خيالاً. فالخيال كله اليوم قد أصبح واقعاً. هي الحقيقة هو ميت بعد قليل. وبلال قادم ليقف على صدره. كلا. بل هو ميت منذ قليل.

لا أمل في الهرب. فالخوف مسام جسده.وقدماه لن تسعفه على الهرب. سيلحقون به. وكيف يهرب من مصيره الذى وقع الآخرون فيه. وقد كان هو وحده الذى يثق في حدوثه ؟ أم لعلهم هم أيضاً كانوا يثقون من تلك النهاية لكن يغالطون أنفسهم. ويتظاهرون بعكس الحقيقة.

ماذا يفعل: البقاء موت. والهرب موت. وهاهو ابنه صفوان قد لحق به. فلن يمنعه الموت. ولم يعد احتمال الانتظار. الموت ولا انتظاره. يريد أن يتمدد كهؤلاء الموتى.وينتظر قدوم بلال. هو قادم. قادم.. قالها سعد: إنهم قاتلوك.

- أين أنت يا سعد. لأستحلفك بالله أن تقتلني وتريحني..

لكن لا صداقة. كما لم أنس بالأمس إنى من معسكر أبي جهل كذلك أنت لن تنسى أنك في معسكر محمد. ولن يكون بيننا إلا السيف في هذا اليوم اليتيم الذى لا يوم بعده. ويلك يا أمية. اليوم جئت لقدرك لتسدد ما فعلته. ألم تضع في رقبة بلال حبلاً لتطوف به الصبية في مكة ؟؟ أنت الآن قد علقت الحبل في رقبتك. ولم يعد سوى الوقت حتى يحضر بلال. والله لو حضر أعزل. سيشدك من سيفك الذى تمسكه في يدك. أيها السيف. لم تعد سيفاً.أنت حبل يقيدني. آه يا بلال. يا عذابي الذى أعذب به. افعل بي كل ما فعلته. لكن لا تقتلني.. لقد كنت خيراً منى. عذبتك وظللت شامخاً. لا تنهار. أنا الآن منهار قبل أن تعذبني.. كم وضعت الصخرة الكبيرة على صدرك. ولا تزيد عن قولتك الشهيرة أحد. أحد.. فماذا سأقول أنا لو وقفت على صدري.. جهل.. جهل..

يحس بثقلها الآن. لكنه لا يملك قوة عبده. ليته يضع جبلاً على صدره ويقول له: اكفر بدينك. لقد رفض بلال أن يكفر. لكنه لن يرفض. بل سيعجز. لن يقدر.

- ألا من أحد يحميني من بلال ؟

- وأين بلال يا أبي ؟

- إنه قادم ياولدي. قادم. حتى لو لم يكن قد خرج معهم. هو قادم. معذرة يا بني أن تراني هكذا. لكنى خائف. لو تبرزت الآن ما خرج سوى خوف..

- فلنهرب يا أبي كما فعل الناس..

- لا نجاء يا بني..

- فهاهو صاحبك عبد الرحمن بن عوف. هلم بنا نأتسر له. فليأسرنا. وفي الأسر أمان. نفتدي نفسنا بعد بالإبل.. ولدينا منها كثير.

- نعم الرأي يا بني..

كان ابن عوف قد انتهى من القتال. يحمل أدراعاً استلبها في المعركة. يخرج إليه أمية وابنه.

- هل لك فيَّ ؟ فأنا خير من هذه الأدراع التى معك. ما رأيت كاليوم قط.أما لكم حاجة في اللبن. خذني أنا وابني أسيرين.ولك ما تريد من فداء.. استحلفك بالرحم.. لو لم تأسرنا قتلنا غيرك.

وألقى عبد الرحمن الأدراع وأسرهما. ومضى بهما يقودهما. حتى يراهما بلال:

- رأس الكفر أمية بن خلف. لا نجوت إن نجا.

- أى بلال ! أسيري.

- لا نجوت إن نجا

ـ لقد أصبحت أسيره يابن السوداء.

ـ لا نجوت إن نجا. لا نجوت إن نجا. يا أنصار الله. رأس الكفر أمية بن خلف. لا نجوت إن نجا.

وأحاط المسلمون بهم. وضاع صوت عبد الرحمن. لا يسمعه أحد. وسقط الابن قتيلاً. وصرخ أمية لمصرع ابنه. حاول عبد الرحمن أن يحميه دون جدوى..

ـ انج بنفسك. ولا نجاء. فوالله ما أغنى عنك شيئاً.

لكنه تسمر في مكانه

ـ انج يارجل..

ـ لا نجاء والله.. لابد أن يركب بلال صدري. ولا سواء..

ـ قتلت عدو الله أمية بن خلف.. قتلت عدو الله. رأس الكفر..

قال بلال هذا ووقف على صدره. ليكون آخر شيء يراه أمية قبل أن يلفظ نفسه الأخير صورة بلال وهو يقف على صدره ويقول: أحد. أحد.. وهو يهمس: جهل.. جهل..

﴿٨﴾

وأختم حديثى بسؤال تعرضت له عن توبة إبليس، قال لى أحدهم: لكن إبليس لو أراد أن يتوب، فلن تُقبَل توبته حتى لا يظهر القرآن والكتب السماوية فى شكل مخالف. فالكتب تؤكد هلاك إبليس فى جهنم. فماذا لو تاب ؟ إما تقبل توبته. فيخالف نص الكتب أو ترفض توبته وفى هذا تعاطف معه.

وقلت: هكذا كان فكر عبدة الشيطان. أشفقوا على الشيطان. وما أبرع إبليس وهو يلعب تلك اللعبة مع أعدائه. إلى حد أن ينتزع منهم الإشفاق عليه. وهو لا شغلة له سوى تدميرهم. وقد لعبها إبليس من قبل. فقد ذهب إلى سيدنا موسى وطلب منه أن يتوسط له لدى الله ليقبل توبته، ولم يرفض رب الرحمة. لكنه قال إن سبب الغضب على إبليس هو رفضه السجود لآدم. فإذا أراد أن يُتاب عليه فليكفّر عن الجريمة ذاتها. يسجد لآدم. ولأن آدم مات. فليسجد لقبره. وهنا يعاود إبليسَ داؤه ويتكبر قائلاً: لم أسجد له حياً أفأسجد له ميتاً ؟؟ وبذلك ردّ رب العزة كيد الشيطان فى نحره، وأصبح هو ذاته عائق توبة نفسه.

(الكلمة الرابعة)

وللموت حكاية

الكلمة الرابعة:

وللمـوت حكـايـة

من الغريب حقا أن تقودنى نفسي للحديث عن الموت وأنا أتحدث إلى طاقة كلها حياة.

﴿ ١ ﴾

لكن هل الموت إلا الحياة ؟؟! إن كل وسائلنا فى إقامة الحياة تصل بنا فى النهاية إلى الموت.. !! هل انتهت طريقة إى إنسان فى الحياة به إلى طريق آخر غير الموت ؟؟

بل إننا كلما توغلنا فى الحياة، فهذا يعنى اقترابنا من الموت، إن الموت هو الطبيعى والعادي، ودوما العادى لا يُلاحظ والموت دوما لا نلاحظه، نفاجىء به، وإذا حط فى بيت كان كالضيف الغريب، أليس هذا ؛ لأنه عادى ؟؟

سأحكى لك حكاية عن وزير الملك سليمان، إذ جاء ملك الموت إلى سليمان الحكيم، فرأى الوزير أن ملك الموت يمعن النظر إليه، وفى دهشة، بعد أن مضى ملك الموت، طلب الوزير من سليمان الحكيم أن ينقله إلى أبعد مكان، إلى الهند ؛ ليهرب من الموت الذى أحس من عينى ملك الموت أنه قريب جداً، فلبّى سليمان رغبة وزيره حباً فيه، وأمر الجن أن يحملوه فى التو واللحظة إلى الهند، فى عملية استمرت ثوانٍ، وبعد دقائق جاء ملك الموت إلى سليمان، فسأله الأخير: لماذا كنت تنظر إلى وزيرى بهذا الإمعان وبتلك الدهشة؟؟ فقال ملك الموت: دهشت عندما وجدته يقف بجوارك، بينما مُسجَّل فى الورق عندى أنى يجب أن أقبض روحه بعد ثوانٍ فى الهند، دهشت أن يكون هنا، وموعدى معه هناك، ومع ذلك فقد ذهبت إلى المكان المحدد، فوجدتُه هناك، فقبضتُ روحه، وسبحان الله !!

فى الأرجنتين يحكونوها هكذا: (يصل الخادم مذعوراً إلى بيت سيده، ويقول: سيدى، لقد رأيت الموت فى السوق وقد أومأ إليّ متوعداً، يعطيه السيد حصاناً ونقوداً، ويقول له: اهرب إلى سامارا، يهرب الخادم، وفى وقت مبكر من مساء اليوم نفسه، يلتقى السيد بالموت، فيقول له: لقد أومأت إلى خادمي متوعداً هذا الصباح، فيرد عليه الموت: لم

تكن إيماءة توعد. وإنما استغراب ؛ لأنى رأيته هنا. بعيداً جداً عن سامارا. ويتوجب على فى هذا المساء بالذات أن أقبض روحه هناك "

نهرب منه إليه. فهل نهرب حقاً ؟؟!! على فكرة لعلك لاحظت أننى استخدم كلمة ملك الموت ولا استخدم لفظة عزرائيل ؛ لأنه خطأ قاتل. فهذا ليس اسمه ومن يستخدمه يردد دون أن يدرى قوله اليهود العزير ابن الله ؛ لأن اليهود تزعم أن عزير ابن الله. ولديهم إيل تعنى الله.

﴿٢﴾

ماذا يعلمنا الموت ؟؟ الشجاعة لاريب. إن الموت كالذئب يشم رائحة الخوف، وإذا شمها هجم على الخائف وافترسه. قيل لعنترة كيف أصبحت ما أنت فيه رغم أنك لست أقوى العرب. قال بعدم الخوف. إن الخوف يجعل القلب يسقط بين قدميك. فلا تقدر قدماك أن تتحملك. أذكر مرة أن أحد الأبطال فى مباراة مصارعة كان خائفاً. لم يكد منافسه يهوشه حتى وقع صاحبنا. لماذا ؟ لأن الخوف خلق فيه الاستعداد للهزيمة. وقال أبو بكر الصديق لأسامة بن زيد: " **احرص على الموت توهب لك الحياة** ". فهمها أبو بكر مبكراً. أدرك أن الخوف هو أكسيجين الموت.

بعدم الخوف انتصر المسلمون وعددهم بضعة وثلاثين ألفاً على الروم وعددهم يتجاوز ثلاثمائة ألف. أى أن الروم عشرة أضعاف المسلمين. لكن الخوف معهم. والموت يوجد حيث صديقه الخوف. فى تلك الموقعة (اليرموك) عرض قائد الروم على المسلمين أن يعطيهم المال والكسوة والطعام ويرجعون. لكن قائد المسلمين يلمس خوفه فيزيده له ويقول: لن نرجع. فنحن قوم نحب الدماء ، وقد علمنا أن دماءكم أشهى دماء. فبلغ الخوف بقائد الروم مبلغه حتى ربط كل عشرة أفراد من جنوده فى سلسلة حتى لايهربوا. وأنبتت تربة الخوف نباتها الأثير الموت. ودوما أردد: **الموت يعشق الخائفين منه**. قال عبادة بن الصامت للمقوقس عندما خوّفه بجموع الروم: " **إنا منكم على إحدى الحسنيين. إما أن تعظم لنا غنيمة الدنيا إن ظفرنا بكم. أو غنيمة الآخرة إن ظفرتم بنا** " .

وشبيه بذلك ما قاله المغيرة بن شعبة لرستم قائد الفرس. الذى استهان بالمسلمين

عندما رأى قلة عددهم وضعف سلاحهم، فقال لرسولهم المغيرة: لا حول لكم ولا قوة ولا سلاح، ارجعوا وإلا نقتلكم . فقال المغيرة: "**إنْ قتلمونا دخلنا الجنة، وإنْ قتلناكم دخلتم النار**" . وما أروع بيت المتنبى:

إذا لم يكن من الموت بد   فمن العجز أن تكون جبانا

الموت يجردنا من الخوف، أو هذا مايجب أن يكون، وإذا لم نفعل عاقبنا بتحقيق ما نخاف منه، فالموت يبطش بالخائفين. يهذبنا بعيداً عن المطامع، وفقدان الذات، لا تستحق الدنيا التى نخلفها وراءنا أن نبيع أنفسنا لأجل شىء تافه فيها. والموت يخلق فينا الإيمان، إن من لديه الإيمان، لا يخاف. ما تزال إسرائيل بكل مجاهرتها بالسوء لايخيفها إلا طفل يريد أن يموت ؛ لأنها تعلم أن الرغبة فى الموت سلاحٌ لا ردع له، لا حصن يحمى منه.

﴿٣﴾

الموت ليس غولاً إلا إذا كان الإيمان ضعيفاً. مات للخنساء أخوها صخر، فملأت الدنيا عويلاً وبكاءً، وكتبت فيه الكثير من قصائد الرثاء التى تفيض لوعةً وحزناً، ثم يموت أولادها الأربعة فى موقعة القادسية، فتقول: "**الحمدلله الذى شرفنى باستشهادهم وأرجو أن ألقاهم فى الجنة يوم القيامة**". ما الذى غيّر موقف الخنساء من الموت، من امرأة يقتلها الحزن على فقدان عزيز واحد، إلى امرأة تصبر على فقد أربعةٍ مرةً واحدةً ؟؟ الذى غيّرها هو الإسلام الذى جعلها تؤمن بالبعث، وأن الموت ليس نهاية المطاف، وأنها يمكن أن تلتقى بمن مات بعد ذلك. الإيمان سلبها الجزع. يعلمنا الموت الرضى بالقضاء مهما كان. والرضى بالقضاء هو مفتاح السعادة فى الحياة. إن من يسخط لمصيبة، يعطيه الله مصيبة أخرى ليثبت له أنه كان على خطأ عندما سخط، والغريب أنه يزداد سخطاً، وكأنه يطلب المزيد من المصائب !

﴿٤﴾

فى النهاية لا يسعنا الهرب من الحقيقة الوحيدة فى الحياة، إن الدنيا قطار ولابد أن يصل بنا فى النهاية إلى المحطة، فمتى يصبح الموت ليس مفاجأة ؟ يقول المثل الياباني: "**تب**

قبل موتك بيوم واحد. ولماكنت لاتعرف متى تموت فكن تائباً على الدوام ". ويقول ﷺ : " **كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل** ". وكانت معاذة العدوية إذا جاء النهار: " **تقول هذا يومى الذى أموت فيه** ". تقضى يومها صائمة. وإذا جاء الليل قالت"**هذه ليلتى التى أموت فيها** ". فلا تنام حتى تقومى الليل. وصدق رسول الله ﷺ : "**إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح. وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء**".

إن الموت ليس عدونا. أتدرين لو لم يوجد الموت لمن سبقونا. ماكان لنا اليوم مكان على ظهر الأرض. فالموت الذى حصد بنى آدم أجدادنا هو الذى وهبنا الحياة.. فلماذا نغضب منه ؟؟ وقد يصبح الموت هو الحياة ذاتها. وانظرى قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ [1] ﴾. لذلك يجرى الشهيد إلى الموت بذات القوة التى يجرى بها غالبية الناس من الموت.

ويبدو إن كلا الفريقين يجرى إلى الحياة. إن الحلاج رأى أن بموته تحيا كلماته. فقرر أن يموت ليعيش. يقول على بن أبى طالب كرّم الله وجهه: "**استهينوا بالموت. فمرارته فى الخوف منه** ". لقد خُير النبي ﷺ بين الخلود فى الدنيا ثم الجنة وبين لقاء ربه والجنة. فاختار لقاء ربه. هذا يعنى أن الموت لا يخيف لوكانت الحياة نقية. سئل أبو حازم: مالنا نكره الموت ؟ قال: " **لأنكم خرّبتم آخرتكم. وعمّرتم الدنيا فكرهتم أن تنتقلوا من العمران إلى الخراب** ".

﴿ ٥ ﴾

لى قصة عن رجل عرف موعد موته. فرفض أن يبقى أيامه الأخيرة فى المستشفى. بين الأدوية. قال من العبث ونحن نسعى إلى تأجيل الموت أن نلبس كفنا. أدوية بآلاف الجنيهات وأشعات ثم فى النهاية موت قاتم. بعد رحلة لم تترك للسان قدرة على الطعم.قرر أن يعيش الشهور الباقية له. يموت وهو يجرى.

أتدرين لقد وقف يدافع عن فتاة ضد رجل مثله ثلاث أضعاف ؟ لم يخف. ولماذا يخاف ؟! ورأى الرجل فى عينيه عدم الخوف فانطلق دون قتال. إن اللاخوف هو السلاح الأكثر فعالية. لقد خاف القوى ؛ لأنه رأى فى عيني الآخر اللاخوف. أكاد أعتقد أن اللاخوف والموت شىء واحد. الجميع يخافون من الموت. عندما نظر الرجل إليه. نظر إلى الموت. خاف .. ضحك الرجل. الذى عاش عمره

(١) آل عمران ١٦٩

يؤثر السلامة، وفى كل مرة ينهزم، لم ينتصر إلا عندما لم يخف. كان عنترة ينتصر على من هم أقوى منه بقلبه، بعدم خوفه. كان عدم خوفه يبث الرعب فى قلوب خصومه.



ليلة موت يحيى

كان من الغريب ألا يجد ندماً بعد رحيل المريض، لم يقل له الحقيقة، ومع ذلك يجد نفسه مرتاح الضمير. كم من مرات حجب الحقيقة، لكنه كان يدرى أنه يساعد مريضاً ليستمر في الحياة، هذه المرة يختلف الأمر، لم يخبره أن الموت بعيد، بل أشار له أن الموت أقرب إليه من ظله، أخبره أن الموت يقف على بعد خطوات منه. وأن عمره لن يتجاوز عدة أشهر، ولم تكن تلك بحقيقة، فالجسم كان صحيحا إلا من بعض إجهاد.

لكنه غير نادم، فالأجل مجهول، وقد يموت هذا الرجل فعلاً اليوم أو غداً، بل ربما قبل المدة التى حددها له، وإذا لم يحدث، وطال عمره، فما خذلان النذير بمؤلم، بل أن الإنسان لا يفرح بالحياة فرحه بالنجاة من الموت!! إن الناس لا تمتلك موهبة الحمد على عدم حضور المصائب، لكنها تحمده كثيراً لو جاءت المصيبة ورفعت. فلابد من مصيبة أولاً، وهاهو قد منحه المصيبة، فلو حدثت فقد صدّقه، ولو لم تأت لظنها رفعت، ولحمد الله كثيراً !!

ليس فقط لم يندم، بل كان راضياً كل الرضا ؛ فقد كان المريض مجهداً، كأنه ظل يجرى يجرى ولا يجد فرصة لالتقاط أنفاسه، ولو استمر على هذا المنوال سيقع بعد سنة أو اثنتين أو ثلاث ولا يحس به أحد، ويموت كخيل الحكومة التى تضرب بالرصاص بعد عمل شاق لم تقصر فيه.

تملكه الرثاء نحو مريضه، مثله لم يحى، لم يعش، حياة روتينية منتظمة كالساعة، وفجأة يخطفه الموت ويصبح جثة هامدة بلا حراك. كم يتمنى لو كان فعلها مع أعز الناس، رفيقة العمر والكفاح والمهنة، لو توقف وأوقفها عن تلك الحياة المشتعلة كالنار عن هذا النجاح المتألق ووقف يستريحان، يضحكان، أو يجريان..

لقد ظل يسير في اتجاهه، وتسير زوجته في اتجاهها، طبيبة مثله، ومثله ناجحة، اختطفه واختطفها العمل، لم يقفا لحظة، فجأة اختطفها الموت، لتتركه وحده، يرثى لنفسه ولها، هل ضحكا، هل جريا في الخلاء. تمنى لو طبيب مثله أخبره أنها ستموت بعد شهور، وانطلق بها لتعيش شهورها الباقية ؛ ليخلصها من الآلة التى لبستها. ياللسخرية، ظل يسخر من الزار، وما يقولونه عن الجن التى تلبس الإنسان، واليوم يسلم بتلك الخرافات ! قد رأى بعينيه جنيًا يتلبس زوجته الطبيبة أستاذة الجامعة، جنى حديث اسمه الآلة، ولأنه لا يؤمن بالشعوذة لم يقم لها زاراً؛ لتصرع زوجته بالجنى الجديد ولم يكد يفتح بابه لهذا المريض، حتى لمح الجنى ذاته يطل منه، قرر أن يخلصه منه، لم يصف له علاجاً، بل أمره أن يذهب إلى الخلاء، أن ينطلق، أن يضحك، أو يرقص، أن يعيش حياة كالجنون. زار جديد، لكنه زار شيك يلبس بدلة.

أراد أن ينتشله، أن يلقى بحجر في بحيرة حياته الراكدة، لعل الحجر يصيب هذا الجنى فيرحل، ويعود للجسم آدميته، بدلا أن يكون حديداً، صدءاً، خردة. إن المرض الذى أصاب هذا الرجل من السهل علاجه

ماذا تفوز آلة مثله لو أصلحها الميكانيكى لتعود للطاحونة ؟ وتظل تدور حتى تنهك، ثم تموت بعد حياة كأنها الموت ؟؟ لكن ما أعظم من يرفع عنه السحر ويرده إنساناً.

أحس الرجل بصدقه، لأنه حقاً لم يكن يراه، بل يرى شريكة حياته.. أراد له، لها الحياة .. نظر إليه، قال له :

- ماذا فعلت بحياتك ؟ أعطاك الله عمراً، أنت الآن في السابعة والأربعين، فماذا فعلت ؟ الموت هاهنا، يطل برأسه، أمامه ثلاث شهور حتى يكسر قشرته ويخرج، حاول أن تعيش، لا تأخذ علاجاً، لا تأخذ شيئاً، هل توقفت عن التدخين ؟؟

-نعم.. منذ ستة أشهر..

- ارجع إليه ثانية، لم يعد يفيد، أفعل كل ما ترغب فيه، انطلق وعش بكل قوتك، من العبث ونحن نسعى لإزاحة الموت بعيداً عنا بعض الوقت أن نلبس كفناً ! من العبث وأنت تناضل لإبعاد الموت أن تشرب كيماويات، أبروفة للموت نريد ؟؟ انطلق يارجل ؛ فقد ماتت زوجتي دون أن تعيش..

مضى الرجل وهو يتعجب من الطبيب، الذى ترقرقت الدموع في عينيه مع جملته الأخيرة. حقا لماذا تحتوينا المستشفيات في لحظاتنا الأخيرة ؟ لماذا قبل الموت نكثف عمرنا في سجن ؟ لماذا تتحول كل حياتنا إلى طريق موصل إلى الإعدام ؟ وعندما يتقرر موعد التنفيذ ندفن أنفسنا في حجرة صغيرة في ملابس تشبه الكفن في انتظار التنفيذ. ألا ينشد هذا الميت بعض الهواء قبل الموت ؟؟ ألا يبغى أن يشبع عينيه من أماكن جميلة لآخر مرة.. ؟؟ ملعون الطب، مادام كلما تقدم، تقدم المرض أكثر. ما أعبث أن تدفع كل ما تملك لتؤخر الموت الذى لا يتأخر بعض الوقت ! أدوية بالآلاف ثم في النهاية موت قاتم، بعد رحلة لم تترك للسان قدرة على الطعم !!

لم يكد يغادر العيادة حتى أدار وجهه عن حياته السابقة، لا عودة إلى عمله،ولا بيته،ولا زوجته، ولا ولده. لقد ظل يعمل كأنه ثور في ساقية، من أجلهم، وبالأمس وجد ابنه يكاد يضربه. أفلت زمامه، عاش من أجله، ليصنع منه أملا جميلاً فإذا به يصر أن يكون جيفة رائحتها مقززة. اكتشف أن ابنه يدخن السجائر وغيرها، المصيبة ليست في التدخين، لكن التدخين يعنى أنه لابد أنه يسرق،وإذا اقتصر الأمر على السرقة والتدخين لهان الأمر بل يتسلل الجبان لابنة الجيران الطفلة، لولا ستر الله.

اكتشف أنه عاش لأجل ابنه والابن ضاع. والأم لعبت دور البطولة في ذلك، دوماً تتدخل لتمنع عقابه، يشتمها الابن فتدارى، تعرف بسرقته فتتكتم عليه، وفرت له المناخ ليعوج عوده. لا يدرى لماذا ألحت على ذهنه وقتها قصة سيدنا الخضر وهو يقتل طفلاً بريئاً، يوقن أن الطفل المقتول هو ابنه، لكنه لم يجد خضراً يقتله، فشب فاسداً. عندما رفع ابنه يده عليه، طرده على الفور، لكنها وقفت تتشبث به. ولا يملك إلا أن يشيخ فجأة، ويحس أن الزمن قد ركب ظهره، وانحنى الظهر، وتحتم أن يحضر إلى طبيب.

لم تحضر معه، فقد اختارت أن تساند الظلم، وأن تدافع عن ابنها الظالم، وأن تنهش بأنيابها المظلوم الذى يصرخ من ظلمه. كانت أرضاً خصبة ليشب ابنها نباتاً أعوج ينشر في الأرض سمومه ومن لديه استعداد أن يستمر رباً لأسرة كهذه ؟؟ هل سيحزنون ؟ لو فعلوا لكان فيهم بقية من خير. لايجد شيئاً يشده إلى أمس، بل شيئ قوي كانحدار التل يشده إلى الأمام. عندما ركب القطار ليحمله إلى بلاد بعيدة، كان يطلب كما قال الطبيب خلاءً، منطقة نائية، وأحس وهو ينظر من النافذة كأنه يشم هواء لم يشمه أحد من قبل. ليس متعجلاً، لا ينظر في ساعته، ولا يضيع الوقت في النوم، بل يحرص أن يرى بعين جديدة كل بقعة يمر بها القطار، لا يسابق الوقت القليل المتبقى له، ماذا كسب من السرعة ؟ ألم يظل يؤجل الحضور إلى الطبيب يوماً بعد يوم حتى لا يترك

عمله يوماً ؟؟ ألم يصل به هذا التأجيل إلى ترك العمل تماماً ؟؟ رباه.كم يضيع.في حرصنا على ألا يضيع شيء .كل شيء.

ماجدوى الخط المستقيم كهذا القطار مادامت النهاية محطة لابد أن يتوقف فيها ؟ وما جدوى المجهود الخرافي في الكف عن التدخين مادام الجسم عليه أن يرحل ؟ من حسن الحظ أن أمامه بعض الوقت. وأنه جاء إلى هذا الطبيب المفعم بالصدق ليشير عليه أن يطيح بالسموم وأن يتنفس هواءً نظيفاً. لكن ماذا لو كان تشخيص الطبيب غير سليم ؟ لعله ! حتى لو كان كذلك فهو سعيد بلقائه. فلو عاش عشرات السنوات لمات دون أن ينتبه لحياته. دون أن يمسك بلحظته كما يمسك بها الآن كأنها كنز. لم ينذره بالموت بل انتشله من غيبوبة، سيهرب إلى مكان ناء. يعيش فيه هادئاً. يتابع ولادة الشمس وغروبها.

ينزل من القطار بلا حقائب. أو أشياء تجعله ينظر إلى الخلف. يسير على قدميه. يرفض أن يركب. يسمع صوتاً. يرى رجلاً تجرى منه فتاة. تستجيربه. يجد نفسه يأخذها في ظهره كأنه سيحميها. ماهذا ؟ دوماً كان يتجنب المشاكل. لا يعرج إلى شوارع جانبية. فماذا حدث ؟ كأنه أصبح غيره !كأن الطبيب استخرج كل مخزون الخوف داخله. حقاً غير خائف. ولماذا يخاف ؟ أمن الموت ؟؟ وهل هو بعيد ؟ أعلى الحياة ؟ وهل أدى حرصه عليها إلا البعد عنها ؟؟ يطلب من الرجل أن يرحل. الرجل يستجيب فوراً. لماذا استجاب؟ إنه يبدو كالثور فلماذا استجاب. لماذا خاف ؟؟

هل توحد بالموت ؟ إذن رأى هذا الثور الموت عندما نظر في عينيه حقاً ليس هناك أعظم من الموت سلاحاً. عندما تلبس الموت يضل عنك الموت.ويخافك من يحب الحياة. كم من مرة خاف. وآثر السلامة. وفي كل مرة ينهزم. لم ينتصر إلا اللحظة. التي لم يخف فيها ؛ ملعون الحرص. وما أروعك يامن قلت : احرص على الموت تكتب لك الحياة !

سأل الفتاة عن سكنها ليوصلها ؛ أخبرته أنها لا تستطيع العودة. فهو زوج أمها. سألها :

. وأمك أتعلم ؟؟

. لا توجد امرأة لا تجيد قراءة شفرة عين زوجها.. لايجب أن انتظر دفاع أمي عني. كانت أمي وأنا صغيرة تحكي لي حدوتة مغزاها لو أردت أن أفعل شيئاً لا يجب أن أنتظر مساعدة من أحد. هذه الأيام اقرأ في عين أمي هذه الحكاية. كأنها تعتذر لي. وتسلمني مصيري في يدي. أين أنت ذاهب ؟؟ خذني معك.

. إني ذاهب إلى الموت..

. هو طريقي.. لكني لا أعرف كيف أصل إليه..

. كيف تطلبين الموت وأنت تتفجرين حياة ؟!

. الحياة التي تسكن داخلي تشد اللصوص إليّ. لقد كنت أجرى أطلب سيارةً تدوس فوقي، أو جبلاً أقفز من فوقه، أو بحراً يبتلعني الموت هو ماكان يجرى ورائي.كل ماهو غيره يقابلني ليس موتاً.

. أليس لك أقارب ؟؟

. أو يكونون أحن عليّ من أمي التي رفعت يدها لتتركني فريسة لثورها ؛ لعله لا يغضب عليها ؟؟

. لكني لا أصلح يابنيتي. أنا في سن والدك. والموت ؟كيف أشرح لك ؟

- سأصحبك ؛ فلا خيار لك أو لى. ثم إننى سأوفر لك بيتاً، بيت عمتى تقيم في الخارج.وبين الحين والآخر أذهب لتنظيف البيت.

مضت معه، وهو لا يتخيل اجتماعهما. هى الحياة وهو كما يعلم الموت. فكيف يلتقيان ؟؟ كيف تتزوج الحياة قبراً ؟؟ ألانه كان بطلاً خافه رجل كالثور ؟ لكن الثور لم يخف منه. بل خاف من القبر يطل من عينيه. تصر أن تشده إليها. لقد عاش ساعات جميلة لأنه كان يطارد الموت لا يهرب منه. فلماذا تخلق فيه الأمل. وتحوّله من مستمتع مطارد للموت إلى هارب من الموت.وهل هناك من يهرب من الموت؟؟

كان البيت معفراً.طلبت منه ألا يرفع الستائر حتى لا يكتشف الثور دخولهما. جلسا يأكلان. قالت له :

- لماذا أريد أن أعطيك دون شىء ما طلبت الموت لأمنعه الثور..؟؟

- ربما لأني لا أريد أن آخذه..

- لماذا خاف منك الوحش.. ؟

- ربما لأنى لم أخف منه..

- ولماذا أتشبث بالحياة معك.وقدكنت أطلب الموت قبل أن أراك؟؟

- ربما لأنى لا أتشبث بالحياة..

- احك لي.. كما كانت أمى تفعل.

- اسمعى ياستى. بعد الصلاة على النبى..

- عليه الصلاة والسلام..

- قلق وزير سليمان الحكيم عندما رأى ملك الموت ينظر إليه بقوة، أحس بأن الموت قريب منه. طلب من سليمان أن يحمله إلى أبعد مكان. أمر سليمان الجن أن تحمل وزيره في التو إلى الهند. وفي المساء يعود ملك الموت إلى سليمان. فيسأله : لماذا كنت تنظر إلى وزيرى بقوة ؟؟ قال: لأنى وجدته جوارك. بينما مسجل عندى أن روحه ستقبض بعد لحظات في الهند. اندهشت. وذهبت إلى المكان المحدد فوجدته هناك.قبضت روحه وعدت !!

ضحكت.. ضحك..

- ما اسمك ؟ لا.. لا تقولى.. سأسميك: ضحكة. لقد كانت روشتة طبيبى أن أضحك. وقد وجدت العلاج.

- إذن قبلت أن أصحبك..

- وهل تفعلين غير ذلك ؟

أيضا ضحكا..

- أين ذهبت ؟؟

- لا أدرى. أحس أنى دون أن أدرى وزير سليمان. لقد هرب إلى الهند ليلتقى بالموت هناك. فهل هربت أنا إلى هنا لأن الموت موعده هاهنا ؟

- ما اسمك ؟ دعنى أيضا أسميك.. أحب أن تكون يحيى..

ضحك. حتى طفرت الدموع من عينيه..

- يحيى.. أضاقت الدنيا عن اسم إلا هذا.. كنت أتوقع مادمت ستسمينى بفعل مضارع أن يكون يموت.. أما يحيى.. ما أجمله من اسم. لولا أنه لا ينطبق على..

- كذلك اسم ضحكة.. جميل.. لكن لا ينطبق عليَ.. أو قل لم ينطبق على إلا الآن..

- وحتى أكون منصفاً.. قولى أيضاً إن يحيى لم ينطبق على إلا الآن..

- بصرة.. بقول أيه ؟ تيجى نحدد مصيرنا بعشرة كوتشينة ؟؟ اللى يكسب يحكم على هواه..على مصيرعلاقتنا ؟!

- موافق..

بدأ اللعب.. في منتصف اللعب.. توقف.. قال لها :

- لماذا نكمل.. أينا سيكسب سيختار الآخر.. لو كسبت سأختارك.. وأنت.. ؟؟

- لو كسبت أنا سأحكم عليك بالمؤبد أن تلازمنى..

ضحكا. نامت.وغطاها كما يغطى ابنته. نظرت إليه. وقالت:

- تعودت أن أنام وعينى مفتوحة حتى لو يكن في الحجرة سواي. الآن أنام ملء عينى..

تمدد على الكنبة. في الصباح يصحو فيفزع على المنظر. ضحكة غارقة في دمائها. فعلها الثور زوج أمها لابد. لكن ماجدوى من الفاعل بعد ذهابها ؟؟ رباه.. أيتها الضحكة البريئة.. هل نصيبه من الحياة والسعادة لا يستطيع أن يمتد أكثر من ليلة ؟

انحنى عليها. كأنه يربطه بها حب امتد من قرون. في صدره أسى بحجم كل الحب الذى تكون داخله لها.. ابتسم بسخرية عندما دار في خلده أن يهرب. يهرب من ماذا ؟ أو يتركها في لحظاتها الأخيرة. ألا يشبع عينيه من الحياة التى وهبت له كالحلم.. والآن ترحل..

يقبضون عليه. يتهم زوج الأم. لكن الأم تدعي أن زوجها لم يغادر البيت. وتتهم الغريب بقتل ابنتها . وعيناها لا تستطيع أن تصمد في مواجهته. كل الظروف ضده. كلها تشير عليه بأنه القاتل. يبتسم في سخرية.

- ما اسمك يارجل ؟

- يحيى..

ما أغرب الأقدار! لماذا حضر ؟؟ الإجابة عند وزير سليمان ! كان يرى الشهور الثلاثة قصيرة جداً فإذا به لا يعيش إلا ليلة. ويقضى الباقي في انتظار الحكم بالموت.. فهل حقاً هذا القاضى المضلل الذى لا يدرى القاتل الحقيقى سيحكم عليه بالموت أم أنه يحمل الحكم من قبل ؟؟ يجب أن يسخر من الموت كما فعل من قبل. لا ينفى التهمة. يواصل الصمت. هرب من الموت ليلقاه. ليس حزيناً إلا على الضحكة الخالدة : إنها الحياة. وما تسربها من يده في لحظة إلا الموت.

﴿٦﴾

ابنتى.. ثمة نبلاء كثيرون، عاشوا عندما ماتوا، فما أكثر ما يكون الموت حياة، وقد وصل إلى تلك الحقيقة وتيقنها كثيرون، ولذلك نجدهم مع دهشتنا الشديدة يجرون إلى الموت بنفس القوة التى يجرى بها الكثيرون منا من الموت.يقول الشاعر:

والناس صنفان: موتى فى حياتهمو وآخرون ببطن الأرض أحياء

كم من رجال فُتح لهم باب السجن ليهربوا من حكم الإعدام، فرفضوا حتى لايقال عنهم: هربوا. يموتون برأيهم ليربحوا حسن السيرة. رأوا فى الموت فناء لأجسادهم وحياة لأرواحهم.

فى غزوة أجنادين، انهزم الروم فتراجعوا إلى موضع لا يسع أن يعبره غير فارس واحد، وكان لابد من إبعادهم، تقدم سعيد بن العاص وتمكن من إبعادهم، لكنه دفع في ذلك حياته، قتلوه، وسد الثغرة بجسده، ووصل المسلمون إلى الثغرة فرأوا هشاماً جثة هامدة فوقفوا محجمين عن التقدم، إجلالاً منهم له،وخوفاً من أن تطأ سنابك خيولهم جثمانه، وهنا رأى أخوه عمرو بن العاص قائد الجيش أن ذلك سيحرم المسلمين من تتبع الروم ومطاردتهم فقال: أيها الناس: إن الله قد استشهد هشاماً ورفع روحه، وأن ماترون جثة، فاوطئوه الخيل، وتقدم عمرو أمامهم ومشى على جثة أخيه الشهيد ثم تبعه العسكر حتى تقطع جثمان البطل الشهيد إرباً إرباً. من ذلك نتبين أن الجسم لا يساوى شيئاً وهل أجسامنا يمكن أن تكون فى مكانة هشام بن العاص الذى نزل فى حقه قرآن، والذى أسلم فى وقت كان أبوه كبير المحاربين للإسلام.

وهذا أبو دجانة فى موقعة اليمامة ضد مسليمة الكذاب، يرى الكفار قد تحصنوا فى حديقة، يقاتلون من ورائها ويرمون المسلمين، ويصبح موقف المسلمين حرجاً، فالقتلى يتزايدون، والعدو فى مأمن، ولايقدر المسلمون الوصول إليه، هنا يطلب أبو دجانة من رفاقه أن يقذفوا به إلى حديقة الموت تلك، ليفتح لهم الباب، وفعلوا، وانكسرت رجله، لكنه ظل يقاتل الكفار عن الباب حتى أزاحهم عنه، وكان النصر للمسلمين بفضل رجل جاد بنفسه، ورمى نفسه فى حديقة الموت ليحولها إلى حديقة نصر للمسلمين. فهل مات ؟

ثمة أناس عندما تؤمن بالموت والتضحية فى سبيله، تتحول إلى ناس من ذهب. لا يزيدها الزمن إلا بريقاً. أعجبت بصحابي فى بدر كان يأكل تمرات. فإذا به يقول ليس بينى وبين الجنة سوى هؤلاء ويرميهم من يده. أعجبت بعمر المختار وهو يقول لعدوه الشاب: لا تتوسل يابنى. أعجبت بالفنانة شادية تترك الأضواء والمجد وتحتجب. فالعظمة أن ترفض، العظمة أن تقاوم. ليست العظمة أبداً فى القمة. فكم من ملوك تخون، وتبيع أوطانها لتظل على العرش. العظمة أن تترفع، أن تقول (لا) لشىء تريده.

أعجبت بالعز بن عبد السلام يسعى إلى الموت، وهو يقف في قبضة السلطان يصرخ في وجهه، لم يخف الموت لأنه يدرى أن الموت ليس في يده. العجيب أن السلطان عجز عن قتله خشية أن تثور الناس عليه، وينفيه إلى مصر، وتمر الأيام، ويقع السلطان أسيرا في حرب دارت بينه وبين الجيش المصري، ويستفتى ملك مصر العز في قتل هذاالسلطان الخائن،فيفتى العز بقتله، وهكذا يموت السلطان بيد العز لا العكس. وكأن الله يقول للعز أرأيت ؟ لم تخش أن تموت بيده، فكأفأتك بأن جعلته يموت بيدك.

أعجبت بيوسف الصديق يقول لا لزليخا زوجة مولاه. أعجبت بابن حزم يعيد كتابة كتبه التى أحرقت. أعجبت بأهل رشيد وهم يحاربون إمبراطورية لا تغرب عنها الشمس بالطوب والأوعية، لم يقولوا أين نحن من إنجلترا وسلاحها المتطور ؟ أعجبت بأهل الصعيد وهم يقابلون سفينة الفرنسيس بصدورهم، والقائد الفرنسي يضرب كفاً بكف وهو يصرخ: ألا يخافون؟؟!!

إن الله قادر على نصر المسلمين دون مساعدة منهم، لكن النصر ليس هو القضية المهمة ؛ لأنه لو أراد نصرهم لفعل مهما كانت قوة عدوهم،لكن القضية الأهم هو أن يبذل المسلمون وسعهم. ليس مهماً أن نفوز، بل أن نبذل كل ما فى وسعنا. وهو سيقوم بالباقى. ألم يرسل فى بدر ملائكة ؟؟ لقد وعد الله رسوله ﷺ بأن ينصره بالرعب، إن أعداءنا محبون للحياة، يتعلق قلبهم بالدنيا، لذلك يموتون رعباً إذا حدثت مواجهة، يخافون أن نسلبهم الحياة التى يتعلقون بها. ويعتدون لكن بعد أن يدبروا للأمر عدته، عندما يضمنون أن عدوهم مقيد. ففيم الخوف ؟ والرعب عندهم مضمون كما وعد الله والله منفذ وعده.

﴿٧﴾

.. إذا سافرت فى رحلة الحياة المضنية فأنت في حاجة إلى رفقاء في تلك الرحلة، ولا أرى أفضل من ثلاث صفات : الصدق، والتواضع، والقناعة.

كان التواضع رفيق سليمان الفارسى، عندماكان أميراً على المدائن، فلا يتغير فيه شىء، ويمشى الأمير فى الطريق، فيراه شامى قدم من الشام ومعه حمل تبن وتمر، فرأى سليمان فظنه أحد فقراء الناس، فناداه ليحمل عنه الحمل ثم يعطيه أجره عندما يبلغ المكان الذى يريده، وأشار للرجل فأقبل عليه، وقال له الشامي:

- احمل هذا عنى..

فحمله ومضيا معاً، وفى الطريق لقيا جماعة من الناس، فسلم عليهم فأجابوا واقفين: وعلى الأمير السلام، ثم رأى الشامى بعضهم يسارع صوب سليمان ليحملوا عنه قائلين:

- عنك أيها الأمير.

فعلم الشامى أنه أمير المدائن سليمان الفارسي، فسقط فى يده، وحاول أن يعتذر، واقترب ينتزع الحمل، ولكن سليمان رفض إلا أن يُبلغه منزله.ولا عجب أن يضع رسول الله ﷺ يده على سليمان ويقول: لوكان الإيمان عند الثريا لناله رجال من هؤلاء. ومثله كان أبو هريرة، كان وهو أمير المدينة فى أيام مروان يحمل حزمة الحطب من السوق على رأسه،ويمشى ويقول أوسعوا لأميركم.

وكم رافق التواضع أناساً تربعوا على عرش الدنيا، هذا عمر بن عبد العزيز يطفأ المصباح فى بيته، فينهض لإصلاحه ويمنع الجالسين معه أن يفعلوها، ويعود بعد إصلاحه، فيقول: قمت وأنا عمر بن عبد العزيز ورجعت وأنا عمر بن عبد العزيز.

أما الصدق فأشهر من رافقه كعب بن مالك، الذى تخلف عن غزوة تبوك مع الرسول ﷺ، وتخلف معه بضع وثمانين رجلاً، فلما عاد الرسول ﷺ من غزوته اعتذر كل منهم بعذر، فتقبل الرسول ﷺ أعذارهم، إلا كعب بن مالك واثنين، أبى كعب إلا أن يصدق، وهنا خلّفهم الرسول ﷺ حتى ينزل فيهم حكم الله، وأمر الناس ألا يتحدثوا معهم، وأمرهم أن يفارقوا نساءهم، حتى عوتبوا لماذا لم يعتذروا كما فعل الباقون ؟ وينزل القرآن بالمغفرة لهم، ويتوعد الذين اعتذروا كذباً بالعذاب. ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ (التوبة).

يقول كعب بن مالك: " **والله ما أنعم الله على من نعمة قط بعد إذ هدانى الله للإسلام أعظم فى نفسى من صدق رسول الله ﷺ أن لا أكون كذبته** ".

أما القناعة فكانت رفيق الاسكندر ذى القرنين، فى رحلته إلى مغرب الشمس، مر بوادى الزبرجد فتركه، وقال لرفاقه من أخذ منه ندم، ومن تركه ندم. قال هذا لينفر رفاقه فى أخذه ؛ لأن قولته تلك جعلت بعضهم يأخذ منهم وبعضهم يتركه. وبعد خروجهم من الظلام واكتشافهم أنه زبرجد، ندم الفريقان، الذى أخذ ندم : لأنه لم يأخذ المزيد، والذى تركه ندم ؛ لأنه لم يأخذ. الوحيد الذى لم يندم هو الاسكندر ؛ لأنه عاد من رحلته بما هو أغنى، بالقناعة. لو أن الاسكندر مر بوادى الزبرجد فى أول طريقه لحمله كله ؛ لأنه فى بداية رحلته كان يطلب الدنيا، ولكنه لم يعثر عليه إلا فى نهاية رحلته بعد أن زهد فى الدنيا.

فى رحلته تلك عثر الاسكندر على حجر، كلما وزنوه بحجر أضخم منه رجح، وظلوا يضعون مقابلاً له حجارة أشد ضخامة، وظل هذا الحجر الصغير يرجح تلك الحجارة الضخمة حتى جاء الاسكندر بكومة تراب فرجحتْ الحجرَ، وقال: هذا الحجر هو الإنسان لا يملأ عينيه إلا التراب ﷺ : " **لو أن لابن آدم وادياً من ذهب لأحب أن يكون له واديان، ولن يملأ فاه إلا التراب** ". والعرب تقول: " **الحر عبد إذا طمع، والعبد حر إذا قنع** ". ويقولون " **اخرج الطمع من قلبك تحل القيد من رجلك** ".

أعجب أحد الأمراء بزاهد فقال له سل حاجتك، فقال: حاجتى أن ترد علىّ شبابي، فقال: ليس ذلك إلى، فانظر حاجة أخرى، قال الزاهد: أن تكتب إلى (مالك) خازن النار أن لايعذبنى، قال: ليس لى ذلك أيضاً، فانظر غيرهما: قال أن تكتب إلى(رضوان) خازن الجنان يدخلنى الجنة، قال: ليس ذلك إلىّ أيضاً. قال الزاهد: فإنها مع الرب الذى هو مالك الحوائج كلها لا أسأله حاجة إلا أجابنى إليها.

ولا أجد خيراً من الختام بقول النبي ﷺ : " **اضمنوا لى ستاً من أنفسكم أضمن لكم الجنة، اصدقوا إذا حدثتكم وأوفوا إذا وعدتم، وأدوا إذا ائتمنتم، واحفظوا فروجكم وغضوا أبصاركم وكفوا أيديكم** ".

(الكلمة الخامسة)

لكني أعرف نفسي

الكلمة الخامسة:

لكني أعرف نفسي

دعيني أحك لك مجموعة من الحكايات القصار..
ونترك هذه الحكاوى تفرز ما تفرز..



قال العربي لخادمه:

ـ أعط هذا الإعرابي الذى أكرمنا كل مامعك من مال.

قال خادمه:

ـ ما معى كثير، وهو يرضيه القليل، ثم هو لا يعرفك !!

قال السيد العربي:

ـ إن كان لايرضيه إلا القليل فأنا لايرضينى إلا الكثير، وإن كان لا يعرفنى، فأنا أعرف نفسي.

هذه القصة تعنى أن من وسائل النبل ألا يضل الإنسان عن نفسه حتى لو كان غريباً لا يعرفه أحد، فمهما كان غريباً فى نظر الآخرين فهو ليس غريباً عن نفسه. لا تختفى من نفسك، كونى نفسك، فمهما كانت الخسارة التى يتكبدها الإنسان، فلم يخسر، فمن لم يخسر نفسه لم يخسر شيئاً.

قصة أخرى تتصل بالسياق السابق، هى قصة طرفة بن العبد الذى حمل رسالة لايدرى ما بها، وكان بها الأمر بقتله، فأمر به فوضع فى السجن تمهيداً لقتله فى الصباح، وفى الليل فتح له بعض من يحبونه باب السجن ليهرب، لكنه يرفض، ويقول قولته الشهيرة: **أتريدون أن يقال هرب طرفة بن العبد ؟؟!** كأن الهرب الذى يؤدى به إلى الحياة عار فى نظره، لكننا نكتشف الآن أنه لم يمت، وأنه عاش حتى وقتنا هذا بموقفه ذاك وكم من هارب لم نسمع به. وهذا الموقف فعله سقراط، فتح له أعوانه باب السجن ليهرب فأبى، وقال أموت لتبقى كلمتى. آثر أن يموت لتبقى كلماته، والكلمات أخلد أثراً من الجسد.

﴿٢﴾

ومادمنا نتحدث عن النفس، ووجوب أن يكون الإنسان نفسه وأن يقدم إشعاعات تلك النفس حتى لمن لا يستحقها ؛ لأنه لو كان يستحق السوء، فأنا أستحق أن أكون نفسى، وأنا أولى منه بالاهتمام، وهنا يجب أن أعطى الإحسان لا السوء. فكونى نفسك إذن، ولو كنت غريبة، ولو كان المتلقى لا يستحق. يقول المثل الهندي: "**الرجل الفاضل ينبغى له أن يتمثل بشجرة الصندل التى عندما تقطع تعطر بأريجها الفأس التى تقطعها** ".

كوني طاقة خير وعطاء، تعطى لا تأخذ، فاليد العليا خير من اليد السفلى. فالبخل ضد الإيمان بالله، إن من مقومات الإيمان أن أثق فى عطاء الله، وكانت أخت عمر بن عبد العزيز تقول: "**أف للبخل، لو كان قميصاً لم ألبسه ولو كان طريقا لم أسلكه** ".

آه لو كل إنسان قبل أن يفكر في حقه عند الآخرين فكر أولاً في حق الآخرين عنده .وقتها لا يضل الإنسان عن نفسه أبداً.

يقول سقراط: **اعرف نفسك**، ويجرنا ذلك إلى وجوب ألا نضل عن أنفسنا. لي قصة اسمها "**الرجل الكلب** ". تتحدث عن غيبوبة الإنسان عن نفسه، فقد يهاجم الخطأ إذا رآه عند الآخرين، ولا يظن أبداً أنه يحمل الصورة نفسها.



الرجل الكلب

١

عائداً من صلاة الفجر، يدق الشيخ على باب بيته، على غير العادة يجد الباب مفتوحاً وأهله فى انتظاره

يتساءل:

- ما شأنكم الليلة ؟؟

- خفنا عليك من الرجل الكلب..

- الرجل الكلب ؟!

- نعم، رجل مسعور يعض الناس ويعيش فى المقابر..

- أبالحق تنطقون ؟!

- الناس كلها تتحدث..

.وأين عسس بيبرس ؟؟

.يطاردونه. ويطاردون من بعضهم..

.وهؤلاء.. لم؟!

.يقولون إنهم يصبحون مثله !

. لطفك يارب. وماذا بعد ذلك. غضب من الله ورب الكون. رجل يعض. والمعضوض أيضاً يصبح عضاضاً. بالمتوالية نصبح جميعاً كلابا ننهش لحم بعض.. أصليتم الفجر ؟

.نعم.. ولله الحمد..

.إذن. ادخلوا الآن. فقد كنت حائراً ماذا أقول فى خطبة الجمعة اليوم. وقد ألهمتمونى خطبتى..

٢

على المنبر يقف الشيخ فى المسجد الكبير:

.هكذا كما رأيتم يا أخوانى كان داود ﷺ عبداً أواباً. لكن الحق تبارك وتعالى يعلمنا من خلاله درساً رفيعاً. عندما يتطلع داود النبى -مجرد تطلع- ولديه من النساء الكثير إلى امرأة قائد جيشه. فيرسل له ربه اثنين من الملائكة يختصمان ويحتكمان إليه. وعليه هو خاصة أن يفصل فى قضيتهما ..

. لى نعجة واحدة. وهذا أخى له تسع وتسعون نعجة. ويطمع فى نعجتى

ويقولها داود: لايحق له.. يسنها قانوناً. ليس من حق من لديه الكثير أن يأخذ واحدة الواحد..

وتكون المفاجأة.. هذا أنت يا داود.. هذا ما هممت به ..

يصعق داود. ويظل يكفر عن خطيئته. توقفت يا أخوتى عند هذا الدرس العظيم من رب العزة سواء صحت الرواية أم لا. وجدت أن فى حياتنا مرآة خفية . تأتى صورنا فيها أمامنا ولا نعرفها. اهتديت أن هذه المرآة تحضر عندما نبتعد عن الله. وقتها نضل عن صورتنا ولانعرفها..

وهذه الأيام لاحديث للناس إلا عن الرجل الذى أصبح كلباً. شىء لايصدقه عقل. لكنها المرآة يا أخوانى. نعض فى بعضنا دون أن نفطن إلى ذلك. وجاء هذا يعرض علينا صورتنا كما فعلت الملائكة مع داود.. وإذا بنا نستقبح شكل الرجل وتصرفه ونحل دمه ونقول يجب أن يموت. ونحكم على أنفسنا دون أن ندرى. فهل آن لنا التخلص من وجه الرجل الكلب الذى نحمله..

أيها الأحباب. المصائب متزايدة. والابتلاءات كالمطر. غلاء. وقتل. ومسكرات. ولاخلاص لنا إلا بالعودة إليه. فلنعد إليه. فلنعد إليه. اللهم هل بلغت. اللهم فاشهد. ادعوا الله وأقم الصلاة.

٣

.ياشيخ. اخفض صوتك. قد وصل صوتك إلى بيبرس..

.كل الأصوات تصل إليه..

.لكنه لايسمع إلا الصوت الذى ينفذ للناس..

٤

.قتلوا الشيخ

.ماذا ؟؟

.يقولون: عضه الكلب. فخافوا أن يعض أحداً !

ومن أروع المواقف التى لم يضل فيها الإنسان عن نفسه قصة ذلك الإعرابي، الذى عاش فى الصحراء، وتعوّد ألا يضل فيها واستكثر أن يهتدى فى صحراء العرب الواسعة، ويضل فى صحراء نفسه ! هذا الإعرابي الذى زاره النعمان بن المنذر، فأكرمه الرجل دون أن يعرفه كأحسن ما يكون الكرم ، فاستطلبه النعمان إن يحضر إليه فى مملكته ليرد له الجميل، وذهب الرجل لسوء حظه فى يوم يسميه الملك يوم النحس، لا يقابله أحد فيه إلا قتله. جاء الرجل يطلب عطاءً فوجد أنهم يطلبون روحه.

ولم يحفل الملك بتوسلات الرجل، اللهم إلا طلبا أخيراً،هو أن يمهله حتى يعود إلى أهله فيرتب أمورهم ويرد للناس حاجاتهم، فأبى الملك إلا أن يضمنه أحد وإذ بأحد الحاشية يضمنه على أن يعود الإعرابي بعد عام ليموت ، ويوافق الملك مندهشاً أن يتعهد الضامن بحضور الرجل إلى الموت بعد فكاكه منه . وتمضى المهلة المحددة لعودته، ويتهيأ النعمان لقتل الضامن لكن قبل أن تغرب شمس اليوم المحدد حتى يحضر الرجل، أشعث أغبر، قد نال منه الجهد مبلغه، وذهل النعمان من هذا الرجل الذى أبى إلا الموت، وحضر برجليه إليه، وكان فى الصحراء الواسعة براحٌ له، لكنه يفر من تلك الصحراء ويلح فى الوصول قبل الموعد، ويبذل كل جهده فى الوصول كحبيب يجتهد أن يصل إلى أهل حبيبته قبل أن يزوجوها غيره.

لماذا بذل هذا الرجل كل هذا الجهد الشديد ليحضر إلى الموت ؟؛ لأنه لا يستطيع أن يظل فى الصحراء الواسعة، ونفسه تطبق على رقبته، وتخنقها، فيطلب هواء من تلك الصحراء الواسعة فلا يجد. لم يستطع أن يتخيّل نفسه صغيراً فحضر، كان يلح فى السير ليفلت من تلك النهاية السيئة وهى التضاؤل والقزمية.

ما كل تلك الروعة ! رجل يضمن هارباً من الموت، وإعرابي لا يقل عنه روعةً، فهو بعد هروبه من الموت يعود إليه ليحمى ضامنه. روعة لم يجد إزاءها النعمان إلا أن يعفو عنه ويبطل يوم نحسه ويقول: والله لا أكون ألئم ثلاثة. رجل يضمن عودة آخر لا يعرفه إلى الموت، وآخر يعود إلى الموت لينقذ ضامنه.

لو أفلحت ألا يكون لك عدواً فافعل، فالعداوة تضر صاحبها قبل أن تضر عدوه، فهى تظلم القلب وتجعل بياضه فحماً، وقد ننسى أنفسنا بعض الوقت،ونصبح لسنا نحن، بل نحن عدونا ذاته. أعطيت لطلابي فى سنة من السنوات موضوعاً للتعبير اسمه التوحد بالعدو، بمعنى أن كثرة محاربة العدو تعلمنا وسائله، فلو لم أفطن لاستخدمتها، لقد فعل

اليهود بأهل فلسطين ما فعله النازيون بهم. ما أكثر ما تجرنا العداوة بعيداً عن أنفسنا ! معاملة العدو بوسائله تغيرنا، وتجعلنا نفعل ما نكره. لقد كان المأمون ينادى غلامه يوما، فجاء الغلام متبرماً ساخطاً يردد: كل دقيقة ياغلام ياغلام !! فتعجب الجالس من المأمون عندما لم يفعل معه شيئا. فقال له المأمون: إذا ساء خلق السيد صلح أخلاق الخدم، وإذا حسن خلقه ساءت أخلاق خدمه. ونحن لا نملك أن نفسد أخلاقنا لتصلح أخلاق عبيدنا. هذا رجل رفض أن يشده الخادم بعيداً عن نفسه .

أما إذا كان لابد من عدو، وكثيراً ما نجبر على وجوده، إبليس فرض نفسه عدواً على آدم ، ولا ذنب لآدم فى ذلك. فعليك أولاً أن تتأكد أنه عدو، وهذا يتطلب أن تفرق بين الخطأ والشر، اغفر الخطأ، فالخطأ لا يعنى أن فاعله عدو، لكن لا تتسامح مع الشر، الشر لا يصدر إلا من عدو.الخطأ أن يقصر إنسان فى واجبه نحوى،أن أطلب منه طلباً فلا يفعله تكاسلاً أو إهمالاً. الشر أن أن يستعدى عليك السلطان.

﴿ ٣ ﴾

" **الوهم أيضا حقيقة**" ، هذا عنوان قصة لى، ولن أحكيها، لكنى أرى من تجارب عديدة أنه حقيقة فعلاً، فما أكثر ما يفترض الإنسان وهماً ويبنى عليه أشياء، وينسى أصل البناء ولا يرى إلا أن البناء حقيقة، ويحول حياته إلى جحيم دون مبرر.

فلا تمكثي بينك وبين نفسك كثيراً، فكم تكبر الأشياء الصغيرة، وإنْ أنس لا أنسى فقدان صديق، ضخّم أخطاء صغيرة جدا واستهولها فلم يتحمل البقاء معها، ومن يومها وأنا لا أحفل بمن يواجهنى ببعض الأخطاء الصغيرة.

يقول صموئيل جونسون: " **سر النكد أن يتاح لك فراغ من الوقت لتفكر أأنت سعيد أم لا**". ونجد عند برنادو شو المقولة ذاتها : " **إن سر الاحساس بالشقاء والألم هو أن يتوفر لديك الوقت لكى تتسائل فيه : أسعيد أنت بحياتك أم تعيس ؟** ".

﴿ ٤ ﴾

إن النهر لا يساوى شيئاً لو حجب مجراه، يصبح مجرى جوفياً، فاعرف أهم صفاتك التى يحبها الآخرون فيك، واحرصي أن تكون هى دائماً واجهتك أو الفاترينة التى يرونها دائماً، واعلمي أن الصفة البارزة التى تشد الآخرين إليك، قد يغفرون معها أي عيوب لك.

وهنا تكون الطامة الكبرى لو ضاعت الصفة الجوهرية : لأنهم بقوا لأجلها وغفروا أشياء كثيرة من أجلها.. فماذا عندما تضيع ؟؟

أعرفُ رجلاً كان أجمل ما فيه هو أنه يأتى على نفسه دائماً، وفجأة تغير وأصبح يحب نفسه، لم يعد هو. وأعرف آخر كان أروع مافيه الإخلاص الفطرى دون تفكير، فجأة قرر أن يخلص بحساب، فقد نفسه. وثالثاً كان أجمل مافيه الابتسامة والروح المرحة والوجه البش، فجأة أصبح دائم النكد والكآبة. أهو هو ؟؟ لا، لقد أضاع نفسه، وبدأ يشكو أن الناس تغيرت وانصرفت من حوله، ولا يدرى أنه الذى دفعهم من وجهه.

فاعرفي ما تتميزين به، وجذى عليه بالنواجذ، وأترك لك أن تعرفى أهم ما يميزك، لكنى أرى عموماً أن أجمل ما يميز وجه الفتاة أو المرأة هو النور، أو الإشراق، فالله عز وجل خلقها جميلةً، والكآبة تطفئ هذا الجمال، فهذا يتناقض مع الغاية التى خلقها الله من أجلها.

اجعلى وجهك دائماً مشرقاً، فكم من فتيات كان الإشراق والألق هو النداء الذى دخلت منه الفتاة إلى شريك حياتها أو دخل إليها منه، ثم عندما تبدأ الحياة ؛ لأنها لا تعرف أن ما شده إليها هو الإشراق والابتسام فهى تحفظهما فى مكان أمين وكأنهما كانا لمهمة رسمية وانتهى الأمر، ولاتعرف أنه رأى الإشراق والابتسام بنية أساسية فيها، وأنها بدونهما ليست هى، يدهش جداً، ويتغير فى تعامله معها ؛ لأنها غريبة، ليست هى، وتدهش بدورها ؛ لأنها لا تجد الذى عرفته، بل تجد أيضاً شخصاً غريباً، يبدوان غريبين وينتهى المر بهما إلى الافتراق . وقديماً قالت إمامة بنت الحارث لابنتها فى وصية شهيرة تحذرها من المخالفة الشعورية للزوج، فطلبت منها ألا تكتئب إذا كان سعيداً، وألا تكون فرحةً إذا كان مهتماً. وأزيد أنا عليها ـ كوصية أب لابنته ـ بأن أطلب منك أن تنشدى السعادة، وتجرى وراءها، أن يكون وجهك دائماً مشرقاً، وقتها سيكون مرآة لك، يعكس إليك ما تقدمينه.

﴿ ٥ ﴾

ابنتى.. يقولون الصداقة ألا تقول آسف، وتفسير ذلك، ألا تفعلى ما تحتاجين أن تعتذرى عنه. ومن أمثال العرب: " **إياك وما يعتذر منه** "،

يقول حكيم: " **إذا أنت أسديت جميلاً إلى إنسان فحذار أن تذكره، وإن أسدى إنسان إليك جميلاً فحذار أن تنساه** "، وقد سمعت نصيحة جميلة من صديق: لا تتحدث عن إحسانك للآخرين، ولا تتحدث عن إساءتهم لك.

ابنتى.. اجعلى حياتك فيلماً تسعدين لو جلست فى نهاية العمر تشاهديه أنت وأولادك. أقصد ألا يكون فى حياتك شيئاً تخجلين منه. ولو فعلت شيئاً غير جميل، فالقيامة لم تقم، فالنفس الإنسانية كالرخام، تتكدر سريعاً،وقليل من الماء ينظفها. إن القلب كحجرة الجلوس،ولا يلقى الإنسان فى حجرة جلوسه بمهملاته أو ما يستغنى عنه، بل يضع سلة يلقى فيها تلك الزبالة، فإذا امتلأت تخلص منها، ما أحرانا أن يكون فى ركن قلب كل منا سلة صغيرة، إذا امتلأت بحقد أو كراهية لأحد، سهل التخلص منها، ولا يمتلأ القلب أبداً بكره أو حقد، فما أكثر ما يبدأ الكره قليلاً، ونستهين بخطورته، حتى يصبح جبلاً، ويحتل قلوبنا، ونصبح غيرنا، ينكرنا الناس، ولا نفهم السبب.يقول ميخائيل نعيمة: " **اغسل قلبك، ولو مرة فى السنة**"، فنحن لا ننفى أن يتكدر القلب، وأن يغطيه الهباب، المهم ماذا أفعل بعد ذلك ؟ هل أترك الهباب ليصبح لونه الدائم، أم أدمره بالماء. ومن أمثال العرب: " **الردىء ردىء كلما جلوته صدى** ". والعكس بالعكس: الجيد جيد كلما جلوته برق.

﴿٦﴾

ابنتى كونى جسماً من قلب، يقطر رحمة، وبراءة وطيبة.

كونى راضيةً، فالرضا كنز، إن من يسخط على أشياء صغيرة أضاعها أو دمرها ابنه الصغير، ويثور على الصغير ويضربه.ماذا يفعل لو مات ابنه ذاته،واسترد الله منه وديعته؟؟؟

لا تتورطى حتى ولو من أجل الخير، ولا تضحى من أجل إنانى، واهتمى بالوسيلة، فالفرق بين إنسان وآخر هو الوسيلة وليس المرتبة التى وصل إليها.. واعلمى أن الصواب مرادف النور.. وتصرفي من وراء الغير كأنهم أمامك..

يقول المثل الياباني: " **كلمة طيبة واحدة يمكن أن تدفئ ثلاثة شهور من الشتاء !** ".

وكنت أتمنى أن أطيل، لكن الوقت ، عندى دائما قصير.



(الكلمة السادسة)

المرأة أَمَر من الموت وأحلى من الحياة

الكلمة السادسة:

المرأة أَمَر من الموت وأحلى من الحياة

﴿ ١ ﴾

لا أدرى لماذا، كلما جاء اسم رضوى على بالى تذكرت الجنة ؟؟ و لاألبث أن أفطن أن الأمر يلتبس علىّ مع كلمة طوبى التى تعنى الجنة .

ليس مهماً إذن ألا يعنى الاسم معنى الجنة، مادام يستحضرها فى الذهن دوماً، رضوى اسم جبل بالمدينة المنورة، وبه سميت المرأة، قال الأخطل:

عفا واسط من آل رضوى فنبتل فمجتمع المجرين، فالصبر أجمل

ورضوى أيضا فرس سعد بن شجاع، ومادة الكلمة تعنى الرضا، وهوضد السخط، يقول ﷺ : "**اللهم إنى أعوذ برضاك من سخطك**" ، ومنه قوله تعالى: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ۝٢١﴾ (الحاقة).

أى ذات رضى، ومنه الرضوان أى الرضا أيضاً، ورضوان هو حارس الجنة. ومرة أخرى يصبح للظن سببه فالاسم يقفز إلى ذهنى بمعنى الجنة لسبب ما، قد يكون أن اسم حارس الجنة مشتق من مادته.

فالاسم يعنى الرضا، والإنسان له من اسمه الكثير آدم تلقى من العلم الأسماء ، أتدرين؟ يلعب الاسم دوراً كبيراً فى حياة صاحبه، ويسهم اسم الإنسان مع اسم أمه فى تكوين معدن الإنسان وكذلك طبيعته من خلال قيمة حروف الاسمين بحساب الجمل.

للإنسان علاقة باسمه لابد، آدم لأنه خلق وسيعود إلى الأرض، وإدريس ؛ لأنه سيدرس، وحواء ؛ لأنها ستهب الحياة، موسى عليه السلام ؛ لأنه سيرتبط بالماء، محمد ﷺ ؛ لأنه سيحمد كثيراً، وقد رفض حزن جد سعيد بن المسيب أن يغيّر الرسول ﷺ اسمه إلى سهل، فظلت الحزونة فيهم، بينما لعب الحسن بن على الذى غيّر الرسول ﷺ اسمه من حرب إلى الحسن دوراً كبيراً فى إحداث السلام بين المسلمين ووقف الحرب عندما تنازل لمعاوية عن الخلافة. ولأن اسمك من الرضا فلعلك تصبحين دوماً راضية والرضا أسمى نعم الله على الإنسان.

﴿٢﴾

ثمة محوران هامان يجب أن يتمحورا حياة المرء، خطة قصيرة وأخرى طويلة، ويجمعهما قول الرسول ﷺ : "**عش فى هذه الدنيا كأنك تعيش فيها أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً**" .

أعيشُ فى هذه الأرض كأنى شجرة، لا مكان غير مكاني، وأخططُ فى نفس اللحظة أن أكون طائراً، السماء طوع جناحيه. اطلبى الطموح إلى أكثر مما تقدرين، لكن لو لم يحدث ما تتمنين، ارضي ـ ياراضية ـ بما معك. يقول ﷺ : "**ارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس**" . باختصار أنا أطمحُ لأعلى حاجة وأرضى بأى حاجة.

فالرزق قد يكون عطاءً، أو حجبَ مصيبة، ولا أدرى لماذا نتضايق عندما تتأخر الأولى، أليس أولي بالإنسان أن يسعد ؛ لأنه لا يدرى ما الشر الذى حجزه الله عنه ؟؟!!

إياكِ والتكبر والغرور، فماذا أنتِ ؟ فى النهاية إنسان، قليل من الألم يؤكد أنه لن يخرق الأرض ولن يبلغ الجبال طولاً. يقول على بن أبى طالب: "**مالابن آدم والفخر، أوله نطفة وآخره جيفة، ولايرزق نفسه، ولايدفع حتفه**" .

اربحي الناس، فهم المكسب الحقيقى، الأشياء تزول، ويبقى الإنسان. ستحسين أن الدنيا لا تساوى شيئاً عندما تجدين إنساناً يموت من أجلك، أو يبكى لتألمك.

﴿٣﴾

الكتمانَ يابنية. من كلام العرب: "**ما كتمته عدوك لا تطلع عليه صديقك**" . ولا تلم من باح بسر عجزت أنت عن كتمانه. فالكتمانَ الكتمانَ..

لقد ذهبت امرأة تدعى لقاطة الحصى ؛ لأنها تنقل الأحاديث إلى زوجة جبير بن مطعم، وقد ولاه عمر الكوفة واستكتمه الخبر، فوجدتها تجهّز جهازها للسفر، فسألتها إلى أين السفر ؟، فقالت لها: إنه يريد سفراً قد كتمنيه، قالت لها: أو ترضى الحرة من زوجها أن يكتمها أمره ؟ فتركت ما كانت عليه متغضبةً، وأقسمت ألا تعود إلى البيت إلا إذا أخبرها زوجها بوجهة السفر، فاضطر أن يخبرها، فجاءت لقاطة الحصى وسألتها الخبر فقصت عليها القصة، وذاع الخبر. فولى عمر آخر مكانه وقال له: إنك عندى أمين ولكنك

ضعيف، وضاعت الولاية ؛ لأنه أفضى بسره إلى زوجته.

فى أساطير اليونان قصة الملك ميداس Midas ، خسر رهاناً ضد أبوللو فعاقبه أبوللو بأن أطال أذنيه ونما الشعر داخلهما وخارجهما وصارتا تتحركان من جذورهما ومن ثم صارتا شبيهتين بأذني الحمار، واضطر الملك أن يغطى أذنيه بعمامة كبيرة لم يطلع عليها سوى الحلاق، وأوصى الحلاق ألا يذيع سره وإلا قتله، وضاق صدر الحلاق بالسر، فذهب إلى الصحراء وحفر حفرةً وهمس فيها بالسر، ثم ردم الحفرة ثانيةً، ولم يستغرق الأمر زمناً طويلاً حتى نما قصبٌ سميك فى الحقل، فلما خرج من الأرض أفشى السر هامساً همساً، لتعرف المملكة كلها بسر الملك. ويدفع الحلاق حياته ثمناً لأنه لم يستطع أن يدفن السر في صدره.

إن الحديث عن الكتمان يطول، ولا أريد أن يشدنى لذا اكتفى بجملة رائعة للألماني نيتشة: **"ينسى المرء غلطته عنما يسر بها إلى امرئ آخر، ولكن عادةَ الآخر لا ينساها !"** .

لا تفشي سرك لأحد، لقد أفشى أبو الأسود الدؤلي سره في خطبة امرأة من عبد القيس لرجل أزدي ، فأفشى الأزدي سر الدؤلي لابن عمها، فخطبها ابن العم.. وندم الدؤلي وقال في ذلك شعراً:

وكنت إذا ضيّعت سرك لم تجد ... سواك له إلا أشت وأضيعا

ويحكى أن دعد ابنة أمير نجد كانت بارعة الجمال وشاعرة بليغة، وضعت شرطاً للزواج بها أن لا يتزوجها إلا رجل أشعر منها، وفشل كثيرون وعادوا خائبين، وجاء شاعر من تهامة فنظم قصيدة فيها، ومضى إلى نجد ليخطبها فلاقى شاعراً مثله ذاهباً لخطبتها هو أيضا، فعرض التهامي على الآخر قصيدته، فعلم الآخر أن التهامي فائز بها لا محالة، فحفظ عنه القصيدة ثم غافله وقتله، وانتحل القصيدة لنفسه، ونزل على الأمير وألقى القصيدة على العروس ففهمت من لهجته أنه ليس من تهامة، فلما وصل إلى قوله:

إن تتهمي فتهامة بلدي ... أو تنجدي فالهوى نجد

عرفت أنه ليس بتهامي، وفهمت أنه قد انتحل قصيدة ليست له، وأن القائل الأصلى تهامي، فصاحت بأبيها: اقتلوا قاتل زوجي.. فقبضوا عليه واستنطقوه فاعترف بجريمته، فقتلوه، وسميت القصيدة باليتيمة لأن صاحبها مات دون أن يعرف.. وما مات إلا لأنه لم يطق أن يكتم سر نفسه.

﴿ ٤ ﴾

لكل إنسان لحظة تجلى، يكون فيها فى أجمل صورة، وأنا أعتقد أن الصورة الأكثر روعة لك أن تكونى مغتاظة، وأكثر الأشياء التى تغيظ رضوى هى الانتقاص من المرأة ؛ لحظت من البداية ذلك عندما وجدتك تجزين على أسنانك وأنا أتحدث عن المرأة، بعدها كلما رأيتك وسط الطالبات أتعمد الهجوم على المرأة، هذا سر أكشفه لك الآن، إنك كنتِ السبب الرئيس فى ذلك، ولأنى أريدك أن تكونى فى صورتك الأروع وأنت تقرأين تلك الكلمة ؛ لذلك أستأذنك أن أضايقك، وإليكِ تلك الطائفة من الأقوال عن المرأة..

تقول هند بنت عتبة: " **النساء أغلال فليختر الرجل أخفها عليه!** " وشهد شاهد منهن..وأيضا تقول تيرسو دومولينا: " **أن يكون ثمة امرأة وتصمت: امرأن لا ينسجمان معا!** " ويقول مثل صينى: " **ارجم المرأة بحجر كريم** "، ويقول مارك توين: " **المرأة قادرة على أن تلهم الرجل دائما أعظم أعماله ثم تمنعه فى النهاية من إتمامها** "، ويقول المثل اليابانى: " **أجمل العيون وأكذبها عيون النساء** "، ويقول هاليرتون: " **كل امرأة تظل على خطأ حتى تبكى** "، ومن الأمثال الشرقية: " **اضرب زوجتك كل صباح فإذا أنت لم تعرف السبب فهى تعرفه !** ". وكلما سمعت قولهم: " **وراء كل عظيم امرأة** " تذكرت قولة سقراط المعذب فى حياته مع زوجته: " **تزوج يابنى، فإما عشت سعيداً، وإما خرجت فليسوفاً** "، فلولا نكد زوجته عليه ما خرج فيلسوفاً، وحقاً كان وراء سقراط العظيم امرأة يجرى منها. وبرغم كل ذلك تشغل المرأة فى حياة الرجل مكاناً رهيباً، يقول كونفوشيوس: " **ما أقدس الرجال لو كان حبهم لله يعادل حبهم للمرأة!** "، لقد ظلت المرأة شغل الرجل إلى أن تطلعت إلى المساواة به.

وأخيرا، يقول المثل اليهودي: " **لم أجد أمر من الموت إلا المرأة** "، وأزيد أنا: وليس أحلى من الحياة إلا المرأة أيضاً. فالمرأة أروع نعم الله لوكانت امرأة ! متسقة مع جوهرها. يقول ﷺ : " **الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة** ". أما التى تضل عن جوهرها وتنساق إلى شعارات زائفة عن المساواة بالرجل، لن تكون رجلاً، وبالطبع لم تعد امرأة. كل ما لم يخلقه الله يخلقه الشيطان، والله لم يرد أن يكون المرأة والرجل متساويين وإلا لخلق نوعاً واحداً، لقد أرادهما متكاملين.

المرأة يمكن أن تكون أعظم نعم الله أو العكس، إن من يرضي الله عنه يرزقه بزوجة صالحة. أتدرين ؟ إن أعظم الناس مكانة عندى هى امرأة، أمى، لكن أامرأة هى ؟ لا، بل عدة

رجال، ورغم ذلك لم تر يوما أن من حقها أن تناقش زوجها أو أنه ليس من حقه عليها أن يأمرها، كأنها بفطرتها قد وعت حديث الرسول الكريم ﷺ : "**لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرت الزوجة أن تسجد لزوجها لعظم حقها عليه**" .

فى حديث تليفزيونى سمعت المطربة نادية مصطفى تتحدث عن بيتها، وكيف أنها وهى المطربة الكبيرة الأكثر شهرة من زوجها ترى أن ليس من حقها أن تخرج من البيت بدون علم زوجها وترى أن من حقه عليها أن تطيعه، لم تخجل أن تقول ذلك، والحقيقة أنها لم تسقط من العين، ربما العكس، وربما لذلك استمر هذا البيت وهذا الزواج برغم أنه فى قرية الفنانين التى لا يستمر فيها زواج مدة طويلة. أتدرين أننى أحترم جداً شخصية أمينة فى ثلاثية نجيب محفوظ وأحبها، ولا أحب أو أحترم زوجها سى السيد !!

المرأة الجيدة درجة من الكمال. ولن تكون المرأة جيدة أبداً وهى تتطلع أن تكون رجلاً .

ابنتى.. فى مرة سئلت عن العمر بين الزوجين من طالبة مخطوبة الفرق بين سنها وسن خطيبها كبيراً، وكنت أقرأ فى نبرات صوتها القلق والتردد والرغبة فى عدم إتمام الزواج ؛ لأن الفارق العمرى كبير. يومها أجبت بأن الفارق يجب أن يكون ليس متقارباً، واستمرت حياتهما.

لكنى لم أكن أجيب تلك الأجابة ؛ لأنقذ أسرة، بل هذا رأيي، فى رأيى أن المرأة تشيخ وتعجز قبل الرجل. لو أن شابين فى عمر الخامسة والعشرين عاشا حياةً امتدت عشرين سنة، وقتها إذا حدث انفصال يكونان فى الخامسة والأربعين، أى يكون هو فى مقتبل عمره يمكنه الزواج لو أراد ، بينما هى تكون فى سن اليأس كما يقول الأطباء.

فلو كانت تلك المرأة أثناء شبابها المبرز لجمالها مجهدةً له، فعندما تكبر ويرحل الشباب بجمالها، لا يجد الرجل ما يشده إلى زوجته، كان يتحمل إجهادها وجدالها لعزاء هو جمالها، فالآن وقد رحل الجمال ماذا يجبره على تحمل الإجهاد ذاته. وغالباً يزيد الإجهاد بالوقت. ؟؟

غالباً يبحث عن أخرى تكون صغيرة جميلة، ولاتجهده، وينتهى به الأمر إلى الزواج، لأجل ذلك كانت الوصايا الخالدة لإمامة بنت الحارث لابنتها، والسؤال ماذا يعنى قول تلك الأم لابنتها: احفظى له وصايا عشر يكن لك ذخراً ؟؟ مامعنى يكن لك ذخراً، كنت فى تفسيرى لتلك القولة، أقول إن المرأة تكبر قبل الرجل، فلو كانت أثناء حياتها معه نعم الزوجة ستجد ما قدمته عنده من خير، فيكون مثل مال مدخر وجدته ذخراً. وكأن الجزء الأول من حياة المرأة بيدها كالإنسان فى الدنيا، إذا زرعت فيه خيراً ستجد فى الآخرة عندما لا يكون الأمر بيدها خيراً.

إن المرأة التى تعاند زوجها لا تحقق شيئاً. لكنه بطاعتها يطيعها، ويحملها فى عينيه وعلى كتفيه. إننى مع تعليم المرأة. فلا يضايق الرجل سوى غباء المرأة وتحجر ذهنها. وكذلك أنا مع عمل المرأة إذا كان هناك حوج.

هناك نصيحة أشبه بتذكرة إلى الجنة. سئل ﷺ عن سبب كون النساء أكثر أهل النار. فعلل ذلك بكثرة شكاويهن. وإذن فإذا كانت الشكوى هى الطريق إلى النار. فالبعد عن الشكوى هو الطريق الذى يبعد عن النار. وعدم الشكوى له اسم آخر، هو الرضا.. !! إن المرأة عندما تتزوج تقف فى مفترق الطريق، أمامها طريقان. الرضا والشكوى. وأراك من أهل الرضا.



ابنتى.. الإنسان كالصباح يولد كل صباح. كل يوم بداية جديدة. فلا يشدك الأمس. فماضيك كالبيت الذى كنت تسكنين فيه. ثم انتقلت إلى بيت جديد. ما شأنك بالبيت السابق؟ الجسم بيت ونحن سكانه. والبيت ذو الحجرة الواحدة لايتسع لأكثر من ساكن. فقد تسكنين هذا الجسم عشرات السنين ثم تتغيرين وتصبحين إنساناً آخر. وقتها يسكن الجسم ذاته شخص آخر. لا يجب أن يستعبده الساكن القديم. بل إنى وأنا الساكن القديم ذاته قد أخذت من هذا القديم ما أريد. وتخلصت مما لا أريد. وأضفت أشياء كثيرة. فأنا ساكن آخر بعناصر قد تكون كلها جديدة. وقد يكون بعضها هو الجديد فقط. ومن حقى أن أسيطر على وطنى " جسمى " وليس من حق الماضى حتى لو كان أنا أن يدفعنى إلى ما لا أريد. أو أن ينحينى جانباً. يكون هذا أشبه باستعمار. والاستعمار لا يستحق إلا الإجلاء لا المجاملة. ولأزيدُ الكلام وضوحا. أترى ما رأى خالد بن الوليد بعد إسلامه فى خالد قبل الإسلام ؟ إنه ينكره وهذا عمر بن الخطاب يحمل سيفا ليقتل محمداً ﷺ ، وفى الطريق يحدث له ما يسبب إسلامه. فيذهب لمحمد ﷺ ويطلب منه أن تخرج جماعة الإسلام فى صفين. على رأسه أحدهما حمزة. وعلى رأس الآخر عمر شاهراً سيفه لمن يقترب من المسلمين. جسم عمر إذن كان بيتاً مر عليه ساكنان مختلفان. لعلهما متناقضان. وهذا يبلور الفكرة التى أنا بصددها: إن الجسم يمر عليه أكثر من ساكن يحمل الاسم ذاته وقد تكون فى الغد غيرك اليوم. وهذا يتفق مع فكرة زمنية الإنسان. أقول ذلك لأمنع أن يستحوذ الماضى عليك فى الغد. الإنسان صائر دوماً إلى الغد. وهو مهدد دوماً بمطاردة

الأمس، والأمس هذا عدو وهمى، نخلقه ونصدق وجوده، هو غير موجود، لا يلح فى طلبنا، لكننا نتوهمه، وقد نستسلم له. الإنسان ابن يومه، وإذا احتل الأمس أرض اليوم فلن ترحلى إلى غد أبداً.

قد يقول قائل معنى هذا إنك تبيح أن يفعل الإنسان مايشاء، ثم يغير فى الغد ؟ وأقول وما ضمنه أن يعيش فى الغد ؟ لا أنا لا أبيح أن تخطئي اليوم ثم تغيرى فى الغد، بل أبيح أن أغير فى الغد لو كنت أخطأت بالأمس بالفعل. فكلامى لا يدعم الخطيئة، بل يدعم التوبة. انظرى، لقد عاش فرعون موسى أكثر من ثمانين سنة، فعل فيها الكثير، ومع ذلك كان الوقت مازال متاحاً ليتوب عندما جاء إليه موسى ﷺ. ولو فعل واستجاب لكان فرعون الجديد مغايراً تماماً لفرعون الأمس.

﴿ ٦ ﴾

ابنتي..إن الله لا يخلق الموهبة هباء، فثقى أنك ستصلين إلى المكانة التى تستحقينها وإن طال الوقت. لكن كل شىء يتم فى وقته، كل شىء يتم بأوان، فلا تتضايقى لعدم إتمام شىء أو تأخره. المهم أن تبذلى جهدك، فإذا لم يحدث ما تريدين لأسباب خارجية فلا تحزنى، تأخرت مرة عند أحد الأصدقاء فى مدينة قريبة، وكلما هممت بالاستئذان طلبوا منى الانتظار، حتى يحضر الصديق من السفر، فالسيارة معه، لكنه قد تأخر جداً، وتجاوزت الساعة الثانية بعد منتصف الليل، واستأذنت رغماً عنهم، ففضلاً عن تأخر الوقت،الرجل سيصل متعباً ويحتاج إلى الراحة. ووصلت إلى موقف بلقاس، لكن الساعة أصبحت الثالثة، ولا توجد سيارات، وعندما طال انتظارى، وجدتنى أردد تلك الجملة: كل شىء بأوان، لا تتحرك قدم عن قدم إلا بإذن الله. فى تلك اللحظة أجد الصديق الذى كنت فى بيته، يقف أمامى، مع دهشتى الشديدة، واسمحى لى أن أصف لك مشاعرى، قليل هم الرجال الذين أصبحوا لا يهربون من أنفسهم، لقد وصل متأخراً، وعلم أننى مضيت، فرفض أن يدخل البيت، وانطلق إلى الموقف، فلو لم أكن موجودا، فهذا معناه وجدت سيارات، وإذا كنت موجوداً،يوصلنى إلى بلقاس. كان يمكنه أن يدخل ينام، خاصة وأنه عائد من سفر بعيد ومتعب، لكنه أصر أن يصل إلى إرضاء نفسه.وإرضاء النفس هى ألا أضع أمامى حائطاً وأستدير، بل كما يقولون "أخربش" لأصل إلى النقطة التى أريدها حتى لو كان الطريق إليها ثقباً صغيراً. هذا هو الطريق لإرضاء النفس، أن أسعى إلى هدفى بنفس قوة العداء الذى يفوز بالمركز الأول. أن لا أعدم وسيلة للوصول.

بنيتي.. الإخلاص أن أبذل أقصى ما فى وسعى، وليس أن أفعل ما يرضى به الناس. والنجاح إصرار، والإصرار أن تجرى إلى هدفك كأن أسداً يطاردك.

تأخرت مرة فى مكان قرب المنصورة، ولم يعد أمامى سوى نصف ساعة لأحضر إلى عملى، وهذا لا يكفى لأسافر إلى المنصورة ثم إلى بلقاس، كان يمكن أن ألتمس لنفسى العذر لن الوقت لا يكفي للمحاولة، لكنى آثرت كما يقولون أن أخلص ذمتى، لم أجد إلا ميكروباص فأخذته مخصوصاً ليوصلنى مباشرة، وفى الطريق تعطلت السيارة، وأصلحها السائق، وأكمل طريقه، ثم تعطلت ثانية، ووقفت فى منتصف الطريق، أنظر إلى الحقول بنفس صافية غير منشغلة بشىء، صافية صفاء السماء الزرقاء فوقى، لم أعد أشغل بالى بالتأخير، لقد فعلت ما فى وسعى، ولا نصيب. أتدرين، قلت إن أفضل شىء يمكن عمله الآن هو تسبيح الله فى مكان لم يخطر على بالى من قبل أن أقف فيه. وسرحت فى خاطر، يقول إن الموت يعطى الإنسان العذر لو تأخر عن عمله. لم نسمع عن أحد يلوم ميتاً لأنه لم يحضر فى موعده !! إذن هناك أشياء قدرية فوق الإنسان، لأنه لا يمكنه أن يخرج عن نفسه، كل ما هنالك أن يفعل ما يستطيعه، لذلك لا أحفل أن يلومنى العالمون إذا كنت راضياً عن جهدى الذى بذلته ثم كان ثمة شىء أقوى منى حال دون تحقيق الهدف.

كل شىء نصيب، لقد قاتلت، كى لا أكون مدرساً، كنت فى السنة الثالثة، قسم اللغة العربية بكلية التربية ١٩٨٢، وكنت أدرى أنى بمجرد تخرجى سيتم تعيينى مباشرة مدرساً، لكنى أردت الهرب، وقدمت طلباً لرئيس قسم اللغة العربية بكلية الآداب، لكى أنتقل إلى كلية الآداب، وبالفعل انتقلت من السنة الثالثة تربية إلى السنة الثالثة آداب، لكن بعد أن حملت زيادة عن زملائي أربعة مواد ودفعت لكلية التربية ثلاثمائة جنيه كنت أخذتهم على مدى سنتين كمكافأة تفوق ثانوية عامة وقسم اللغة العربية. كل هذا كي لا أعمل بالتدريس، وبرغم ذلك تم تعيين دفعة آداب التى أنا فيها مع دفعة تربية، وماطلت فى استلام العمل حتى أديت الجيش، ولم يكن هناك مهرب، عملت بالتدريس الذى لم أشئه،وشاءه الله لى، واكتشفت بعد رحلة طويلة مع التدريس أنه كان الأحب إلى نفسى، وهو الذى جيّش لي حب الناس . وما يشاءه الله لنا خير مما نشاءه لأنفسنا.

﴿٧﴾

ابنتى.. قيل للرسول: كم نعفو عن الخادم ؟ قال: فى اليوم سبعين مرة. ويحكى عن أبى سليمان الداراني أنه ضرب حماره ثلاثاً، فرفع الحمار إليه وقال: هو القصاص يوم القيامة، فإن شئتَ فأقلل، وإن شئتَ فأكثر. قال: لا أضرب شيئاً بعده أبداً.

ابنتى، لماذا الحزن على خسارة ما، مادام الغد مجهولاً؟! السعادة هى اعتقادك بوجودها. سوف تعرفين أن السعادة كانت فى يدك. عندما تخلو منها يدك . **ألايكفى الإنسان ليرضى عن يومه تمنيه كل يومٍ عودةَ الأمس؟** لئن ضاع أمل الرجل الذى عاش لأجله، فما ضره لو تحول إلى فلاح يزرعه فى أرض غيره ؟!!

أنت نفس كالنهر، فاحتفظى بخصال النهر، العطاء، إن النهر الذى يعطى بلا حساب، يقولون إن منبعه الجنة، فأعطى عطاء من لا يخشى الفقر، هكذا كان محمد بن عبد الله ﷺ ، وكانت العرب تتسارع إلى الإسلام عندما وجدته ﷺ يعطى عطاء من لا يخشى الفقر.

وفى الختام، سئل أبو حازم كيف القدوم غداً على الله ؟ قال: " **أما المحسن فكالغائب يقدم على أهله، وأما المسيئ فكالعبد الآبق يقدم على مولاه** " . وسئل: أى القول أعدل ؟ قال: " **قول الحق عند من تخافه أو ترجوه** " .

يقول إبراهيم بن أدهم: " **إذا أردت أن تعصى الله فلا تأكل شيئاً من رزقه، ولا تسكن بلاده، وانظر مكاناً لايراك فيه فاعصه فيه، وإذا جاء ملك الموت ليقبض روحك فلا تذهب معه، وإذا جاءك الزبانية ليأخذوك إلى جهنم فلا تذهب معهم** ". ألا ترين معى أن معصية الله يجب أن تكون مستحيلة ؟؟!!



(الكلمة السابعة)

عودة ابنة الجنة
إلى رحم أمها

الكلمة السابعة:

عودة ابنة الجنة إلى رحم أمها



ابنتى.. هناك أفراد تحمل الجنة فى محياها، وجهك من تلك الوجوه، يذكرني بطفلى أحمد،لا تدرين ماذا يفعل بي وجهه الباسم دوماً ؟ كيف النظرة الواحدة فى وجهه تمتص كل متاعب الدنيا، كيف تغسل ابتسامته هموماً صخرية. وجهك من هذه الوجوه وهو أمانة فلا تضيعيه.

لي تلميذة قبلك كانت تحمل وجهك، بينك وبينها قرابة، أتذكرها كلما أراك، وجهها سبحان الله، ليس جمالا أنثوياً، بل نورانياً، حضرت لزيارتى فإذ بها تلبس النقاب، وجدت الأمر متسقاً جداً، وكأن البناء الناقص لبنة قد اكتمل، ناقشت الأمر بينى وبين نفسى، لقد وهبهاالله نعمة غالية فصانتها. العجيب أنها فعلت ذلك من تلقاء ذاتها، وقلت هو اكتمال النعمة، فهل يمنح الإنسان نعمتين لتكتمل نعمه ؟ أكاد أرجح أن الإنسان يُمنَح نعمة، ويُترَك له الخيار فى ثوبها، فقد يختار ثوباً يظهرها بمظهر الكمال وقد يختار ثوباً يبهت منظرها، لا أدرى كلما رأيتك تذكرتها ، إنك تنادينها لذهنى ، فهل تناديك ؟ ربما، مجرد حدس، وقد جربت حدسى كثيراً فوجدته لا يخيب، والأيام بيننا !!

احذري أن تُضللي، فكم من أناس يملكون النعم ويشقون لأنفسهم طريقاً معاكساً، يكونون بمعنى آخر ضد أنفسهم، وُهب أبو جهل الحكمة حتى لقبه قومه بأبي الحكم لكنه أصرَّ على الجهل فلقبه ربه بأبي جهل. وهناك جميلات يضللهن جمالهن فيتاجرن به، وتكون النتيجة أن يمتلكن ثوباً جميلاً له رائحة عفنة، ويصبحن كثمرة مخوخة، أو كدار بديعة تحتوى على جثة لا يطيق من يمر بها الرائحة. النعم أمانة، وكم من فتيات يهبهن الله نعمة الإسعاد، لكنهن يضفن إليها الاختراع النسائي العظيم: النكد، فاحذري وكونى نعمة خالصة.

ابنتى.. عندما أردت يوماً أن أضايقك، اخترعت لك حكاية عن اسمك، يقولون إن هناك ملكاً ظالماً يدعى نص، ثم مات فخرج الناس يتبشارون، نص مات، نص مات، وبالوقت تحرفت ، وتبدلت الصاد سينا، فأصبحت نسمات. نسمات.

هناك وجوه تحمل القبول، أعرف بالتحديد اثنين، كلاهما موهوب فى اجتذاب الناس، وارتياحهم إليه فى براعة لا يفوقها إلا براعته فى عقابهم ؛ لأنهم انجذبوا إليه. كنت أتعجب لماذا . وقد وهبه الله هذا القبول، والحب الرباني دون أن يفعل شيئاً . لماذا لا يحرص على كسب الناس !؟ لماذا يفعل ما يغضبهم دون مبرر !؟ ربما ؛ لأنه يثق فى موهبته، وأنه ليس بحاجة إلى كسب الناس ؛ لأنهم يتوافدون بشكل طبيعى. كنت أتعجب وهو ينفّرهم بتلك البراعة التى شدهم بها.

ابنتى، احذرى من هذا، فأنت أيضاً تمتلكين هذه الهبة، فلعلك تتجنبين المهارة المضادة التى تجعلك فى النهاية صفراً. أسمى تلك المهارة المضادة الاطمئنان إلى الرصيد. أعرف رجلاً نجح فى الانتخابات بفضل إخلاص مجموعة من الرجال له، عملوا من أجله كأن كل منهم هو، فلما نجح نظر إلى الدورة القادمة، وهداه تفكيره إلى أن يجذب الذين وقفوا ضده، أصبح كل همه أن يضم لمعسكره رجال الآخر، ونسى رجاله ؛ لأنه يظن أنهم رصيد ثابت، ولم يدر أنه كالممسك ببعض الثمرات إذا حاول أن يمسك ما ليس في يده سيوقع حتماً مابيده. وكان السؤال ما حاجته إلى رجال عجزوا أن يحققوا النجاح لرجلهم؟ أكان فى ظنه أنهم أفضل من رجاله الذين عبروا به إلى النجاح ؟ لا. لكنه كان يطمع أن يجمع بينهما حتى لا يجد منافسة المرة القادمة، فهو يجذبهم وفى ظنه أن رجال معسكره مستمرون، لا يدرى أنهم سيضجون عندما يرونه نجح على أكتافهم ليتقرب إلى أعدائهم، فتركوا له المعسكر، وظل أعداؤه كما هم.

ابنتى، احذرى الأمان إلى الرصيد، وإذا أردت لرصيدك الدوام فوفرى له المناخ. إياك، والانبهار بالنفس، فالإنسان ليس بدعاً من عند نفسه، الإنسان هبة من عند الله، فيجب ألا يأخذه الاغترار بنفسه. فى الأساطير اليونانية،كان نركسيوس Narcissus جميلاً رائعَ الجمال، نظر إلى نفسه فى الماء فانبهر بشدة جماله، لم يفارق الماء، ظل يتأمل أو لنقل يتعبد وجهه على صفحة الماء، فمسخه الإله إلى زهرة النرجس.

٢

الإنسان عدة أشياء، روح وجسد ونفس، وعقل، وقلب.. أما الجسد فحسب ما وهبنا الله، قد يكون نصيبنا منه كثيراً أو قليلاً . أى لا يد لك فيه، سوى أن تحافظي على هبة الله لك فيه. أما النفس فيجب أن تكون نفس طفل مهما كبر العمر، نفس سهلة سمحة، نفس فى قمة الجدية تكون مبتسمة، نفس كنفس النعيمان، النعيمان صحابي جليل شهد بدراً،

وقد بشّر الله أهل بدر بالجنة. فماذا فعل هذا الصحابي ؟ كان يشترى الفاكهة ويقدمها لرسول الله ﷺ على أنها هدية. ويرشد الإعرابي صاحب الفاكهة للرسول ﷺ ليطالب بحقه منه. ويضحك الرسول ﷺ ويعطى للتاجر حقه.

فى مرة ذهب النعيمان مع أبي بكر الصديق فى سرية. ومضى أبو بكر وترك ابن عم للنعيمان قائداً للسرية. ويرفض ابن العم أن يعطى للنعيمان شيئاً. ويغتاظ النعيمان. ويذهب لجماعة من الإعراب ويعرض عليهم ابن عمه عبداً. ويطلب منهم أن يشتروه. لكنه يحذرهم أن بهذا العبد عيباً واحداً. إنه كلما همَّ ببيعه يصرخ ويقول أنا حر. وقال لهم إن كنتم ستتركونه إن قال ذلك. فلا داعى لأن نتم الصفقة من الآن. قالوا له قبلنا. وذهبوا لاستلام البضاعة. وصرخ ابن العم: إنى حر. إنى قائد السرية ! فلم يحفلوا به. وقالوا: نعرف. نعرف.. !! وحضر أبو بكر بعد أن ذهبوا بالرجل. ومضى ورائهم حتى استرد نائبه. وضحك الرسول جداً عندما علم بالقصة. النعيمان هذا كان يمتلك نفس طفل. تعشق المرح،

فى يوم أراد أعمى أن يقضى حاجته. فاعتقد أنه أصبح خارج حدود المسجد. فصاحت الناس به. إنك مازلت فى حدود المسجد. فمضى النعيمان وأخذ بيده ومضى به مسافة ثم قال له هاهنا. ولم يخرج به عن حدود المسجد أيضاً. فهم الرجل بقضاء الحاجة اعتقاداً منه أنه أصبح خارج حدود المسجد. فصاحت الناس به مرة أخرى. وسأل الأعمى من أخذ بيدى وعمل هذا المقلب فى؟ فقالوا له: النعيمان. فتوعده لو ظفر به لنزل بعصاه على أم رأسه. ومضى النعيمان بنفسه للأعمى فى يوم آخر. وقال له ألا أدلك على النعيمان. قال الشيخ بلى. فأخذ بيده وقاده إلى أمير المؤمنين عثمان فهبط الرجل على رأس الخليفة. وكاد الناس يفتكون به. هذا صحابي. فالروح المرحة مباح. حتى ولو فى آخر سنوات العمر. أن يكون لك روح طفل.

أما العقل فيجب أن يكون عقل شيخ. حتى لو كنت فى الشباب. أما القلب. فيجب أن يكون القلب فى كل شىء فيك. أن يمتد القلب حتى أناملك. أن تنطق كل أفعالك بالرحمة.

إن الكمال يابنية أن يكون الوجه من الجنة. وأن تكون الروح طفلة. وأن يكون العقل شيخاً مجرباً. وأن يكون الجسم مساماً من قلب. وقتها تخضر الأرض التى تجلسين فوقها. وويل من يقترب من الكمال ولا يصل إليه. فأسوأ عيوب الإنسان أن يقف على حافة الكمال.

﴿٣﴾

فى الأدب الإنجليزى قصة شهيرة لأوسكار وايلد اسمها صورة دوريان جراي. كان لهذا الرجل صورة تحمل كل عيوبه وموبقاته. يظل وجهه جميلاً يحمل النقاء والصفاء ولا يحمل شيئاً من أفعاله. تحملها عنه صورته. فى يوم دخل المخزن ووجد الصورة قد أصبحت بشعةً لا تحتمل. لم يستطع رؤيتها. مزقها بسكين. وهنا انتقلت خطوط حياته الداخلية إلى وجهه فأصبح وجهه مثل صورته لا يُحتمَل. نحن فى حاجة إلى أن يكون لكل منا صورة. يسطّر عليها عيوبه. ويتخلص منها أولاً بأول.وكان إبراهيم بن جنيد يقول: **اتخذ مرآتين؛ وانظر فى إحداهما عيب نفسك وفى الأخرى محاسن الناس**.ويقول المسيح عليه السلام: " **لا تنظروا فى عيوب الناس كأنكم أرباب.وانظروا فى عيوبكم لأنكم عبيد** " .

ابنتى.. قد تكون التوجيهات فى شكل نصيحة، وقد تكون تذكرةً. هناك أناس وهبهم الله الفطرة. هؤلاء يحتاجون أن نذكرهم دائماً أن يتشبثوا بصفاتهم النفسية. ابنتى.. إن الناس ممكن أن تغيّر نفسية الإنسان. فلا تنساقي وراء ردود الأفعال ؛ فقد يشدك هذا بعيداً عن نفسك.

﴿٤﴾

ابنتى.. ياذات الوجه الطفولى. لو استطعت أن تظلى طفلة فافعلى. إن الطفولة حلم الإنسان المستحيل. لقد حباك الله بوجه لا تمسه النار. ألا يكون من الغباء أن أبدأ بالجنة وانتهى إلى غيرها ؟. ما أخسرك لو ضاعت منك الجنة ! قاتلى من أجل أن تكون الجنة لك !

كانت فاطمة بنت عبد الملك، ملكة الدنيا المدللة. جدها مروان بن الحكم كان خليفة المسلمين. وخلفه أبوها عبد الملك مدة طويلة. وتعاقب على الخلافة بعدهما خمسة. منها زوجها وأربعة من أشقائها. فتاة عاشت حياتها حتى ماتت وخليفة المسلمين أما جدها أو أبوها أو أخوها أو زوجها. عاشت فى عز وترف لم يشهده أحد. وظلت فى ترفها حتى بعد أن تزوجت بابن عمها عمر بن العزيز. فقد كان يهوى هو أيضاً الترف. وكان له عطر خاص. يعرف منه حتى من فى شارع آخر. وكانت ملابسه تقدر بماقيمته ثلاثون ألف. كان زوجها عمر يقول ما تحقق لى شيء إلا وتمنيت ماهو أعلى منه. طلبت الإمارة فلما تحققت. طلبت الخلافة. فلما تحققت. لم أجد أعلى منها إلا الجنة. ومهر الجنة هو ترك

الدنيا. وهنا أقدم الخليفة الذى كان أميراً مترفاً يعيش فى قصر يعلو على قصر الخليفة، أقدم على التخلص من الدنيا، فرد كل قصوره ومجوهرات زوجته إلى بيت المال، ورجع إلى بيت جده والد أمه عاصم بن الخطاب، بيت قديم من الطين يكاد يقع. حقاً، ما أعظم هذا الرجل، يترك الدنيا بكل مافيها وهى راكعة أمام قدميه. لماذا ؟ ؛ لأنه يطلب الجنة. فاحرصى عليها، فأنت قطعة منها يجب أن تعود إليها .

كونى اسمك، كونى نفسك. إنك لا تحتاجين إلا أن تفطنى لما معك. ابنتى، لا يكفى أن أُمنَح النعم، بل أن أعى بها، فكم من أناس وهبوا النعم، وعاشوا فى شقاء، لايدرون بما يملكون، ولا يدرون أن الإنسان الذى ينال نعماً لابد أن يتعرض لابتلاء، فسيأتى يوم تبدأ المحن، وهنا يكتشف المرء أنه كان فى سعادة لم يشعر بها، ولم يسدد زكاتها،زكاة النعم الشكر. وكتب الله على نفسه: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ (ابراهيم).

وإن تبرم من ابتلاء لابد أن يتعرض لابتلاء جديد أشد ليبين له أنه كان مخطئاً عندما تبرم من الابتلاء السابق، فإذا واصل تبرمه كان هذا يعنى ابتلاء آخر أشد، وهكذا. الشكر يوالى النعم علينا، ويوقف المحن عنا. قد تكون النعم إذن نقمة لو لم نفطن لها، وقد تكون أيضاً نقمةً أشد، لو كان معها الغرور كما حدث مع أبي جهل ؛ لأن الغرور إذا دخل مع شيء أفسده. إن الغرور أشبه بزيت الخروع الذى يسبب الإسهال، لو وضع مع أشهى طعام، فقد أضاع طعمه وأفسده.

﴿ ٥ ﴾

لا تحزنى على شىء ضاع، لقد حزن المسلمون ؛ لأنهم لم يظفروا فى حربهم مع كفار مكة بأكبر رأسين يكيدان للمسلمين هما خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، ولم يعلموا أن الله فوّت عليهما ذلك؛ لأنه يدخرهما للمسلمين. إنك لا تدرين تدبير الله، فقد يمنعك الشىء اليوم ليدخره لك غداً. قد نحزن لأن إنساناً نكرهه أفلت من هلاك محقق، ثم يصبح هذا الشخص ذاته أفضل أصدقائنا. لقد أفلت أبو سفيان من مصير رءوس الكفر يوم بدر، وحزن المسلمون لإفلاته، ليبلى بعد ذلك من أجل الإسلام بلاءً حسناً ويدفع عينيه فى القتال دفاعاً عن الإسلام .

وسهيل بن عمرو خطيب الجاهلية، كم تمنى المسلمون أن ينزعوا ثنيته ليعجز عن الخطابة وشتم رسول الله ﷺ ، ويدخل الإسلام ويلعب لسانه الفصيح دوراً عظيماً إذ بخطبته تعصم أهل مكة من الانجراف مع المرتدين بعد وفاة الرسول.

ابنتى، إن طريق العظمة أن نرتفع عن الأنا. كونى للآخرين ولا تنتظرى مقابلاً. من عاش لنفسه كان كفقاعة تمتص نفسها من الهواء وتتلاشى. من عاش للآخرين يبقى بعدهم. يقولون العار أطول من العمر. وأقول وكذلك العطاء.

﴿ ٦ ﴾

كوني جسماً نورانياً. وكم من أجسام نورانية عاشت فى هذه الأرض. شخصيات يموت جسدها ويظل إشعاعها يخترق ظلامات حياتنا ويتلألأ في سماءنا. من هذه الشخصيات التى يشع نورها. هذا الرجل الذى كان يتسلل بالليل إلى بيوت الفقراء بالمدينة. فيحضر لهم الطعام ليعيشوا. ولا يعلمون من أين تأتيهم ؟ ومن يعطيهم ؟ فلما مات زين العابدين بن الحسين انقطع ما كان يأتيهم. فعرفوا أنه هو الذى كان يأتيهم بالليل . زين العابدين هذا. كان يتوضأ فى يوم. فأوقع عبده إناء الوضوء الخزفى على رجل سيده فجرحها. فقال الغلام: ياسيدى. يقول الله تعالى: وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ. فقال زين العابدين: لقد كظمت غيظى. ويقول: وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ، فقال: لقد عفوت عنك.ويقول: وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ . فقال زين العابدين: أنت حرٌّ لوجه الله.

ومرة أخرى مع زين العابدين. سبه رجل. فأسرع غلمان زيد ليضربوه. فقال لهم كفوا أيديكم عنه. ثم التفت إلى الرجل وقال له خذ تلك الصرة (وكان بها ألف درهم) فإنا لا نملك إلا أن نطيع الله فيمن عصى الله فينا.

ويخرج عمر عبد العزيز وقد أصبح خليفة إلى صلاة الفجر فيطأ رجلاً نائماً فيصيح فيه الرجل: أنت أعمى ؟ فيرد عليه بهدوء: لا. فينقض حارس على الرجل يريد أن يفتك به لأنه شتم أمير المؤمنين فيمنعه عمر ويقول:ما زاد عن أن سألنى وأجبته.

يغمرنى اسم عبد المنعم رياض بنوره. لقد كان أول اسم يطرق أذني فى عالمى الصغير وأنا دون الثامنة. كان رئيس أركان الجيش المصري أى الرجل الثاني فى الجيش.ومع ذلك عندما استشهد كان فى الخطوط الأمامية المواجهة للعدو. ولنعرف معنى الاستشهاد. أحببنا الاستشهاد وتمنيناه مع صورة هذا الرجل. وكم رسمنا صورته. وكم علقنا صوره فى حجراتنا لقد تعلمت تكبير الصور عن طريق المربعات. فكانت أول صورة أكبرها وأنا فى التاسعة من عمرى هى صورة عبد المنعم رياض.وشتان بين جيل نجومه عبد المنعم رياض. وإبراهيم الرفاعي وبين جيل نجومه بعض المطربين المخنثين ..

أتدرين شيئاً عن إبراهيم الرفاعى، إنه ابن بلدنا بلقاس، وكان أحد القلائل التى دوّخت العدو، وأطارت النوم من عينيه. كان قائد الصاعقة فى حرب أكتوبر. لكنه لم يكن كأى قائد. كان ينزل إلى الميدان بنفسه كأحد الجنود. كان يجرى وراء الموت، والموت يجرى من وجهه، إلى أن تمكّن من الإمساك به، فلم يتعوّد أن يفشل. وقد أراد الشهادة وكانت له. فهل حقاً مات الرفاعي ؟!

ويجرنا الحديث إلى بطل ثالث هو جواد حسنى، الذى كان فى كتاب المطالعة ونحن فى عمر الثامنة أو التاسعة. طالب الحقوق الذى حارب الفرنسيين فى بورسعيد ٥٦، ولما ظفروا به، كتب على جدران السجن بالباقى من دمه: تحيا مصر.

الإنسان موقف، ألم يكبر على خليل لاعب نادى الزمالك الأسبق فى عيون الجميع، عندما سدد كرة فى مباراة لناديه مع نادى الإسماعيلي بالإسماعيلية، وصفّر الحكم محتسباً إياها هدفاً، وكانت هدف التعادل، وإذ به يتقدم وسط دهشة الجميع، ليخبر الحكم بأن الكرة لم تدخل المرمى ولكنها دخلت الشبكة من الخارج،ويلغى الحكم الهدف، وتنتهى المباراة بهزيمة فريقه. لكم حقق اللاعب مئات الانتصارات لفريقه، لكن تظل هزيمة فريقه فى تلك المباراة أروع انتصاراته.

لى أقصوصة قصيرة عن صعيدي كان يبحث ﰲ أحد الأحياء عن صعايدة، فقابل رجلاً كان يقف أمام بيته بعد أن دفع لرجلين أجرتهما عن رفع الطوب من الشارع إلى السطح، ولم يكد ينتهى من ذلك حتى وجد الصعيدي بشاربه المميز ومشيته الوئيدة، وملابسه الكثيرة كأنه دولاب نفسه . يسأله عن أى ساكن من الصعيد. ففهم أنه يريد أناساً من بيئته ليقترض منهم مالاً حتى يعود إلى بلده. فأراد أن يساعده ويعطيه مالاً. لكنه يدرى أن الصعيدى لن يقبل أن يأخذ المال صدقة. لذلك عرض عليه أن ينزل الطوب من على السطح، هذا الطوب الذى دفع ثمن إصعاده إلىالسطح تواً، تمنيت لو أكون هذا الرجل..



(الكلمة الثامنة)

السعادة هاهُنا

الكلمة الثامنة :

السعادة.. هاهُنا



ابنتى..

من المفاتيح الطيبة للسعادة الافتراضات. لو افترض الإنسان أنه سيموت غداً. لن ينام إلا تائباً. ولو افترض أن صديقه سيموت غداً. سيغفر له زلته. ولو افترض فقدانه أحد أعضاء جسمه سيرضى بفقدان ماله.

أبيحُ الافتراض فى الأحداث. لأنى أفترضُها وأنا على يقين بأنها لم تحدث.أفترضها وأنا غير واهم من أجل أن أرضى بواقعى. لكن لا أبيحُ الافتراض فى أمور غيبية خبرية؛ لأنه افتراض مصحوب باليقين. كأن أفترض أن شخصاً ما أساء إليّ. ثم أبنى على هذا الافتراض نتائج وأحكاماً. ثم يتملكنى اليقين بصحة النتائج. فهلا تيقنا أولاً من صحة الفرض ؟ وأعتقد أن من يفترض فرضاً ويسلّم بوجوده ينتهى به الأمر كأنه بالفعل حدث، طلاب كثيرون افترضوا سوء النتيجة وعاشوا الحزن قبل الموعد. فحصلوا على نتيجة سيئة لأنهم سلموا بافتراضهم كأنه حقيقة ولم يسعوا إلى منعها.

ولو أن صديقة لك فارقت الحياة وأنت مختصمة لها لأسباب صغيرة لن تسامحي نفسك، فماذا لو افترضت موتها عندما يحدث خصام لأسباب صغيرة ؟ وقتها ستفزعين خشية أن يحدث هذا. وتبادرين إلى التسامح..

جاءتنى إحدى تلميذاتى تشكو لى أباها الذى تخلى عنها. وأراد أن يمنعها عن التعليم، فلما أكملت تعليمها العالى بعيداً عنه. أرادت ألا تدعوه إلى فرحها. كلما ألححت عليها بأن تطبق معه أسلوب التسامح. فترد عليّ بسرد أحداث فعلها معها. ولم أكن بحاجة لسماع مزيد من الأحداث. فقد وقفت على إطارها العام. وهنا قلت لها: لو أن صديقاً للإنسان غاضبه وأخطأ فى حقه. فما كان من صاحب الحق أن ابتعد. الناس كلها ستعطيه الحق فى ابتعاده. هذا حقيقى. لكن لو مات هذا الصديق لن يغفر صاحب الحق لنفسه أنه تركه فى لحظاته الأخيرة من أجل أسباب تافهة هو صاحب الحق فيها.

قلت للفتاة المغاضبة أباها: ليس معنى أن معك الحق أن الطريق الذى تسلكينه هو الصواب ؛ والفضل أصوب من الحق. فالحق أن يفعل النبي بالكفار ما فعلوه بعمه حمزة. والفضل أن يعفو. الحق أن أنتقد المخطئ. لكن الفضل أن أراعى فضله عليّ. وأن أحاول نصحه من خلال الابتعاد عنه بعض الوقت. فيحاول أن يعرف لماذا أصبح القريب مبتعداً ؟ قلت لها من حقك أى شيء مادام مسلسلك طويلاً عن أحداثه معك. لكن الفضل أن لا أستعمل حقى مع من له فضل عليّ. قلت لها: لو عدتِ الآن وعلمتِ أنه ماتَ. ألن تبكى عليه. وتعاتبك دموعك: ليته عاش ليحضر فرحى حتى لو زحفت له على رموشي. قلت لها لو مات غداً لتمنيتِ أن يفعل أضعاف ما فعله. ولكن يعيش. أشارت برأسها علامة الإيجاب.

﴿ ٢ ﴾

الحمد أعظم النعم. فإن لم تكن تلك النعمة معك فاتقنيها. يقول الفرنسي جوزيف جويير: " **كل شىء يمكن تعلمه حتى الفضيلة** ". وكان تشيكوف يؤمن أن الإنسان قادر أن يدرب نفسه على أى شىء. هو ذاته كان سريع الانفعال. وبالتدريب تمكّن أن يصبح حليماً يضرب به المثل. وهذا الأحنف الذى ضربت به العرب المثل في الحلم يقول لست بحليم ولكنى أتحالم. أى يتدرب على الحلم. فانظري أين ذهب به تدربه أصبح أشهر من اتصف بتلك الصفة.

وإلى جوار الحمد. عليك بالصبر. فالحمد والصبر نعمتان يجعلان الإنسان دوماً فى خير. يقول الرسول ﷺ المؤمن كله خير. فى السراء والضراء. إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له. وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له. فالصبر مفتاح الجنة. ذهبت امرأة للنبى ﷺ وقالت إنى أصرع وإنى أتكشف. فادع الله تعالى لى. قال: إن شئت صبرت ولك الجنة وإن شئت دعوت الله تعالى أن يعافيك. فقالت أصبر. لكني أتكشف. فادع الله أن لا أتكشف. فدعا لها. ويقول ﷺ : **مايصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفَّر الله بها من خطاياه**. ويقول: **من يُرد الله به خيراً يصيب منه**.

خطب أبو طلحة أم سليم فقالت: والله مامثلك ياأبا طلحة يُرد. ولكنك رجل كافر وأنا امرأة مسلمة ولا يحل لى أن أتزوجك. فإن تُسلِم فذاك مهرى وما أسألك غيره. فأسلم فكان ذلك مهرها. وما أعظمه من مهر. ورزقهما الله بولد. لم يلبث أن مات فقالت زوجته

أم سليم لأهلها لا تحدثوا أبا طلحة حتى أكون أنا أحدثه. فجاء فقربت إليه عشاء فأكل وشرب ثم تصنعت له أحسن ما كانت تصنع قبل ذلك. فوقع بها ثم بعد ذلك قالت له: يا أبا طلحة. أرأيت لو أن قوماً أعاروا عاريتهم أهل بيت فطلبوا عاريتهم ألهم أن يمنعوهم؟ قال: لا. فقالت فاحتسب ابنك. فغضب. ثم قال: تركتنى حتى إذا تلطختُ ثم أخبرتنى بابنى. فانطلق حتى أتى إلى رسول الله ﷺ فأخبره بما كان. فقال رسول الله ﷺ : بارك الله فى ليتكما. فولدتْ غلاماً. فذهبوا به للرسول ﷺ . فأخذ تمرات ومضغها ثم أخذها من فيه فجعلها فى فى الصبى ثم حنكه وسماه عبد الله. وكبر عبد الله ورزق البنين حتى كان له تسعة من الأولاد كلهم قد قرؤوا القرآن.

﴿ ٣ ﴾

ابنتى.. قد تضيقين بحياتك عندما يكون لك جيران مجهدون أو سلفات أو أخوة. هذا سعيد بن جبير يسكن تحت يهودى، وتتساقط قاذورات اليهودى عليه. فيضع إناء ويجمعها فيه ثم يفرغ الإناء وهكذا. طيلة خمسة عشر سنة. لا يشتكى، ولا يتبرم. بل يتحمل صابراً. ثم مرض سعيد فجاء اليهودى يزوره، ويكتشف الأمر. فلا يكون منه إلا أن يدخل الإسلام.

وكان لأبي حنيفة - وهو الذى لاينام الليل - جار يشرب الخمر، ويرفع صوته بالغناء بالليل. فما اشتكى منه. بل عندما توقف الصوت ليلةً سأل عنه. فعلم أنه محبوس. فسعى عند أمير الكوفة فى إخراجه. قالت امرأة عمران بن حطان وكانت شديدة الجمال لزوجها وكان شديد القبح: كلانا فى الجنة. فقال لها. لماذا ؟ قالت: لأنى أعطيتُ مثلك فصبرتُ. وأعطيتَ مثلى فشكرتَ. واستغرب الأصمعى من امرأة حسناء قد رضيت ببعل قبيح. فقالت له : اسمع ياهذا. لعله أحسن فيما بينه وبين الله خالقه. فجعلنى ثوابه ولعلى أسأت فجعله عقوبتى. حقاً ! الصبر والشكر. يحيلان البنية الترابية للإنسان إلى بنية من الخير تدخل الجنة بغير حساب.

﴿ ٤ ﴾

ابنتى.. التمسى للآخرين العذر دائماً. إلى سبعين عذراً. وإن لم تجدى له عذراً فقولى

لعل له عذراً لا أعرفه. يقول الإمام على: "**أعقل الناس أعذرهم للناس**" . ضعى نفسك مكان الآخرين قبل الحكم عليهم. ولا تضعى هواك عندما تحكمين، فالهوى آفة الرأى، والمرأة فى أكثر الأحوال لا رأى لها ؛ لأنها لا تستطيع أن تنحى عاطفتها، ولا تتسرعي بالحكم قبل أن تسمعى الطرفين.

الزوجة الطيبة رزق، يقول ﷺ : **الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة**.ويقول فى خديجة:: **إنى قد رزقت حبها.** حقاً ما الرزق ؟ إن الناس شغلها الشاغل هو الرزق. ولا يفهمونه، ويعيشون فى خوف من الموت ودوماً يأتى الموت بغتة.

أعرف رجلاً كان يكسب كثيراً وينفق كثيراً، ثم قرر أن يقف لحظة، ووجد أن ما يفعله إسراف وسياسة خاطئة، بدأ سياسةً مناقضةً، ضاق الرزق معه. ندم على إسرافه السابق، ولم يدر أن ما ظنه إسرافاً كان مجلبة للرزق. سمعت الشعراوي يقول مرة **إذا لم يعطك الله ما تشاء، فلأنه يدخر لك ما يشاء.**

راحة البال رزق، ليس المال هو فقط الرزق. الولد الصالح رزق، وقد قال لى أحدهم: إن الرزق ليس هو المال الذى يصل إلى يدك، بل الرزق الذى يخرج من يدك، أى أن مانختزنه ليس من الرزق فى شيء. وعلى قدر إنفاقك يكون رزقك. إن الخوف من الموت موت، والخوف من الفقر فقر. والرزق قادم قادم. وما علينا سوى السعى. يقول المثل الدانماركى:
" **إن الله يمنح لكل طائر طعامه، ولكنه لا يلقيه فى عشه.** "

أرسل على بن أبي طالب ابنه ليطلب من أمه السيدة فاطمة درهماً من دراهم ست تركها لها، فردت عليه لقد تركت ستة دراهم للدقيق، فقال على:

- لا يصدق إيمان عبد حتى يكون بما فى يد الله أوثق منه بما يده، قل لها : ابعثى بالست دراهم.

وتصدّق على بالدراهم كلها، لكنه قبل أن يعود إلى بيته مر برجل معه جمل يبيعه فاشتراه منه على بمائة وأربعين درهماً على أن يدفع له الثمن فيما بعد، وربط الجمل ليمر به رجل ويشتريه منه بمائتى درهم، فيدفع لصاحب الجمل ماله ويعود بستين درهماً لزوجته، فتتعجب، فيقول له: هذا ما وعدنا الله: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا [1]﴾. وقد تحقق هذا لعلى بن أبي طالب لأنه واثق في وعد الله، وقد يفعلها غيره اليوم لو قرأ

(١) الأنعام: ١٦٠

القصة ولا تتحقق له لأنه يختبر الله. يعطى منتظراً المقابل ويشترط عليه المضاعفة وهو يعطى. وقد سمعت من صديق اضطرته الظروف أن يخطب لأول مرة في حياته قصة تؤكد هذا المعنى : القصة تقول إن مالك بن دينار كان يأتيه في العام رزقٌ يقدر بألف دينار فيخرج إلى الناس فينفقه جميعه، وينام سعيداً،وفي الصباح كان يجد المبلغ مضاعفاً تحت وسادته. فعلم ابن عم له كان غنياً لكنه بخيل لا ينفق شيئاً لوجه الله. فلم علم أن ابن عمه ينفق فيحصل على المبلغ مضاعفاً، فباع كل ما يملك ووقف إلى الناس يوزعها عليها جميعاً،ونام مترقباً الصباح ومنتظراً أن يجد المبلغ مضاعفاً، في الصباح لم يجد شيئاً.

وفى الأمثال المصرية: " **حبيب ماله حبيب ماله، وعدو ماله عدو ماله** ". ويقصدون أن البخيل الذى يحب ماله لا يحبه أحد، والذى يعادى ماله أى الكريم ليس له عدو، وفى العبارة جناس، ماله الأخيرة تعنى ليس له.

﴿ ٥ ﴾

ابنتى ، قاتلى من أجل السعادة ؛ إن السعادة فى متناول يدك، لكنك لن تدركي ذلك إلا عندما تتسرب من يدك ؛ لأن الأشياء المعنوية لاتدرك بوجودها، بل برحيلها .وحتى لو لم تكن السعادة فى أيدينا فهى تستحق السعى إليها، ومن يسع يصل. لقد وعى المثل المصري هذه الحكمة فيقول: "**حد يبقى القلم فى أيده ويكتب نفسه شقى** ".

لى قصة عن رجل إن يحزن يركب الحزن أكتافه فلا ينزل، إن يتنفس الحزن يمت، لكنه كان أستاذا للسعادة، مفتاح مغارتها معه، كانت السعادة تحبه وتفضى له بأسرارها فكان قلعة حصينة لا يأتيها الحزن من بين يديها أو من خلفها، لكن الحزن يأسر زوجته، ويصبح الخطر جلياً، أصبح للحزن طريقاً إليه، يجاهد أن يطرده عنها، لكنه لا يجد معاونةً منها، دوماً حزينةً، الحزن أسوارها المقدسة، ولا يحزن إلا بحزنها، يضطر أن يبوح لها بسره: " **فى حزنك موتى،وأخشى عليك بعدى، اختارى بين الحزن وبينى** ".

أيضاً حزينة، الحزن كالوحش، يقف حائراً بين مغارة السعادة التى يملك مفتاحها، وبين أسوار حبيبته. لا يقدر أن يتركها له، ولا يقدر أن يذهب إلى المغارة، اضطر أن يعيش حزيناً وهو من يملك كنز سعادة. لم يكد الحزن السام يتغلغل إلى مسامه حتى تهاوى على الأرض ميتا. عندما رأته ميتاً أصابها الجنون.

إن المرأة التى تشهر الحزن سلاحاً تقتل به زوجها تعاقب نفسها دون أن تدرى. إياك والحزن. زوجك كقائد جيش، لا ينال عدوه منه إلا إذا كنت أحد أعدائه. يخسر الرجل جميع جولاته إذا كانت زوجته أحد أعدائه، ؛ لأنها عدو خفى لا يلتفت إليه، وإذا التفت إليه لا يفرغ منه أبداً ويعطى الفرصة لعدوه لينتصر.

الحياة يابنية لا تقتضى أن تقفى فى وجهه، بل أن تسيرى إلى جواره. يقولون وراء كل عظيم امراة، ولم يقولوا أمامه. لو كنت أمامه فلا تقفى، بل سيرى. وقوفك يعنى تعطيل مسيرته، يعنى إشارة حمراء للحياة ذاتها.

ابنتى، الإنسان مثل ورقة رتينة محترقة، مضيئة تنير الظلام ؟ لكن من يمسكها يحيلها رماداً. هذا هو الإنسان فلا يغرنك الهالة التى حولك.

﴿ ٦ ﴾

يحكون فى الأساطير اليونانية عن أن داناوس Danaus، كان لديه خمسون بنتاً، تقدم إليهم أبناء عمهم الخمسون يطلبون الزواج منهن، وافق داناوس، لكنه كان يكره أولاد أخيه، لكنه أتم الزواج وأقام احتفالاً كبيراً، وانتحى ببناته جانباً وأعطى كل منهن خنجراً حاداً لتخبئه بين طيات ملابسها وتقتل زوجها وهو نائم، وفى تلك الليلة تمت الجريمة الشنعاء.

وكانت الوحيدة التى لم تفعل هيبرمنسترا Hypermnestra، إذ أيقظت زوجها وطلبت منه أن ينجو بحياته، وأعطته مشعلاً مطفئاً وأخبرته أن يشعله عندما يصل إلى الجبل القريب من المدينة وأن يرفعه عالياً فى الهواء كي تطمئن أن جنود الملك لم يقبضوا عليه. وقادته إلى خارج القصر وأرشدته إلى الطريق. وفى صبيحة اليوم التالي أثنى داناوس على بناته، لكنه غضب غضباً شديداً عندما علم بما فعلته هيبرمنسترا،وأقسم أن تحاكم علانية، ووضعت فى جب مظلم تحت الأرض، ودعا شيوخ المدينة لمحاكمتها فى الساحة الكبيرة. وأعلن داناوس أن ما يقررونه سوف يُنفذ. وعندما سأله القضاة إن كان حقاً سيرضى بحكمهم أقسم أنه سوف ينفّذ الحكم حتى لو حكموا عليها بالموت.

وقال القضاة: إن هيبرمنسترا تستحق أن تكون أقرب أخواتها إلى قلب الملك وأن يعود زوجها. واضطر الملك أن يعفو عن ابنته مكرهاً. ليصبح زوجها بعد وفاة والدها ملكاً على البلاد. وفى العالم السفلى حُكم على أخواتها الدانايدر أى بنات داناوس اللاتى قتلن

أزواجهن أن يملئن خزاناً كبيراً، وقد أعطى دلو لكل منهن، وعليهن ألا يتوقفن عن نقل الماء من النهر حتى يمتلىء الخزان تماماً، وكان الخزان مليئاً بالثقوب. وكان لزاماً عليهن أن تستمر رحلتهن اللانهائية. بين النهر والخزان. يبذلن أقصى ما وسعهن والخزان لا يمتلىء.

﴿ ٧ ﴾

لا تأخذي بالظاهر، فكم من ظاهر خادع، وكم من شرٍّ جلي هو الخير عينه. فى صلح الحديبية ثار المسلمون على الصلح واعتبروا أن فى الصلح تنازلاً. وقالوا لماذا ونحن الأعلون نعطى الدنية فى ديننا ؟ كان فى العهد نص يقضى أن من يأتى من مكة لرسول الله فى المدينة يرده إليهم. وكان ظاهر النص جائراً. لكن الرسول ﷺ وافق، وتمضى الأيام لتبرهن على بعد نظر الرسول وأن ما اعتبروه شراً وتنازلاً كان نعمة وتعاظماً. ذلك أن الذى يرتد عن الإسلام ويذهب إلى مكة، لم يكن الرسول بحاجة إليه. وماذا يفعل بمن ترك دينه ؟ لا خير فيه. فليظل معهم. ومن يدخل الإسلام ويحضر المدينة كان الرسول ﷺ يرده إلى مكة. فهل كان الإسلام يخسر ؟ لا. كان المسلم الذى يعود إلى مكة له طريق من اثنين، يظل على إسلامه مهما فعلوا. وهنا لم يخسره الإسلام. أو يهرب من مكه كما فعل الفدائي أبو بصير، أسلم وهرب من حارسه وكوّن جماعة، كلها أسلمت وردها الرسول ﷺ إلى مكة فهربت، وبدأت تقطع الطريق على تجارة مكة، وحار أهل مكة معهم؛ لأنهم حرب عليهم، والرسول ﷺ غير مسئول عنهم؛ لأنه ردهم إلى مكة، فمكة حرة معهم. هنا ضج أهل مكة من هذا النص وطلبوا إلغاءه، طالبوا بأن يحتضن الرسول ﷺ من يأتيه مسلماً ولا يرده إلى مكة. ألحوا أن يلغى ما كانوا يظنونه نصراً لهم. ليس بشرٍّ كل مايبدو شراً .

إن المسيخ الدجال يمضى بين الناس يحمل جنة ونار، فالتى يقول إنها الجنة هى ذاتها النار، والتى يقول عنها النار هى الجنة ذاتها. حقاً. كم يكون الظاهر خادعاً. وليس ببعيد عن الذهن قصة الخضر، أروع نموذج لإثبات أن كثير من الظاهر يخدع حتى من كان فى منزلة نبى الله موسى، عندما رأى موسى فيما فعله الخضر شراً.لكن بعد أن فسّر الخضر ما فعله اكتشف موسى واكتشفنا أن ما ظهر لنا على أنه شر هو الخير نفسه. وكم من شر ظاهر يكمن فى باطنه الخير، وصدق رب العزة: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة).

﴿ ٨ ﴾

لا آومن بالاسطمبات. في مرة شهد زملاء على واقعة تخصنى دون أن يشهدوها، وشكرت لهم الأمر ثقة منهم فىّ، وبعد سنوات حُكي الأمر فى مجلس ، فأصرَّ أحدهم أن شهاداتهم تلك شهادة زور. في البداية أخذت الأمر على أنه مزاح، فقلت له: عموماً الوزر عليهم هم لأنهم الذين شهدوا وليس أنا. لكنه كان حاداً ومصراً على أنهم ارتكبوا أحد الكبائر، لأنهم شهدوا بما لم يروه. فنحيّت المزاح وقلت له : ألا يجوز أن أشهد دون أن أرى، لو جاءوا وأخبرونى أن فلاناً وهو صديقى وأعرفه جيداً، قد اعتدى على امرأة، لن أصدّق وأشهد ببراءته وأنا لم أر.

وأصر أن تلك أيضاً شهادة زور، فقلت له أتدرى أن أبا بكر سُمى بالصديق على واقعة لم يرها ؟ بل أنه فى البداية رفض أن يصدق، واعتبر أن هذه الواقعة غير مصدقة، واتهمهم بأنهم يتجنون على الرسول ﷺ ويتقولون عليه ما لم يحدث كعادتهم معه، فلما قالوا له: مادمت لا تصدق فهيا اسمع منه، فهاهو يقف هناك يقول.وهنا قال الصديق قولته: إن كان قالها فقد صدق. وهنا سماه الرسول ﷺ بالصديق.

واقعة أخرى عندما ادعى يهودى على الرسول ﷺ أنه لم يسدد ثمن ما اشتراه رغم أن الرسول قد سدد، لكن اليهودي أصر على الإنكار. وهنا تطوع أحد الصحابة واسمه خزيمة بن ثابت فقال لليهودى لكنى رأيته يعطيك الثمن، وأمام شهادة الصحابي لم يملك اليهودى إلا أن اعترف بالحقيقة، فلأنه كاذب لم يستطع أن يصر على رأيه، فلو لم يأخذ الثمن لو شهد مليون شاهد ماحفل بهم، لكن؛ لأنه أخذ الثمن فلا يدرى من رآه. وانتهت المشكلة، لكن الرسول يقول لخزيمة: لكنك لم تكن معنا، فكيف شهدت؟ فيقول له يارسول الله إننى أصدقك فى وحي يأتيك من السماء أفلا أصدقك فى أمر من أمور الدنيا. وهنا اعتبر الرسول شهادته بشهادتين. وعندما كان زيد بن ثابت جامع القرآن يقوم بعمله فى جمع القرآن، وكان مبدأه لا يأخذ آية إلا إذا كان لها شاهدان، إذ بآية ليس لها إلا شاهد واحد، لكن شاهدها خزيمة الذى جعل الرسول شهادته بشهادتين ووقتها أجازها زيد.

وتضايق الرجل جداً، واتهمنى بأننى قليل الأدب فى المناقشة، ويبدو أن قواعد الأدب عنده هى الكبير فى السن يكون على حق، حتى لو افتقد الدليل والحجة.

﴿٩﴾

سأحكى لك نكتة، مضى رجل يدعى ابن القسورة، فوجد مقابر، مكتوب عليها أشياء غريبة، أحدهم مكتوب عليه فلان الفلاني عاش ساعة، وآخر مكتوب تحته عاش عشر دقائق، وهكذا.. فسأل: فقيل له: نحن لا نكتب من العمر الذى يعيشه الإنسان سوى عمره السعيد فقط، فهناك من عاش سعادة قدرها خمس عشرة دقيقة، وهناك من عاش سعادة قدرها ثلاثون دقيقة وهكذا، فقال له: لو مت اكتبوا على مقبرتى: ابن القسورة.. من بطن أمه إلى المقبرة !

بنيتي، أعمارنا لا تحسب إلا باللحظات السعيدة التى نعيشها، أعمارنا لا تقدر إلا بالمواقف الرائعة التى نعيشها.



(الكلمة التاسعة)

الوجه الآخر للنعمة

الكلمة التاسعة :

الوجه الآخر للنعمة

﴿ ١ ﴾

إياكِ والخوف، فليس ما تخافين منه بأسوأ من الخوف.. كم من مرة قلت لتلاميذى الخائفين من الامتحان: " **ليس ماتخاف منه بأسوأ من الخوف** "؛ لأن الخوف هو أسوأ شىء يصاب به الإنسان، ويعوقه عن تحقيق مايريد، ولايصل إنسان إلى مايريد على جناح خوف أبداً.بل يظل المرء فى حالة يرثى لها إلى أن يتحقق ما يخشاه، فتزول حالته السيئة، وكأن ما كان يخافه أهون من ترقبه، وقديماً قالوا: **الموت ولا انتظاره.**

إياكِ والشكوى، فالشكوى قطار النساء السريع إلى جهنم، فأكثر أهل النار النساء ؛ لأنهن يكثرن الشكاة ويكفرن الإحسان، يعلل رسول الله ﷺ سبب أن أكثر أهل النار من النساء قائلاً: إذا أعطين لم يشكرن وإذا ابتلين لم يصبرن، ويقول: لو أحسنتَ إليها الدهر ثم رأتْ منك شيئاً قالت مارأيتُ منك خيراً قط . فالطريقة المثلى للابتعاد عن جهنم هو عدم ركوب هذا القطار والابتعاد عن الشكوى.

إياكِ أن تبيعى المبدأ مهما كان الثمن، إن من يبيع المبدأ يبيع نفسه، ومهما أخذنا من أثمان ثمناً لنفوسنا فقد بعناها رخيصاً. يكون كالتاجر الجشع الذى باع حلة رخيصة بثمن كبير ثم وضع المبلغ فى الحلة، وسلمها للمشترى بالمبلغ.

إياكِ والنميمة، فقد فضح اللهُ امرأة أبي لهب لأنها كانت تمشى بين الناس بالنميمة،وسمّاها حمالة الحطب. وفى النار يأتى النمّامُ يأكل لحمه ؛ لأنه كان باغتياب الناس يأكل لحومهم كما وصفه الله: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ (الحجرات).

إياكِ وإدعاء المرض بغية جذب الإشفاق، يقول ﷺ لا تتمارضوا فتمرضوا.وقيسى على ذلك: فمن يدعى الفقر يصاب به. كما ان إدعاء المرض حيلة لا تنطلى أبداً على من يعيش معك فى البيت، فلن يصدقها وسيحكم عليك بالإدعاء عندما يكون المرض حقيقياً وقيسي على قولة النبي ﷺ كل إدعاء، فإن كان إدعاء المرض يؤدي إلى المرض، فكذلك

ادعاء الفقر يؤدى إلى الفقر. فإياك والإدعاء سواء المرض أو الفقر أو الغباء فمن أدعى شيئاً حدث له.. فى الحواديت يحكون عن طفل صغير تعمد أن ينزل البحر ويصرخ على أنه يغرق. فإذا هرع الناس إليه ضحك منهم. ووجدوا أنه يمزح معهم. حتى جاءت مرة حقيقية. فصرخ فعلاً. وظنه الناس يمزح كعادته. وغرق المسكين ؛ لأنه عوّد الناس عادات ثم أخلفها.

ومن النكات اليهودية.أن رجلاً قابله أحدهم فضربه لكمة قوية. أغتاظ اليهودي. لكنه لم يرد الضربة بمثلها. بل أعطاه إحساناً. استغرب الضارب وقال للرجل: أضربك فتكرمنى. قال له : لأننا فى يوم عيد. وأرشده إلى بيت غنى. ذهب الرجل ففتح له الغنى الباب فلكمه الرجل متوقعاً أن ينال كرماً أكثر. فلم يفق إلا والخدم قد أشبعوه ضرباً حتى كاد يموت فى أيديهم. ولأن اليهود هوايتهم السرقة. فهذه النكتة مأخوذة من حكاية عربية لها أبطال محددون بالاسم. فقد شتم رجلاً معاوية وهو خليفة فحلم عليه. فكررها مع أحد أمرائه فأمر بقتله.فقال معاوية قتله حلمنا عليه.

ابنتى.. لقد رأيت صبياً صغيراً يسير فى يد والده. أتدرين قرأت فى وجه أبيه الجنة ؟ من بر الصغير لايملك أن يحبس دموعه. كنت أتمنى من كل من يشكو أن يرى هذا الرجل الصابر. إن كل شكاء لو رأى هذا الصغير لعلم أن الله أعطاه من النعم مالاً يتصور. كفاه نعمةً أنه رفع عنه هذا الابتلاء. وما أعظمها من نعمة..

٢

بنيتى.. إياك وفقدان الثقة فى الناس. مهما فعل بعضهم. فلا تنسى أنك من الناس. وأن الصداقة ليست مستحيلة بدليل صلاحيتك لتكونى صديقة لغيرك. وإذا أردت صداقة تدوم فابتعدى عمن لا يصلحون للصداقة. اسمعى مايقوله على بن أبي طالب لابنه: " **يابنى إياك إياك ومصادقة الأحمق. فإنه يريد أن ينفعك فيضرك. وإياك ومصادقة البخيل فإنه يقعد عنك أحوج ما تكون إليه. وإياك ومصادقة الفاجر فإنه يبيعك بالتافه. وإياك ومصادقة الكذاب فإنه كالسراب يقرب عليك البعيد ويبعد عليك القريب.** " وقد هممت أن أضيف إلى ماسبق الأناني الذي لا يرى إلا نفسه. فوجدت أن البخيل تغنى عنه. وأن علياً كرم الله وجهه قال فأجمع.

لكنى لا أهتم كثيراً بمن يكون الصديق. أنا أهتم بذاتي أنا. قبل أن تبحثى عن صديقة

رائعة. كونى أنتِ أولاً إنساناً رائعاً. عندما تكونى كياناً رائعاً سيطلب الجميع صداقتك. الصداقة مروءة. والمروءة أن تتعامل من وراء صديقك كأنه معك.

إن الفشل فى الصداقة لا يعنى استحالتها. ؛ لأنك يمكن أن تكونى قد وقعت فى أحد الذين حذر منهم الإمام علىّ ، ويجب ألا تقتلنى صدمة صداقة فاشلة. لقد كنت أتلقى الصدمة من غيرى. فلا أتبرم، ولا أشكو، بل أحمدُ الله. يكفى أننى لم أكن هذا الغادر. لا تتضايقي من غدر أو خيانـة. بل عليك أن تزهي بنفسك : لأنك لم تكونى من يفعل الغدر.

ابنتى.. إن أكثر ما يحبّبنا فى الصواب ويقوى تشبثنا به هو كراهيتنا للخطأ. إنّ يغدر صديق بي. فهذا أدعى للنفور من الغدر والتشبث بالوفاء. فألمى مما فعل يحوّلنى إلى رافض للتحلى بما يفعله. ويجب أن أحمد الله : لأنى لم أكن الغادر.

أسألك سؤالاً أيهما أنعم الله عليه الغادر أم من تلقى الغدر ؟ أيهما تختارين: الغدر أو تلقيه ؟. فلماذا يكون المتلقى للغدر أكثر آلما ؟ ألم يكن أولى به أن يكون أكثر حمدا مادام هو المنعوم عليه أكثر ؟؟!! أسألك سؤالاً آخر.أيهما أنعم عليه الله أكثر: قابيل القاتل أم هابيل المقتول ؟ أن أكون مظلوماً أفضل من أن أكون ظالماً. المظلوم له. والظالم عليه !

ابنتى يضايقنى الجحود. ولا يخففه عنى إلا التذكر أننى لست الجاحد.

ليس حتماً إذن أن ينجب الشيء السيء سيئاً. بل لو حدث فقد حكمنا على أنفسنا بأننا كنا الأرض الخصبة التى غرس فيها بذرته فنمت وترعرعت. إذن لابد أن نكون أرضاً ترفضه. تقول له هنا ليس المكان المناسب لك. المناخ هنا يرفضك. كونى أرضاً طيبة مهما دفن فى بطنها لا تنبت إلا طيباً. ولا تكونى مرآة لأفعال الآخرين. وإلا فأنت لا شىء. فالمرآة تبرز غيرها.

﴿ ٣ ﴾

أتدرين يا ابنتى، تحدث ثلاثةٌ بحادث إفك عن أم المؤمنين عائشة زوج رسول الله. تحدثوا عنها واتهموها فى شرفها وهى زوج رسول الله. ونزل القرآن الكريم يبرئ هذه السيدة العفيفة لتكون المحنة سبباً فى تشريفها. فقد شهد بعفتها رب العزة. وأصبحت قرآناً يتلى على الناس.

توضح هذه القصة نقطة هامة هى: إن المحنة قد تكون خيراً على صاحبتها. لكنى أريد من هذه القصة شيئاً آخر هو. فقد كان أحد الذين تقولوا عليها هو مسطح بن أثاثة. والغريب أن أبا بكر والد عاشئة كان ينفق عليه. فلما ظهرت براءة ابنته. حلف أبو بكر ليقطع عنه النفقة. فأنزل الله تعالى: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾. إلى قوله تعالى: ﴿ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ (١) ﴾ فلما سمعها أبو بكر قال: بلى نحب ذلك. وعاد إلى النفقة على مسطح.

﴿ ٤ ﴾

ابنتى. العلم هبة الله. فلا تكتمى الهبة الأولى فتحرمي الثانية، من يعطي ما معه من علم. يهبه الله معرفة جديدة. من يتشبث بمعلومته أشبه بالقصر المهجور. العلم رزق. ومن ينفق ما معه لا يموت جوعاً ، لأنه يُرزق غير ما أنفق.

ابنتى. لا يحكمك الآخرون ، حتى لا تكونى عبداً لهم. ولا أقصد فقط ألا تكونى أمة لأحد. بل أيضا أقصد أن تقاومي التبعية بشدة لدرجة ألا تفعلى ما تريدين من أجل ألا تنولي الآخر مايريد، قيل لي وأنا طالب احلق شعرك هذا. فى وقت كنت أنتوى أن أحلقه فعلاً. غاظتنى الكلمة. وقررت أن أتحدى وأرفض التنفيذ. بعدها اكتشفت أنى لم أتحد. بل عطلت إرادتى لكى لا أبدو فى مظهر من يطيعه. من يعاند نفسه ليهزم خصمه فقد مكّن خصمه ممايريد. إن فتاةً تتزوج بشخص لا تحبه ولا تريده كى تغيظ صديقة لها. أغاظتها لحظة وأغاظت نفسها العمر كله.

لا تندمي على مالٍ لم يأت لك. فكم من مصائب تنتظر حضور المال لتحضر هي أيضاً. شكا لي أحدهم قلة الخير، فقلت له: كم من الشر لم يأتك ؟ إذا زرعت شجرة فيجب أن تظلل مكانها. فمادمنا زرعنا شجرة فلابد أن تنبت فى كل قلب تمرين به. فمادمنا زرعنا شجرة فلابد إن لم تطرح ثماراً أن تطرح ظلالاً. اتركى لافتة تقول مرت من هنا دعاء. يقول على بن أبى طالب: "**خالطوا الناس مخالطة إن متم معها بكوا عليكم. وإن عشتم حنوا إليكم**".

---

(١) النور: ٢٢

﴿ ٥ ﴾

ابنتى.. إن أكبر كنوز الدنيا هى حب الناس، أليس من يحبه الناس يحبه الله. قلوب الناس مرآة تعكس رضا الله عن العبد، والحب - حتى حب الزواج - هو العطاء.

سأحكى لك حكاية سيرانو دى برجراك، هذا الرجل الذى ساعد آخر ليتزوج بمن يحبها هو؛ لأنه رآها تحب الآخر، ساعد الاخر ليكون فى شكل يعجبها، كان يكتب له الخطابات، فتزداد الحبيبة انبهاراً بحبيبها. ولما طلبت منه أن يتحدث مباشرة، وقف سيرانو تحت الشرفة يتحدث لها على أنه حبيبها، وبصوت لايحمل بصمة الصوت، بل يحمل فقط عمق المعاني التى ينطقها انطلق سيرانو يفيض فى شرح مشاعره، وانتهى اللقاء بأن وافقت على الزواج من خطيبها، ويشهد سيرانو العقد. وأثناء الزفاف جاء الخبر بوجوب رحيل فرقة سيرانو والعريس إلى الجبهة، فيخرجان إلى القتال، ويتحدى سيرانو الحصار الذى فرض عليهم، يخترقه ليرسل خطابات إلى الحبيبة باسم عريسها الذى سافر فى ليلة زفافه، ويضج الزوج من تلك التمثيلية، وينتزع الخطاب الأخير من سيرانو ويمنعه من إرساله، ويضعه فى جيبه، وتحضر حبيبته؛ لأنها لم تتحمل ابتعاده من روعة الخطابات، لكن القتال يبدأ ويكون أول القتلى هو الزوج، يحضرونه إلى الخطوط الخلفية، لتراه وتبكى، وتخرج من جيبه الخطاب، وينتهى القتال، لتعود العذراء إلى الدير، يتردد عليها كل يوم سبت سيرانو يحكى لها أحداث العالم الخارجي، أقام سيرانو صداقات مع أهل الدير، وظل هذا دأبه على مدى خمسة عشر عاماً لم يخلف موعده، حتى تعرض لمؤامرة، جماعة كادوا له وأسقطوا شجرة فوقه، وحمل إلى منـزله لا يقوى على الحراك ونصحه الأطباء بالراحة عدة أسابيع، لكن أيستريح واليوم موعده؟! يتحامل على نفسه ويلبس ملابسه فوق الأربطة الكثيرة، ويرتدى قبعته، ويرحل إلى الدير، ويتعمد ألا يظهر لها، كانت تقوم بالتطريز، استمرت فى عملها بينما استمر هو يتحدث كعادته، وكلما مر به أحد أشار إليه أن يكتم الأمر حتى لايلفت نظرها، ثم طلب منها الخطاب الأخير، وبدأ يقرأه أحست أن نبرات الصوت تعرفها، هى النبرات ذاتها التى سمعتها يوم الشرفة وأحبت حبيبها من خلال كلماته، نبرات عميقة تخلو من اللهجة، التفتت إليه، وجدته يقرأ وقد أرخى قبعته على عينيه، ووجدت الجو قد عتم لا يسمح بالقراءة، شدت الخطاب من يده، لم تجد فى الخطاب كلمات، زالت الكلمات بفعل الزمن، دهشت جداً، كيف عرف محتوى الخطاب

وهو لم يرهه. لقد أخذته من سترة زوجها، ولم يقرأه أحد. كيف استطاع أن يقول كل ما به دون أن يجد كلمة واحدة. وهو مغمض العينين. وباللهجة ذاتها التى عشقتها من خلالها حبيبها. الآن فهمت. هذا هو حبيبها الذى لم تحب سواه. وترملت عليه رغم أنه كان دائماً أمامه. لكنه كان قد بذل جهدا غير عادى ليحضر لها فى الموعد وهو مصاب. وكان عليه أن يرحل.لكنه يقف ليموت. فهكذا الأشجار لا تموت إلا واقفة.

كان سيرانو شجرة. تعطى فقط.. وترملت الحبيبة مرتين على حبيب واحد. ولم تدر أن السعادة كانت أقرب إليها دون أن تدرى.. كان بطلاً. فى مرتبة عنترة. وكان قريب الشبه بعنترة. الشاعر الفارس. الذى يحب ابنة عمة. ويقف فى طريقهما عائق. كان عائق سيرانو أن أنفه طويلة جداً.

ابنتى. هذا هو الحب فى اسمه الصحيح. العطاء. لو كل زوجين فهما هذا ما حدثت خلافات. لكن الإنسان يدخل الحياة كأنه دولة مستقلة. أى احتكاك على الحدود تبدأ المعركة. ما أجدرنا أن نفهم أننا لسنا دولاً ضد بعضنا بل أنامل متشابكة. لم ينظر سيرانو إلى أين حقه. بل حفر فى قلبه نهراً يتسع لها كلما اندفعت. لم يجعل صدره صخراً يكسر قرونها عندما تنطحه.

﴿ ٦ ﴾

ابنتى. مصيرك حتماً الزواج. فعليك بالطاعة. يقول رسول الله ﷺ : "**انظرى أين أنت منه فإنما هو جنتك ونارك**". ويقول: "**لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها**" ،ويقول: "**والذى نفسى بيده لو كان من قدمه إلى مفرق رأسه قرحة تنجس بالقيح والصديد ثم استقبلته تلحسه ماأدت حقه**". وقالت عائشة: "**لو تعلمن بحق أزواجكن عليكن لجعلت المرأة منكن تمسح الغبار عن قدمى زوجها بحر وجهها**"، وقالت امرأة سعيد بن المسيب: "**ماكنا نكلم أزواجنا إلا كما تكلمون أمراءكم**".

ابنتي.. إن الصفة السلبية قد تكون إيجابية. الانتحار كفر. لكن الانتحار ضد العدو قمة الإيمان. تبرج المرأة فى الشارع ابتذال. وتبرجها لزوجها طاعة. إن الأب قد يمسك سلاحاً ليقتل من يحاول أن يقترب من ابنته . لكنه مع الحلال يقيم الأفراح والليالى الملاح. ويقدم بنفسه ابنته إلى عريسها.

والبخل من تلك الصفات السلبية لكنه للمرأة صفة حميدة، لو كان المقصود المحافظة على مال الرجل هى صفة حميدة، لكن بشرط ألا تتجاوز مقدرة تلك الصفة حدود المرأة إلى التأثير على الزوج، وتكون هى غلاً يقيد يده عن الإنفاق والعطاء. بل يجب مع بخلها من وراء زوجها أن تكون عوناً له على التصدق والعطاء. فالبخل فى مطلقه غير مقصود، المقصود أن تكون بخيلة من أجل زوجها وليست أن تكون أنانية، تمنعه أهله لتبدده هى.

وفي المقابل يمكن أن تكون الصفة الإيجابية سلبية، فعزة النفس لا يأحد ينكر أنها من الصفات الرائعة، لكنها لو مورست على الزوج تصبح صفة سلبية ؛ لأن الزوجين ليسا اثنين، فلا ينبغى أن يكون بينهما جدار كرامة. ولايوجد رجل إذا كان رجلاً يقبل أن يمس أحد كرامة زوجته، وقد يغفر الرجل لمن يشتمه لكنه قد يقتل من يشتم زوجته، أبعد هذا تنصب المرأة كرامتها سوراً فى وجه زوجها ؟؟

وأخيراً، إنك تحملين نفساً طيبة، نقية، فحذارِ من دخان الآخرين. احرصى أن تقيسى دائماً درجة النقاء، فكم نبتعد عن أنفسنا بعض الشىء دون أن ندرى، وبمرور الوقت نجد أننا لم نعد نحن. ما أروع أن يقف الإنسان كل عام وقفة مع نفسه، ليرى أين هى منه ؛ ليردها لو ابتعدت وهى لا تزال قريبة. الطيبة والنقاء رصيد لك، فاحرصى.



(الكلمة العاشرة)

النبل دائماً

الكلمة العاشرة:

النبل دائماً

﴿١﴾

يحتاج الإنسان فى بعض الأحيان أن يضع له الناصحون معالمَ أو أضواءً ترسم له الطريق الصحيح، وأعتقد أن الصواب يمكن أن يتم بعدة معايير:

● **اعصى هواكِ، فمن يعص هواه فهو على الطريق الصحيح.**

● **افترضى وجود الناس**، فما تحجمين عنه أمامهم لا تفعليه وأنت بعيدة عنهم. وقد سُئلت مرةً: ما الصداقة ؟ فقلت أن تتصرف بعيداً عن صديقك كأنه معك. ومن كلام العرب: المروءة هى ألا تعمل فى السر ما يُستحيا منه فى العلانية.

● **انظرى إلى من تحتك**، فهذا طريق الرضا. من يتطلع إلى من فوقه يظل مهما نال يجد أعلى منه، فلا يرضى أبداً بحاله. ومهما حدث لك لن يكون أشد مماحدث لتلك المرأة فى يوم عيد الأضحى ؟ ذبح زوجها شاه، قال ابنها الأكبر لأخيه: أتريد أن أريك كيف ذبح أبي الشاه ؟ قال نعم، فذبحه، ولم يكد يرى دم أخيه حتى هرب إلى الجبل فأكله الذئب.

مهما حدث لنا لن نكون كعروة بن الزبير الذى أصيب فى شيخوخته بطاعون فى رجله، فقطعها من الساق ولم يمسكه أحد، ولم يدع ورده فى تلك الليلة، ولم يزد أن قال: اللهم إن كنت أخذت فقد أبقيت، أخذت عضواً وأبقيت أعضاء.



إسراء.. لاسمك حدثان مهمان، تسمى به سيدنا يعقوب فكان إسرائيل أى الذى مشى ليلاً إلى الله. ورحلة الرسول ﷺ إلى بيت المقدس والتى تمت بأمر الله.

إن الليل غير جميل، لكنه إذا حمل الخير أصبح جميلاً، ولم يحمل الليل خيراً من رحلة نبى الله، فأنت جميلة طالما أنت خير. أوبمعنى آخر ستظلين بعيدة عن الجمال إلا إذا

حملت الخير، ويزداد ترمومتر الجمال كلما زاد مؤشر الخير. فكونى شجرة خير. لو لم تثمر تنتج ظلالاً تقى الناس حر الشدائد.

ابنتى.. إن قلوب الناس أشبه بالأرض الخصبة التى لا يملكها أحد، مفتوحة للجميع. وأرى أن الإنسان الناجح الذى يستطيع أن يترك له فى كل أرض يمر عليها فى كل قلب يقابله زهرة لا تذبل. وتظل الزهرة على قيد الحجرة فى تلك الأرض إلى أن يقوم فلاحها بنفث ثاني أكسيد الكربون فى ذات الأرض. فلن تموت زهرتى التى زرعتها فى قلب إنسان إلا إذا فعلت معه فعلاً سيئاً، يحرق أرض قلبه، فيذبل الورد المغروس فيها.



كيف يكون الإنسان شجرة خير ؟؟

● إذا اشتركت فى عمل فاعتبرى نفسك مسئولة عن العمل كله. . مادام الإنسان سيموت فلا يصلح مخزناً، لا تحتفظي لنفسك بشىء. فالقبر بلا جيوب.

● الإنسان بين اثنين، نفسه والناس. إذا كان لابد أن يتحامل على أحدهما فليتحامل على نفسه، فكم وقف معها. وقتها بدلاً أن يكون لنا حبيب واحد داخلنا، يصبح لنا أعوان فى قلوب الناس.

● إن الشجرة تعطى من يمر بها، لم نسمع عن شجرة تخطف من المار بها ما تستطيع خطفه. وعندما تتوقف الشجرة عن العطاء يقطعها البستانى. كتب إيليا أبو ماضى قصيدةً عن تينةٍ حمقاءَ، آثرت أن تحتفظ بثمارها لنفسها، وأن تحرم الناسَ حتى ظلالها، فلم يجد البستانى منها جدوى، فقطعها ليستخدم خشبها وقوداً.

● الشجرة لا تموت إلا واقفة.

● النجاح يتحول إلى فشل لو استخدمناه ضد الآخرين. لا يكن من وظائف نجاحك الشماتة فى غيرك.

● لو استمعنا إلى هذا الرجل، بكر بن عبد الله المزنى: **إذا رأيت من هو أكبر منك فعظّمه، وقل: إنه سبقنى إلى الإسلام والعمل الصالح. وإذا رأيت من هو أصغر منك فعظّمه وقل فى نفسك: إنى قد سبقته إلى الذنوب. وإذا أكرمك الناس فقل هذا من فضل الله علىَّ لا**

استحقه، وإذا أهانوك، فقل: هذا بذنب أحدثته.

لقد حبا الله المرأة جمال الشكل، لكن يظل النجاح العظيم للمرأة أن تتحلى بجمال الجوهر، وإذا فشلت كانت أشبه بثمرة مخوخة. فالجوهر هو الأساس كما تقول ذات النطاقين أسماء: وهل يضير الشاه سلخها بعد ذبحها.. ؟؟ لقد ظل الناس يتحدثون بانبهار وإعجاب عن بطل غزوة بدر الذى قتل وحده بضعة عشر رجلاً من المشركين، وإن إصابته النافذة ستصل به إلى الجنة، لكن الرسول ﷺ يقول لهم هو فى النار، لم يكن مسلماً لقد كان يحارب من أجل قومه.

وحتى يكون الجوهر نقياً، فعليك بمقياس روعة الجوهر، ألا وهو النبل. والنبل هو الترفع، أن يتمتع الإنسان بأشياء عديدة على رأسها العفة، أن تسمو النفس حتى عما تحتاجه، وما أكثر ما نترفع عن الشىء، فيسعى الشىء إلينا. لقد رفض صلاح الدين الأيوبي أن يحضر مع عمه إلى مصر، لكن عمه أصر على اصطحابه معه رغماً عنه، ولم يكد يحضر حتى وجد عرش مصر فى انتظاره.

ابنتى.. إذا كان التعريف الإيجابي للنبل هو الترفع، فالتعريف الآخر: أن يكون الإنسان قلعة تستعصى على هجمات الصفات السلبية. وومن الصفات السلبية لصيقة الصلة بالمرأة، صفة الشكوى وعدم الرضا، وأنا أسميها الصفة القطار، لأنها تقود النساء إلى جهنم كما أخبر ﷺ . وإذا اهتممنا بما علينا لا بما لنا، نجونا من أقبح صفة، وهى الجحود. فالجحود كفر. والكذب أن يصبح الإنسان منفياً عن نفسه، فلا يكون هو، وهذه الصفات الثلاثة الشكوى والجحود والكذب هى مثلث العفن.

لكن ثمة صفات قد تكون قبيحة في سياق، وجميلة في سياق آخر، فالذل صفة سلبية تصل إلى المساواة بالموت، لكنه يمكن أن يكون صفة إيجابية، مثلما يصبح الانتحار - وهو كفر - صفةً إيجابيةً في سياق آخر، فالانتحار ضد العدو قمة الإيمان، تبرج المرأة فى الشارع ابتذال ومجون، وتبرجها لزوجها طاعة. إن الأب قد يمسك سلاحاً ليقتل من يحاول أن يقترب من ابنته . لكنه مع الحلال يقيم الأفراح والليالى الملاح، ويقدم بنفسه ابنته إلى عريسها.

لهذا فعزة النفس صفة عظيمة، لكنها لو مورست على الزوج تصبح صفةً سلبيةً ؛ لأن الزوجين ليسا اثنين، فلا ينبغى أن يكون بينهما جدار كرامة. ولايوجد رجل إذا كان رجلاً

يقبل أن يمس أحد كرامة زوجته. وقد يغفر الرجل لمن يشتمه لكنه قد يقتل من يشتم زوجته. أبعد هذا تُنصب المرأة كرامتها سوراً فى وجه زوجها ؟؟

ونصل إلى صفة البخل. ولاشك أن صفة البخل للمرأة صفة حميدة. لو كان المقصود المحافظة على مال الرجل هى صفة حميدة، لكن بشرط ألا تتجاوز مقدرة تلك الصفة حدود المرأة إلى التأثير على الزوج. وتكون هى غلاً يقيد يده عن الإنفاق والعطاء. بل يجب مع بخلها من وراء زوجها أن تكون عوناً له على التصدق والعطاء. فالبخل فى مطلقه غير مقصود. المقصود أن تكون بخيلة من أجل زوجها وليست أن تكون أنانية. تمنعه أهله لتبدده هى.

﴿ ٤ ﴾

إن الغاية من حياة الإنسان فى نظره أن ينشد السعادة والسعادة لا سبيل لها إلا الصواب. إن لمحة نبل تنير القلوب، ويمضى النبيل وقد حفر فى القلوب نهراً لا ينضب. الطريق إلى النبل هو التفانى. قد يطلب منى باحث كتاباً فى موضوع ما. أقدمه له فيشكرنى ويظننى مخلصاً. فى نظرى لا يكون هذا إخلاصاً لو كان عندى عدة كتب فى هذا الموضوع. فى مفهومي الإخلاص أن أبذل أقصى ما وسعى. وليس أن أفعل مايرضى به الناس. فإن كان الناس يرضيهم القليل فيجب ألا يرضينى إلا إعطاء الكثير. وإن كانوا لا يعرفون ما عندى فأنا أعرفه. فكن نفسك تُعط قدرك.

لم أفعل شيئاً فيه تنازل عن قيمة من أجل تحقيق مكسب إلا واستعصى على هذا المكسب. وما من مرة تشبثت بالمبدأ رغم إلحاح الجميع على المرونة خوف الكسر إلا وفزت بالمبدأ وعدم الخسارة معاً.

﴿ ٥ ﴾

إن الافتراض يمكن أن يكون أحد وسائل تحقيق السعادة. أعرف كثيرات لم يعرفن قيمة زوجهن إلا بوفاته. وأصبح ما كان يقول به وتعارضه أثناء حياته مقدساً. ماذا لو افترضت تلك الزوجة وفاته. ألم يكن سيرى منها تلك القداسة ؟؟ أكاد أجزم أن عمره كان يمكن أن يطول. لو رأى تلك السعادة. ولرد عليها بمثلها.

لو افترضت أن صديقتك التى فعلت معك فصلاً بارداً، قد ماتت. ستتسامحين. إن رحيل الإنسان

يخفف من عيوبه، بل وكم نتمنى لو يعود ونغتفر له أكثر مما فعل. يقولون: اعذر أخاك لا تفقده. وكان الشعبي يقول: **من استقصى عيوب إخوانه بقى بلا صديق.**

قد نتضايق من خطأ صغير، ونسخط ونلعن، من فشل صغير، فماذا لو ضاع إنسان، ابن أو أخ أو صديق ؟؟ إن كل ما يضيع من أشياء مادية لا يساوى شيئاً. انتصرت امرأة على زوجها وأخذت منه الشقة عنوة بحكم البوليس، لم يكد البوليس يمضى حتى دخل عليها أخو زوجها كالمجنون فقتل ولدها الذى مكّنها من الشقة، وتحول نصرها إلى فجيعة.

ابنتى.. إن السعادة من صنع أيدينا، لو وضعت النقاط على الحروف مضبوطة، لو تركنا مالله لله، ولو عرفنا أن عدونا هو نفسنا فلا ننساق وراءها.

﴿ ٦ ﴾

إن لذة العمل لا يعادلها لذة أخرى، وأفضل الأعمال كما يقول الإمام على: ما أكرهت نفسك عليه. ويقول المثل البلغارى: "**اعمل كأنك تعيش مائة سنة، وفكر كأنك تموت غداً**". ورب ذنوب كما يقولون لا يغفرها إلا العمل.

تقول إحدى الحكايات إن رجلاً كسولاً جداً ضج من تأنيب زوجته له على كسله الذى جعلهم فقراء، فتركها ومضى يطلب رجلاً حكيماً ليقدم له وصفة تجعله غنياً، وفى الطريق التقى بذئب جائع فطلب الذئب منه أن يسأل الحكيم عن العلاج للألم الشديد الذى يحس به في معدته ، ثم قابل شجرة تفاح فطلبت منه أن يسأل الحكيم عن سبب تساقط ثمارها الدائم، وفى طريقه صادف سمكة فى بحيرة عميقة، فطلبت منه بدورها أن يسأله عن دواء لألم حاد فى زورها تعانى منه من سبع سنوات.

ووصل الكسول إلى الحكيم: فقال الحكيم له: لقد التصقت جوهرة كبيرة بحلق السمكة وسوف تشفى بمجرد أن تزال الجوهرة، أما شجرة التفاح فإن جرة كبيرة ممتلئة ذهباً قد دفنت تحتها، سوف ينتهى ذبولها وتعود تحمل الثمار بمجرد استخراج الجرة. أما الذئب فلكى يبرأ عليه أن يلتهم رجلاً يمر به. فقال الكسول وماذا عن أمنيتى. ارجع ستجدها قد تحققت.

ورجع الكسول فقابل السمكة فأخبرها بما قال الحكيم، فألحت عليه أن يخرج الجوهرة من حلقها فتشفى، ويغتنى هو بالجوهرة. لكنه لم يحفل بها. فقد أخبره الحكيم

بتحقق أمنيته. وكذلك أخبر شجرة التفاح ورفض إلحاحها عليه بأن يخرج الجرة، يريحها ويغتنى. لكنه لا يلتفت إليها فهو ليس بحاجة إلى مال يحصل عليه بجهد بينما الحكيم قد وعده بالثراء دون تعب. ويذهب إلى الذئب فيخبره بالعلاج الذى قاله الحكيم. وهو أن يأكل رجلاً يقابله. فيهجم عليه الذئب ويأكله.



ابنتى.. كونى منشودة. بعيدة. كالأمل عندما يتحقق يموت. كثيراً ما أقول: إذا اشتد الوحل حولنا. فلنغرس فيه زهرة. سأحكى لك حكاية. عندى حكاية للصغار. وما أحوجنا أن نكون صغاراً. البراءة والطهر والصفاء..

صلى على النبى. كان فيه ملك ولا ملك إلا الله. خلف بنت واحدة. ماكانش لها شغلة ولا مشغلة إلا تقعد فى البراندة. إذا رأت رجلاً فقيراً قالت: ده من مراته. وإذا رأت رجلاً غنياً: قالت ده من مراته.

أبوها الملك قرر أن يزوجها لأفقر واحد فى المملكة عقاباً لها. وبحث الملك. فوجد شاباً تعيش أمه العجوز على خدمته. يجلس فى أرجوحة من القماش. وأمه تدفعها يمينا ويساراً. وتقوم على طعامه وشرابه وهو ملقى فى الأرجوحة. إذا أراد أن يشرب: قال:

- أمبو يامه..

ذلك لأنها لم ترزق إلا به؛ فخافت عليه. فعاملته هكذا منذ الصغر. فاعتاد عليها. ولم يجرب أن يفعل شيئاً. وقصرت هى حياتها عليه. تخدمه وتوفر له كل ما يحتاجه دون أن يتكلف النهوض من سريره.

وقرر الملك أن يزوج ابنته ست الحسن والجمال من هذا الشاب الذى لا يجيد فعل أى شىء. حتى الأكل والشرب .

وحمل العريس إلى عروسته فى قصرها الخاص. وهناك وكلت به من يأخذه إلى الحمام ليعتنى بنظافة جسمه. وألبسته ثياباً مناسبة. ثم أعدت له سبع عصى من الخيزران. وعندما طلب أن يشرب. طلبت منه أن يقوم ويسقى نفسه. وطبعا لم يعرف. قامت انهالت عليه بالعصى ضرباً وتبريحاً. فتململ يمنة ويسرة وحمل أعضاءه وقام ليشرب. ثم طلب طعاماً فكررت معه الصنع نفسه. وأخذت تطالبه أن يتعود على أن لايطلب من أحد معونة. واستمرت على هذا الحال

نحواً من أسبوع صار يحمله الخوف على أن يزاول أعماله ولوازمه بنفسه . بعد ذلك قالت له هيا إلى العمل، وأرسلته إلى عمل لا يفعل فيه سوى الحفر، ويعود فى المساء وعلى ثيابه آثار العمل. وهنا قالت له زوجته:

- ها أنت قد أخذت تسير فى درب الرجال.

وفى يوم أراد التاجر الذى يعمل عنده سى أحمد أن يسافر فعرض عليه أن يسافر معه، فاستأذن أحمد من سيدته،ومضى معه، وفى السفر كان التاجر ينام ويظل أحمد ساهراً، يخشى أن ينام فيخبر التاجر سيدته، وهو لا ينسى سياط ست الحسن، حتى أعجب به التاجر. ومرض التاجر فقال له: يابنى أنا لا وريث لى، وأنت شاب طيب، تجارتى لك، وأنا أحفظ ثروتى فى مكان، ودله على المكان، فوجد كنزاً ضخماً، فعاد به فرحاً إلى سيدته..

وهنا أمرته سيدته أن يحضر البنائين والمهندسين والعمال، فأشارت عليهم أن يبنوا قصراً ضخماً أعلى من قصر أبيها، وأن يصمموا مسجداً قريباً من القصر، وبعد أن تم البناء، علقت إعلاناً أن من يذهب للمسجد يأخذ خمسة دنانير، فانتشر الخبر فى كل مكان حتى وصل إلى الملك، فتحرى عن الأمر، وذهب لمقابلة صاحب القصر، فقابلته ابنته ست الحسن، فأخبرته أن زوجها سى أحمد هو صاحب القصر، وهنا قال لها الآن صدقت، فقر الرجل من امرأته وغناه من امرأته. وهنا خرج أحمد وقال للملك: ياملك الزمان،إن ابنتك لم تزل عذراء، فإن شئت أن تقبل بى صهراً لك فهذا شرف عظيم لى، وإلا فإننى سأظل خادماً مطيعاً لابنتك، فلها على فضائل كثيرة لا يمكن أن أنساها. قال الملك وهل أجد من هو أفضل منك ؟

وتزوجا على سنة الله ورسوله، وأقاموا الأفراح والليالى الملاح. وخلفوا منى وصلاح. وتوتة توتة فرغت الحدوتة.هكذا..ابنتى، أتمنى لك أن تكوني ست الحسن والجمال وأن تصنعي من سى أحمد هذا الأمير العظيم. فكما رأيت كله من مراته.

سأحكى لك حكاية ثانية، مرض رجل فجلس ابنه بجواره، فقال له أبوه: يامحمود يابنى وصيتى لك أن تتزوج رجلاً ابن رجل.

ومات الأب، ومضى محمود يجوب البلاد بحثاً عمن يفسر له وصية أبيه، وبعد سنتين قابل رجلاً يعمل فى بستانه هو وابنه الشاب، فنزل ضيفاً عليه، وأخبره بسبب تجواله، فابتسم الرجل وقال له: والدك كان رجلاً حكيماً ، يقصد بقوله تزوج رجلاً ابن رجل، أن تسد من يتزوجها مسد الرجال فى أوقات غياب الرجال، وفى العمل، وفى البيت، وفى الأزمات، وفى الوقت نفسه تحسب

حساباً لأبيها وتخشى غضبه وتنفذ أوامره.

قال الشاب: وأين أجد هذه ؟

قال الشيخ : طلبك متوفر عندى. أرأيت الشاب الذى كان يعمل معى. ذلك ابنتي.

قال الشيخ: الشاب الذى رأيته يعمل معى أنها ابنتى الشاب فى لباس وفى مكان الرجل. زوّجه من ابنته ثم سيرها معه وعاد بها إلى بيته.وعاشا معاً حياةً سعيدةً جداً ولا أحلى ولا أكمل.

عند عودته من عمله تنتظره واقفةً فتسخّن له الماء وتسكب من الابريق على يديه. ليغسلهما وتناوله الصابون وتقف له بالمنديل النظيف.وتقدم له الطعام اللذيذ.وتهيء له نوماً مريحاً.ولاينسى أن يدعو لوالده الذى أوصاه تلك الوصية.

وفى يوم لاحظت جارة عجوز علي الزوجة أنها لا تخرج بعد خروج زوجها من بيتها وأنها لا تحادث النساء ولا تتزاور معهن. فطرقت بابها وأبدت تعاطفها معها.وقالت لها:

ـ لا تظهرى له مغمضة العينين. وإلا تزوج عليك من أخرى. وإن لم تظهر المرأة شخصيتها فى بيتها أهملها زوجها. فسألتها الشابة:

ـ بالدلال عليه. إن عاد إلى البيت فى المساء فتظاهرى بالمرض. وإن طلب منك أن تقدمى له شيئاً فتظاهرى بعدم القدرة عليه ؛ ليجربه هو بنفسه..

فى المساء عندما عاد الزوج. لم يجد زوجته تفتح الباب بمجرد وضع يده عليه. صفق الباب وراءه فلم يجدها كعادتها تستقبله ببشاشة واحترام. فقال ياستار يادافع البلا.

ـ ماذا بك يابنت الحلال ؟

قالت:أنامتعبة اليوم. وظلت فى سريرها. وهو قام يجهز لنفسه الطعام. فى الصباح أردفها وراءه على الحصان. وعلى بيت أبيها. تركها هناك وقال لأبيها:

ـ أنت قلت لى إذا رأيت منها ما لايعجبك فأحضرها.

وأخبره بالحكاية. قال له نسيبه:

ـ اتركها وعد إلينا بعد شهر. لعل حالها ينصلح.

ومن الغد ألبسها أبوها ثوب العمل. وأنزلها معه إلى البستان. لتعمل معه في عمله الشاق. ولم تستطع أن تعترض. وجعلت تمنى النفس بعودة زوجها ليأخذها إلى البيت من جديد.

وعندما عاد زوجها بعد شهر، تركت ما بيدها وجهزت نفسها لاستقباله، لكنّ أباها قال لها: استمرى فيما أنت فيه وسيسبقنا إلى البيت، أليست حماته هناك ؟ لكن حماته لم تنس ما حدث لابنتها فلم تستقبله بالصورة اللائقة، وعلم الأب، فقال له اتركنا شهراً آخر. ومضى الزوج دون أن يكلم زوجته وجن جنونها.

وللمرة الثانية لم يجد من حماته بشاشةً، ولا استقبالاً حسناً، فأشار عمه أن يغيب للمرة الثالثة شهراً ثالثاً، وهنا أقسمت الابنة على أمها أن تحسن استقباله وأن تذبح له الدجاج..

وفى المرة الثالثة، لم تطأ رجلاه أرض البيت حتى هبت الأم من أجل ابنتها إلى الدجاج تمسك وتذبح وإلى أفخم الفراش تضعه تحته، والمساند تحت يديه وإلى الماء البارد تقدمه إليه، وباللسان الحلو استقبلته، وفى اليوم التالى قال الصهر:

- هيا خذ زوجتك ومع السلامة إلى بيتك.

وفى بيتها حمدت الله على أن استراحت من البستان ومن العمل فى البستان، وأخلصت لزوجها، وأغلقت بيتها عليها وهى تقول: الباب اللى بيجيك منه الريح سده واستريح، ومالى ومالى الناس وأنا وحبيبى مرتاحين.

وهكذا نتعلم درساً آخر، إن عمار البيت فى يد المرأة، وأنها تستطيع أن ترفعه عالياً، وتستطيع أن تهدم البيت على رأسها. وعليك أن تكوني ممن ينطبق عليه القول: : وراء كل رجل عظيم امرأة دفعته إلى العظمة..وحذار أن تكوني ممن يمكن أن يقال عنهن : وراء كل رجل عظيم امرأة لو لم توجد لكان أكثر عظمة.



(الكلمة الحادية العاشرة)

إذا نام الحزن لا توقظه

الكلمة الحادية عشرة:

إذا نام الحزن.. لا توقظه

﴿١﴾

يقول المثل الإنجليزى: "**إذا نام الحزن لا توقظه**" . وأقول مع كثيرين: إذا كان الحزن رجلاً لقتلته، إن من يهدينى الحزن يهدينى الموت. ويصفق الشيطان كثيراً عندما يرى الصداقة تنشأ بين إنسان والحزن.

بنيتى، لا تحزنى، فالحزن لا نريده وإن كان مهراً لكنوز الدنيا، الغد لله، فلماذا نحفر نافذةً دائمةً عليه. ؟؟ ربما نرى سواداً، لكن الحقيقة أن الله لا يسمح لأحد بأن يرى شيئاً، هذا السواد وهم صنعه الشيطان ؛ لأنه ليس من حقك أن تطلى على الحجرة. والوهم يصير حقيقةً لو اهتممنا به، كما تصير الحقيقة وهماً لو تجاهلناها.

للحزن ياابنتى رائحةٌ كريهةٌ تطرد السعادة. الحزن كالايدز يتسلل إلى جهاز المناعة، ويرقد فيه، فإذا هوجم الجسم بخطر جديد نشط جهاز المناعة ونشط معه الحزن، وأصبح الإنسان كله ذرات حزن ودموع.

ابنتى، لقد عاصرت الحزن كثيراً، كنت كالأسير، أتعرفين قصة السندباد والوحش الذى ركب ظهره، فظل السندباد يسير وهو يحمل هذا الوحش، والوحش يمسك به بأصابع من حديد، ولا مهرب للسندباد. هذا الوحش هو الحزن، فلما تمكنتُ من التخلص منه جريتُ بأقصى قوتى بعيداً عنه، الآن أشمُّ رائحته من بعيد، ولا أسمح له بالاقتراب.

الحزن كالبرد وأجسامنا يابنية ضعيفة، مع الحزن تتحول كلمات الناس العادية إلى أسواط، وتتحول ألسنة الناس إلى شفرة جارحة. فلا تغضبي ممن يحبك حتى لو جرحك، فهو لايظن أنه يمسك مشرطاً، وهو حقاً كذلك، العيب ليس فيه، بل العيب فى حزنك الذى حوّل جسمك إلى بنية ضعيفة، كل شىء قادر على التأثير فيها.

﴿ ٢ ﴾

عودى قوية، واثبتى لكل من ينتقصك أنك أكبر مما يتصورون، لقد كنت العام الماضى متألقةً متوهجةً، كلك حياة، اليوم أراك غيوماً، وحداداً، على ماذا ؟ إنك لم تفشلى، قد لا تدخلين كلية الطب ، لكن كم من زميلات لك السنوات السابقة قاتلن عليها وأفلتت منهن بنصف درجة، فهل فعلن مثلك؟ بل دخلوا كليات أخرى كتربية وآداب وتجارة وكلهن إصرار أن يحققن فى تلك الكليات شيئاً كبيراً وأثق أنهن قادرات. وأن الله يكون فى عون العبد مادام العبد فى عون نفسه.

من زمن انتهت عبادة الأوثان، فهل عادت من جديد تحت اسم كلية الطب ؟ وهل عباقرة مصر كلهم خرجوا من عباءتها. لقد رد الرسول ﷺ الطبيب، وقال: " **نحن قوم لا نأكل حتى نجوع وإذا أكلنا لا نشبع** ".

اكسرى هذا الصنم، واعلمى أن الثانوية العامة مجرد مباراة، وأن الكلية مباراة أخرى، وأن الحياة بعد الكلية مباراة ثالثة. إن التعليم فى مصر ليس مقياساً لذكاء، ولا هو ترجمة لقدرات، فلماذا الحزن على عدم التوفيق فى إحدى الجولات ؟! لقد انهزم محمد على كلاى، وانتصر بعد ذلك. وانهزمنا ومحونا بالنصر ما سبق، وانهزم الرسول ﷺ - وهو المنتصر وإن كره الكافرون - فى أحد، ليتعلم المسلمون أسس النصر.

الهزيمة تصبح درساً للنصر لو استوعبناها جيداً، لو لم نضع يدنا على خدنا، وتركنا الحزن يرسم حدوده علينا. انفضى هذا الحزن، فالحزن مثبط للهمم.

إننا لا نريد أولادنا أثواباً جميلة، نريد أن يكونوا ذوى جواهر أصيلة، دعونا لا نحفل بالظاهر. منذ أيام أراد سائق أن يفادى رجلاً، فانحرف إلى البحر. ومات كل من بالسيارة إلا السائق، هل السائق مجرم.. ؟؟ لايكون مجرماً ؛ لأن مقصده نبيل.

ابنتى، لا شأن لك بغد، ومَن مِن الناس يدرى بالغد ؟ إننا نريد منك أن تكوني فى مكان عالٍ، لكن من المستحيل أن يكون الثمن أن نفقدك.

قد تكون الجولة الأولى ليس فى صالحك، لكن الحياة أوسع من هذه النظرة الضيقة، والدنيا ليست كلها كلية الطب، فما أكثر الناجحين فى كليات أخرى ! وما كلية الطب بالجنة الموعودة، فكم من أطباء فاشلين. إن الكلية يابنيتى لا تعطى تفوقاً، إن جهد الإنسان فى

مجاله هو الذى يحدد قيمته. إن رئيس الجمهورية وزوجته ورئيس الوزراء وعدد كبير من الوزراء لم يدخلوا كلية الطب. فلتكن الكلية ما تكون. لكن احرصى أن تكونى الأولى فى كليتك. وقتها أنت العليا.

كم من عباقرة حققوا تلك العبقرية ؛ لأنهم اكتشفوا أنفسهم، أو لأنهم استفادوا من فشل مر بهم. المهلهل سيد ربيعة كان شاباً فاشلاً. لا هم له إلا النساء والصيد والخمر. لكن عندما مات أخوه اكتشف نفسه وأصبح بطلاً أسطورياً تتغنى به العرب. ربما لو لم يمت أخوه لظل تافهاً كما كان.

هناك فى حياة الكثيرين نقاط محورية. قد تكون السبب فى تغيير مجرى حياتهم. وكثيرا ما تكون تلك النقطة فشل مر بهم. فعصف بهم وكان هذا الفشل أشبه بانقشاع قشرة فوهة البركان لينطلق البركان بعد ذلك لا يوقفه أحد.

عودى إلى نفسك. وعودى إلى صفائك. فقد أصبحت ضعيفة جداً. كل شىء ولو صغير قادر على إبكائك. ملعون الهدف الذى يجعل طفلة صغيرة مثلك تصبح هرمة كأن على ظهرها مئات القرون.

يابنيتى.. الفشل آخر العالم. وآخر العالم أوله من الناحية الأخرى. إن السفح ليس آخر المطاف. فللسفح باطن !!. فاحذرى، يقول شامفور : " **اليوم الضائع كله هو اليوم الذى لا يضحك فيه الإنسان** " . فهل مازلت تعرفين شيئاً اسمه الضحك أو السعادة ؟

﴿ ٣ ﴾

إننا نعيش مرة واحدة. فلن نقضيها حزانى. أكاد أجزم أن الحزين عندما يموت يعض يديه ندماً فى قبره. إن الله يهبنا الحياة لنحياها لا لنزهد فيها. إنك تشترين بالحزن اللاحياة. فماذا تقولين ؟ لا تقولى شيئاً. بل اسمعى لما يقول بيلنجز: " **إن أفضل دواء لمعالجة الروماتيزم هو شكر الله تعالى على أنه ليس داء الصرع** " . إن الله يبتلى الإنسان بالمصيبة فإذا تبرم ظل يواليه بها. لقد أعطانا الله ملايين النعم ويكفى أننا لا يمكننا أن نحصيها. فإذا حجب عنا نعمة واحدة نحزن ونغضب. وقتها لابد أن تحجب نعم أخرى لكى يفيق هذا الإنسان وينتبه أن النعمة التى حُجبت كانت شيئاً طفيفاً. فإذا لم ينتبه كان لابد أن يكثر حجب النعم حتى ينتبه.

أعرف كثيرين ظلوا يشتكون، وتتوالى المصائب، ولم تعد الناس تسمع لهم، لكنه عندما عاش فى مصيبة حقيقية اكتشف أنه كان فى نعمة.

شكا لى رجل بسبب عدم ربحه، فقلت له لا تدرى ماذا رفع الله عنك مقابل ذلك، لعل الله أفقدك مالاً، وترك لك ابناً.

أتدرين ياابنتى كلما خسرت شيئاً، تصورت أشياء أخطر يمكن أن أخسرها، وقتها أحمد الله، بل أضحك من المصيبة، وقد يتعجب من حولى لذلك، لكنهم لا يدرون أننى تصورت ما هو أبعد، ووجدت أن الله حمانى منه.

ابنتى، نسمع عن حوادث قطارات وسيارات، يموت فيها الكثيرون، لماذا لم نكن فيها؟ أليس رحمة من الله بنا، أسمعُ عن أطفال تتعرض لحوادث ما الذى يعصم ابنى منها ؟ يقع سلك كهرباء على صبى، فى بلاد أخرى تقع صواريخ على بيوت وتدمر كل من فيها. ألنا فضل أن يتجنب أولادنا هذا المصير ؟؟

ويقف الطفل الصغير ذو العامين بجوار أبيه الذى يعمل أمام المنزل المطل على السكة الحديد، ينشغل الأب بعمله، ويحل الظلام، ويفتقدون الصغير، وعلى ضوء الكشافات يجدون الدماء على القضبان، لقد تسلل دون أن يحسوا ليلتهمه القطار، كلما تذكرت تلك القصة وأنا أسكن مقابلاً له، أقول كم مضى طفلى الذى يماثله فى العمر إلى خارج البيت، فهل كل خسارة الدنيا يمكن أن تساوى تلك المصيبة التى رفعت عنى.

لو نظرنا للمصيبة التى جاءتنا نجدها تغطى الكون، لكن لو نظرنا إلى حجمها على خريطة المصائب التى يمكن أن تصيب الإنسان لن نجدها شيئاً. ودوماً أردد: إننا نحمد الله لو وقعت سيارة بنا ونجونا، لكن أليست كل لحظة تمر دون أن تنقلب السيارة هى نجاة من حادثة ؟؟ فلماذا لا يدوم حمدنا فى كل لحظة تخلو من حادثة ؟؟ ما المكسب والخسارة ؟ لا أحد يدرى أين المكسب ؟ هل المكسب فيما يظنه مكسباً ؟ أم أن الحقيقة عكس ذلك ؟ وماذا نقول فى قول الله عز وجل: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ ؟؟؟ ألا يعنى ذلك أن الخير قد يكون فيما نكره ونحن لا ندرى ؟؟

يوماً خرج صهيب الرومي من مكه يطلب الهجرة إلى المدينة، وطاردته مكة، تطلب منعه عن الهجرة، لقد جاءها فقيراً، واليوم يطلب البعد عنها غنياً. فوقف لهم، يهددهم بسهامه ويذكرهم ببراعته فى الرمي، ويعرض عليهم أن يتركوه لحال سبيله على أن يخبرهم

بموضع ماله الوفير.ويوافقون ويترك لهم ماله ويذهب إلى المدينة المنورة ليلقاه رسول الله ﷺ فلم يخفف عنه، ولم يقل له يعوض الله عليك ما فقدته، بل قال له ربح البيع، ربح البيع. ماحدث ، قد يعني فى الظاهر خسارة، لكنه كان فى نظرة الرسول ﷺ الشاملة الرحيبة مكسباً وربحاً. أننا لا نعرف أين الخير ؟ فلماذا نحزن على الخسارة ؟

﴿ ٤ ﴾

تعالى أحكى لك حكاية، يحكى أن رجلاً تزوج امرأة، وكانت المرأة تتمنى أن تنجب بأى شكل، ظلت تدعو الله أن يهبها طفلاً، فلم يستجب، فبلغ بها الزهق أن دعت الله أن يهبها ولو فأرا، فاستجاب الله لها، وأنجبت فأراً.

أما زوجها فقد رضى بقضاء الله وحمد الله عليه، وكبر الفأر، وفى يوم جاء اللصوص إلى بيتهم لسرقته، وكان الفأر فى شق يسمع حديثهم، فطلب من أبويه أن يشعلوا الموقد ويضعوا مسامير على النار، وجلس الفأر فوق الجدار ومعه المسامير المحماة، وكلما دخل لص أسقط الفأر المسمار على قفاه فولوا هاربين.

وقرروا الانتقام من الفلاح، فذهبوا إلى القاضى وادعوا أن أرض الفلاح ملكهم ؛ لأن الفلاح كان لا يحتفظ بوثيقة تثبت ملكيته. والناس تخشى اللصوص فلن يشهد أحد معه، فطلب الفأر أن يتكلم: فقال هؤلاء عبيدنا، وطلب القاضى منه الدليل، فقال انظر إلى قفا كل واحد منهم ستجد علامة، وبالفعل تأكد القاضى من ذلك، فقال لهم اذهبوا مع سيدكم الفأر ، واعملوا فى أرضه فأنتم عبيده، ومن حقه عليكم أن يلف أى واحد منكم فى حصيرة ويشعل فيها النار.

مما سبق نفهم أنه ليس بالشكل يكون الربح، فالفأر ظاهرياً يبدو مصيبة لأهله، لكنه كان نعمة. أى أنه من الممكن جداً أن يكون الطريق إلى العظمة ليس دائماً فى قطارات الدرجة الأولى، لكن المهم أن نصل إلى محطة العظمة .

﴿ ٥ ﴾

ابنني إن الله يهب الإنسان السعادة، لكنه قد يضيّع عمره كله فى الشكوى وعدم السعادة فلا يراها واقفة تمد يدها إليه. فى الأساطير اليونانية يحكون أسطورة باندورا

Bandora أول امرأة، وهبت كل جميل، وأُعطيت صندوقٌ، وطلب منها ألا تفتحه. لكن التطفل يغلبها، وتفتح الصندوق ؛ لتخرج منه الأمراض والهموم وكل شر يصيب الإنسان، بعدها أصبحت حياة الإنسان كئيبة، ولولا أنها سارعت بإغلاق الصندوق لكان كل البشر يسارعون إلى الانتحار ؛ لأن آخر ماكان فى الصندوق هو اليأس. حبست اليأس، فأصبح الأمل هو عونها على ما جلبته على نفسها. السؤال هنا. ألم تكن تعيش قبل الصندوق سعيدة ؟ فلماذا أرادت فتح الصندوق ؟؟ إن الإنسان لا يدرى بما يمتلك إلا بعد أن يفقد.

أسطورة أخرى يونانية تتحدث عن شخصية أكتايون Actaeon ، هذا الصياد العظيم الذى خرج إلى الصيد بكلابه، ومضى يتنزه، فقادته قادماه إلى حيث تستحم ربة الصيد أرتيمس Artemis أخت أبوللو، لتراه ويتملكها الغضب لتمسخه غزالاً، حتى لا يحكى أنه شاهد أرتيمس، وبكى أكتايون، ماذا يفعل ؟ أيعود إلى قصره الملكى ؟ أم يختبئ فى الغابات ؟ وبينما هو يفكر كانت كلابه الوفية التى تبحث عنه، تجرى عليه، كانت الكلاب تبحث عنه، لكنها فى بحثها عن سيدها هاهى تجد فريسة، جرت إلى الفريسة، واضطر أكتايون أن يهرب منها، كان يريد أن يقول هلم أنا أكتايون ألا تعرفوننى؟؟، لكن ياللأسف لا يستطيع الكلام، وأيضاً لا يستطيع الهرب حتى النهاية، أنشبت كلابه أسنانها فى جسده وهصروه فلم يتركوه إلا ممزقاً، وانطلقت الكلاب بعد ذلك فى رحلتها المضنية فى البحث عن سيدها.

السعادة قد تكون فى أيدينا دون أن ندرى..

ولم تكن السعادة يوماً فى المال، ففي الأساطير أن ثمة رجلاً وُهب قدرة أن يحول كل شيء يمسكه إلى ذهب ، ليبدأ رحلة شقاء حقيقية ؛ لأنه استعصى عليه أن يأكل أو يشرب ؛ لأن كل شيء يلمسه يتحول إلى ذهب، واستعصى عليه أن يصافح أحداً حتى لا يتحولوا إلى تماثيل من ذهب، وهنا توسل للآلهة أن يقبضوا تلك الهبة الذهبية اللعينة .

وليست السعادة فى الذكاء، فقد يهب الله مع الذكاء عناداً ليصبح الذكاء نقمة، أتدرين ؟ لقد كان عمرو بن هشام أرجح أهل مكة عقلاً ، وكان يقدمونه ويبجلونه، بل لقد أطلقوا عليه كنية أبي الحكم لرزانته وحكمته، وتمنى الرسول لو يسلم هذا الرجل ليعز الإسلام، ودعا الرسول دعوته الشهيرة اللهم أعز الإسلام بأحد العمرين، عمرو بن هشام

أو عمر بن الخطاب، واستجاب الله للدعوة فأسلم عمر وبقى عمرو بن هشام يصر على الكفر، وتمنعه عنجهيته وتكبره من الدخول فى دين يدرى في دخيلته أنه دين حق. وهنا يسلبه الرسول لقبه الذى أشتهر به ويطلق عليه لقباً يصير علماً عليه يسميه: أبا جهل. وحقاً إن الذكاء الذى لا يوصل صاحبه إلى الطريق السليم ليس إلا غباء مطلقاً.



(الكلمة الثانية العاشرة)

امرأة عاقلة = بيت سعيد

الكلمة الثانية عشرة:

امرأة عاقلة = بيت سعيد

ابنتي..

هذه كلمة خاصة جداً، لطبيعتك المتميزة عن كل اللاتى كتبت لهم، فأنت مخطوبة وتنتظرين الزفاف. ولهذا آثرت أن تكون الكلمة روشتة للحياة الزوجية السعيدة.



فى البداية، أرى أن الحياة الزوجية يعتمد نجاحها على الجهد المبذول فيها من كلا الطرفين، وما أكثر الفتيات اللاتى يترددن كثيراً في الموافقة على العريس ؛ لأنهن يردن قبل الموافقة أن يشاهدن حياتهن معه على شريط فيديو قبل الزواج، وغاب عنهن أن هذا الشريط من إخراج اثنين، المرأة أحدهما، أى أن الشريط يتبلور حسب دور المخرجة. فهى ستلعب دوراً هاماً فى تحديد روعة هذا الفيلم أو عدم روعته. وأرى أن المرأة تستطيع أن تجعل الرجل كما تريد لو اعتبرت أن الحياة الأسرية معركتها وأنها يجب أن تقاتل لإنجاحها. لأجل هذا، كنت أنصح الفتاة إذا تقدم لها زوج معقول بأن تقبله، وأرى أن الزواج كالنهر، وأن كثيراً من الفتيات لديهن عقدة الخوف من المياه، مثل هؤلاء فى حاجة إلى دفعة ؛ لأنها بمجرد ما تلقى فى المياه ستألفها وينتهى خوفها. مثلها مثل التى تصرخ فى هيستريا قد تكون صفعة على وجهها سبباً فى أن يعود لها العقل والهدوء.

الحياة مباراة، لن يفوز فيها الإنسان إلا بجهده فيها، ولن تعرف المرأة أن هذا الرجل كان من حسن حظها أو العكس إلا بالحياة الفعلية. مع الأخذ فى الاعتبار أنها تلعب الدور الأكبر فى نجاح تلك المباراة أو فشلها، ولهذا أرى أن المرأة يجب عليها ألا تتردد، وأن تقبل أول حظها. وأن تثق أنها تلعب دوراً كبيراً فى تحديد هذا الحظ.وقد يقول قائل، فماذا لو كان هذا الحظ الأول سيئاً، وأقول وماذا لو كان حسناً ؟ مازلنا نسمع عن نساء كثيرات ترفض شاباً، ثم يصبح الشاب يشار إليه بالبنان. مَن منا يعرف ما سيحدث ؟ إن المرأة لو أُعطيت إنساناً تربيه على يدها ما خرج كما تريد، وقد تختار إنساناً وترضى عنه ؛ لأنه يظهر فى فترة الخطوبة كأحسن ما يكون، ثم بعد الزواج تكتشف أنها تزوجت شخصاً آخر

لا علاقة له ألبتة بما عرفته. لقد ربّي سيدنا جبريل موسى السامرى، وربّي فرعون موسى بن عمران فماذا حدث، أصبح موسى الذى رباه جبريل كافراً، يخترع لقومه العجل ليعبدوه من دون الله، وأصبح موسى الذى رباه فرعون مرسلاً.

وأرى أن الزواج حياة مغلقة قد تنجح أو تفشل، ولا أحد يضمن نجاحها أو فشلها حتى لو كان الزوج ممن يشهد له. فقد فشل زواج ربيب بيت النبى، زيد بن حارثة، رباه النبى وكانوا يسمونه زيد بن محمد، وخطب له ابنة عمته زينب بنت جحش، جدها عبد المطلب فهى هاشمية، وفشل الزواج، لا أحد يضمن شيئاً قادماً.

أعرف رجلاً تزوج، وذهب أهل العروس لزيارته فى الصباحية، لكنه لم ينهض من نومه. فقد مات بعد أن قضى ليلة مع عروسه كانت كفيلة أن يودع فيها ولداً، وعاشت الأرملة الصغيرة حياتها لابنها واكتشفت هذه الأرملة أن رسالتها فى الحياة التى أعطتها قيمةً ومكانةً بدأت بوفاة الزوج، عندما صمدت رغم جمالها وشبابها لكل الخاطبين وتفرغت لتربية ابنها. وكم من نساء عاديات تصبح لحياتهن رسالة بموت زوجهن وتفرغهن لتربية الأولاد. عندما يكبر أولادها وتفرح بالثمرة التى تعبت فى رعايتها. لو عرض عليها أن تعود حياتها ثانيةً لقررت أن تختار الحياة ذاتها، وربما لو عرفت أن الذى ستتزوجه سيموت لرفضت الزواج. من رحمة الله بنا أن يحجب عنا الغد وما فيه.

قد يكون من غير اللائق أن أكتب لعروس عن وفاة زوجها، لكن الله.. الله.. !! لو كل امرأة خشيت كل ليلة أن يضيع هذا الزوج من يدها، إذن لعضت عليه بالنواجذ. لو كل امرأة جال فى خاطرها أن هذا الزوج المرهق الذى يسمعها كلاماً غير جميل سيرحل، لجعلت خدها مداساً له كما يقولون. لو سألت كل امرأة نفسها ماذا يحدث لها بعد وفاته، لعلمت قيمته، إن الرجل يقرأ نفسه فى عين امرأته، فما ضرها لو جعلته كبيراً.

إنها مباراة يمكنها فيها الفوز بمدى جهدها وكياستها ولباقتها وذكائها، ونجاحها فى أن تتجنب المواجهة، بينما أرى أن أعظم مواهب المرأة المصرية هو تصعيد المواجهة أو اختلاقها. مباراة تقتضى قراءة أرض الملعب جيداً، مع الاجتهاد بكل الطاقة لمنع أن يتحول زميلى إلى خصم.



بعض النساء ترى أن من الكرامة ألا تفوّت شيئاً لعريس الغفلة، وأن تقف واحدة بواحدة، ولو شتمها تشتمه، وأرى أن هذا غباء، فقد يصل الأمر إلى ضربها. وتنتهى جلسة الرجالة بعودتها

إلى المنزل، ولا حق لها ؛ لأنه قال ضربتها عندما شتمتنى، ترجع إلى بيتها بعد أن سقط أحد حصونها المقدسة، وتجرأ زوجها أن يخوض فى أرض لم يكن يجرؤ على خوضها.

المرأة الذكية التى تتجنب أن تدفع زوجها لاقتحام حصون لها. فلا يتجرأ على سبابها أو ضربها ؛ لأنه لو فعل لأصبح دخول هذا الحصن مرات عديدة شيئاً مألوفاً وسهلاً. المرأة الذكية لا تصعّد مواجهة ؛ لأن الرجل أثناء المواجهة يكون كصاحب الأرض الذى يقاتل لاسترجاعها، هو يؤمن أن من حقه عليها الطاعة، فهو فى المواجهة يقاتل عن إيمان بحقه، فالمعركة فى صالحه فى النهاية . ولاتلوم المرأة إلا نفسها لو سمحت له أن يفعل هذا، ماضر امرأة فى لحظة هياج زوجها لو انكسرت له ؛ ؛ لأنها لو تصلبت لكسرها.

إنها ترى أنه يجب أن يتقرب إليها، وتغضب لو لم يفعل، ويضايقه غضبها، فيمعن فى النفور والابتعاد. بينما أرى أنها يجب أن تتقرب إليه، قد يكون الحب سياسة، وقد يكون الثقل صنعة قبل الزواج، لكنى أتحدث عن حياة زوجية حدثت بالفعل، الثقل فيها ينزل على رأس المرأة. تقربي إليه، كأنه رجل تتمنين من الله أن يكون زوجك، ماضرنا لو تصرفت معه بعد أن وهبك الله إياها كأنه مازال أملا بعيداً، أسعى إليه وأدفعُ الغالى فى الوصول إليه.

أعجبٌ لزوجة تجد أخرى تسعى إلى زوجها وترمى حوله حبائلها، وتظل هى كأبى الهول لا تحرك ساكناً،وترى أنه يجب أن يدافع وحده عن حياتهما، وتقف تنتظر على الشط، لترى مكانتها عنده، إن المعركة لا ينتصر فيها متفرج. بل ينتصر فيها من يبذل الجهد ليحول دفة المعركة لصالحه. إن الرجل الذى يغرق فى حياة من المشاكل ويجد أخرى ترمى له بحبال الإنقاذ، لو وجد زوجته ترمى له حبلاً من ابتسامة لتعلق بحبل زوجته. لكنها تخوض معركة داخلية بينها وبين نفسها، سيقاوم لأجلى، أم ضاعت مكانتى عنده، لا تدرى أنه فى تلك اللحظة يحتاج يداً تمتد إليه. إن التدريب يروّض وحوشاً، ويجعلها أليفةً مطيعةً، ألا يحقق تدريب منتظم مع رجل يريد أيضاً السعادة ما تريده المرأة من حياة هادئة ؟إن المرأة التى تتنازل عن كرامتها أمام زوجها، لا تدرى ماذا يفعل ذلك فى زوجها، ينتابه شعور غريب، استعداد أن يكون حماراً تركبه هذه المرأة وتهز رجليها.



ابنتى.. إنك مقدمة على حياة جديدة مع رجل لم تتعودى عليه، ولو كنت تعودت بعض

الشيء عليه فى فترة الخطوبة. فبعد الزواج سيتغير ؛ لأنه فى فترة الخطوبة مقبل بكل جوارحه إليك، يحاول أن ينهى عمله بأسرع ما يمكن ويلبس أجمل ما عنده ليحضر إليك، لكنه بعد أن حضرت إلى بيته، يبدأ عمله من أجلك، إذن هاتين حياتين مختلفتين، حياة يقبل عليك فيها، وأخرى ينطلق من عندك.

واعلمى أن المرأة تشيخ قبل الرجل، والمرأة التى تتبع سياسة حقى وحقك، لا لها ولا عليها، عندما يولى عنها الشباب والجمال، يجد زوجها نفسه غير مديون لها بشىء فينطلق إلى غيرها. أما الزوجة العاقلة فهى التى تجعله دائماً مديوناً، تجعل لها رصيداً عنده من حسن الأعمال، حتى لو كبرت، خجل أن ينصرف عنها ويقول لنفسه عيب عليك تأكلها لحماً وترميها عظماً ؟؟ لكنها لو تعاملت معه بطريقة حقي وحقك، وأخذت حقها منه أولاً بأول، سيرميها حتماً بعد أن تصبح عظماً.

لو كنتِ جميلةً شديدة الجمال، وهكذا أنت، فقد يكون زوجك من الأزواج الذين يغيرون، وقد تكون تلك النقطة سبباً فى كثير من المشاكل، العقل يقتضى منك أن تفهمي زوجك، ادرسيه، لو كان يغير، فاجتهدى أن تلافيه هذا الأمر، تصرفى من ورائه كأنه يمشى معك.

إن الزوج كالملعب الذى سألعب عليه مباراتى، فيجب أن أدرس طبيعة الملعب الجغرافية لكى أتمكن من السير فى طريقى دون معوقات، يجب عليكِ دراسة الخصائص النفسية له، متى ينفعل ؟ ما الطقوس الخاصة به ؟ نعم لكل إنسان طقوس خاصة. فاحرصى على تحقيقها له.

﴿ ٤ ﴾

إذا دعاك إلى دستور للحياة فلبى. ماذا لو كان هناك يوم فى الأسبوع أو الشهر أو السنة لتصفية الخلاف، أعرف زوجين اتفقا على تقسيم حياتهما إلى دورات، كل دورة منها يكون على أحدهما الدور ليبدأ الصلح.

ولى قصة اتفق العريسان ألا يبيتا ليلةً مختلفين وأقسما على ذلك مهما كان السبب، القصة هي **السعادة اسمها مصطفى**: وفى مرة تعرضت لموقف سخيف جداً منه، ولأنها أقسمت على عهد انتهى الخلاف فى تلك الليلة رغم أنه خلاف يمكن أن ينتهى بين أى زوجين إلى طلاق. والقصة كاملة فى

نهاية الكلمة. لم أشأ أن أثبتها هنا حتى لا يأخذنا جوها عن الجو النفسى للكلمة.

وأنا أقترح عليك عهداً. إذا حدث بينكما شيء أن تقبلى رأسه. ثقى بعد أن تفعلى سيزول كل ما بينكما أيا كان المخطئ والله لو كان رجلاً خفيف الظل ووضع جاز فى رأسه !!

اختراع صغير يمكن أن يمتد إلى الأبد. حتى بعد أن يكبر الأولاد لقاء دورى وليكن كل شهر. وليرأسه أحدكما بالتناوب، شبه محكمة لتصفية الخلافات أولاً بأول. وقتها لا تتسع الهوة. ولا تتجلد الصفات السخيفة وتترسخ. من السهل كشط كل صفة سلبية وهى مازالت جديدة ؛ لأنها أشبه بقشرة خفيفة. لكنها لو تحولت إلى طبقات فقد تصبح أرضاً جديدة.

شاهدت فى أحد الأفلام الأمريكية فتاة تركها صديقها أو لنقل خطيبها. فجلست فى السيارة تقول له: قل ورائى. أقر أنا فلان الفلاني أننى لن أترك فلانة وحدها أبداً. وردد الشاب وراءها هذا العهد الأشبه بيمين الأطباء أو تولى المناصب الكبرى.

فى مصر وحدها ورثنا قانوناً أن الرجل يكون خائناً لو تزوج على زوجته. رغم ما قاله الشرع عن حقه فى الزواج بأربعة. وفى الدول العربية لا ترى المرأة غضاضة فى تزوج الرجل عليها. لماذا ؟ لأنها ورثت ميراثاً اجتماعياً يبيح ذلك ويتقبله ويتكيف عليه. لكن المصرية فقد تعودت أن زوجها لها وحدها. وأنه لو تزوج عليها فهذه هى الطامة الكبرى. ويصبح الرجل خائناً ويصبح من الحلال إبادته ربما قبل أن يفعل فعلته ويتزوج عليها.

يرجع الإمام ابن كثير هذه الخصوصية المصرية إلى ميراث قديم يرجع إلى الفراعنة وعهد فرعون موسى. فيقول أن فرعون عندما خرج بملأ مصر وطارد بنى إسرائيل وأنقذ الله نبيه من فرعون بمعجزة شق البحر. غرق فرعون والملأ. وهنا أصبحت نساء القصور بلا رجال. وكل الرجال الذين فى منزلة علية القوم المناسبين لهن اجتماعياً غرقوا والحمد لله. وهنا اتجهت نساء الصفوة إلى الزواج بالخدم. وأصبح الخادم كل أمنيته أن يقع اختيار سيدته عليه لا على زميله. ولعل العصمة لو كان وقتها عصمة تكون فى يدها. فكان الخادم بالطبع مطيعاً حتى لا تغضب عليه سيدة القصر وتبدل به آخر. من هنا نشأ جبروت المرأة فى الدار المصرية وأصبحت كلمتها هى السائدة. وتوارث المصريون هذه الطبيعة جيلاً بعد جيل. لكن بعد أن خفتت حدتها بعض الشيء. فالمرأة هى المسيطرة. ولا يهب الرجل للدفاع عن شكله إلا إذا ظهر الأمر للعيان.

نخلص مما سبق. أن المرأة هى سى السيد. ومنه لله نجيب محفوظ بفيلمه الذى قلب الأوضاع

وأتهم الرجل بأنه سى السيد. وانساق الجميع وراءه. ورحم الله عبد الفتاح القصري وهو يقول تنزل المرة دى. لقد شاهدت مئات الأفلام المرأة فيها هى السيد. لكن هذه الأفلام لم تلفت النظر ؛ لأن هذا هو الواقع وماذا فى الواقع يثير الانتباه ؟ وجاء فيلم واحد يتهم الرجل بأنه سى السيد وأصبح هذا هو المسلم به وكأنه الحقيقة المجردة. ونست الناس واقعها. ويبدو أن السبب فى ذلك يرجع لأمرين استغلت المرأة هذا التزوير لتكتسب حقوقاً أكثر. وفرح الرجل بالفيلم فهو تنفيس عما يحس به من كبت. وكان الفيلم أشبه بفيلم عمله اليهودى عن جبروت العرب. وفرح الاثنان به. فاليهود استغلوا الفيلم للمطالبة بمزيد من الحقوق. والعرب فرحوا بالفيلم ؛ لأنه يعوض انكساراتهم المتكررة ويشعرهم بالنشوة.

ما يعنينى هنا إذن ليس مَن سى السيد ؟ فما أريده أن يصبح البيت هادئاً سعيداً وليكن مَن يكون السيد. الذى يعنينى أنه من قديم الأزل والمرأة المصرية وحدها دون غيرها من نساء العرب لا تقبل الضرة. فهى تؤمن أن لزوجها الحق فى امرأة واحدة. كما أن لها الحق فى رجل واحد. وهنا أرى عليها مسئولية أكبر لكى يتحقق لها الوحدانية ويصفو لها وجه زوجها. وبالمناسبة للإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان فتوى ضد الخليفة المنصور يمنعه فيها أن يتزوج على زوجته. لأن الشرع يقول إذا لم تعدلوا فواحدة. فقال الأصل خشية عدم العدل.

ابنتى. مُنح آدمُ الجمال. وتوارثه أبناؤه من بعده. فى كل إنسان من أبناء آدم لمحة من جمال.وقد يكون السؤال لماذا أقبل هذا. وهناك آخر أكثر جمالا منه؟ لماذا أقبل أنا هذا الجمال القليل. فى حين يمكن أن أنال الأفضل أو الأكثر ؟ والحقيقة أنه النصيب. ويجب أن نؤمن بالنصيب لي قصة اسمها نصيب تتحدث عن رجل يقود سيارة نقل فى الجبهة فى وقت هدوء من القتال. وفجأة لا يصدق عينيه وهو يرى رأساً تنبت من الرمال، ينزل من السيارة. ويحفر عن زميله الفاقد الوعى. والذى غطته الرمال قرب رأسه. وينجح فى إخراجه من الحفرة ويحمله إلى السيارة. لتنفجر قنبلة جواره يصيبه منها شظية فيقع على الأرض بما يحمله. وهنا يفيق الآخر من الوقعة. فيجد رجلاً جواره. يقلبه. فيجده قد مات. ويجد بجواره حفرة. يدفع السائق إليها ويهيل عليه الرمل. ويزحف إلى السيارة. ليبتعد عن موضع الضرب. إنه النصيب الذى جعل الراكب ميتاً. وجعل المدفون راكباً.

أما مسألة الأكثر جمالاً. لو أراد إنسان أن يحققها لن ينجح. ولنمض مع رجل فى رحلة للبحث عن أجمل فتاة ليستقر عندها، سيظل يجد أجمل من التى رآها. وسيظل الجمال

كالأفق ممتداً كلما يقترب منه ينبسط أمامه. سيظل هناك من هن أكثر جمالاً ممن تزوجها، فما العمل؟ لو كان المقياس هو العين فالعين لا يشبعها إلا التراب. لى قصة اسمها الحب عيناً، عن شاب كان يقول: المرأة التى أحبها يجب أن تكون أعلى جمالاً من كل امرأة بعدها،لا أبقى معك إلا مساحة جمالك من عينيي، إذ أتركك فهذا خطؤك ؛ لأن هناك أخرى أجمل منك. رفضته الفتاة، ومضى كالمسافر، غايته نهاية الأفق، كلما اقترب منه وجد المسافة ذاتها. وانتهى به الأمر إلى قبر يمشى على رجلين، يحمل قلباً ميتاً.

فالذى يسعى للأكثر جمالا، لن يستقر أبداً، ولن يصل، فالجمال غير متناه، إذن لا يمكن أن تكون للعين الكلمة العليا وإلا جرت صاحبها إلى رحلة نهاية الأفق الذى لا يصل أحد إلى نهايته. ولهذا كان الأمر بغض البصر ؛ لأن العين لص يجب أن تدرب على القناعة والرضى. وأن تغلق على الفتاة المنشودة، وأن تكون هى الدنيا كلها.



ابنتى. لا تمكرى فلا يحيق المكر السيء إلا بأهله. فى مرة أحب ابن أحد الخلفاء - أثناء خلافة أبيه - زوجة أحد ولاة أبيه على البصرة، وكانت شديدة الجمال. أحبها الأمير وهى فى عصمة رجل من أنصار أبيه.

وحاول والده أن يصرفه عن هذا الحب، وعرض عليه أن يزوجه أجمل نساء العالمين، لكنه أبى إلا تلك، وبدأ الابن المدلل عند أبيه يذوى، وهنا تحركت عاطفة الأب نحو ابنه، وأرسل إلى أكبر علماء الدين في وقته، وقال له: إنى أخاف أن تظل بنات الملوك وقفاً لا يتزوجن، إذ لا يجسر أحد أن يتطلع إليهن خشية أن يراها الخليفة إهانة، ولذلك قررت أن أسن سنة حسنة وأختار لابنتى الزوج المناسب لها، ليقتدى بى من يأتى بعدى. فاستحسن الشيخ الجليل الرأى ودعا للخليفة، وسأله الخليفة عن رأيه فى أمير البصرة، فأحسن الشيخ الرأى فيه، فقال له: إذن كن رسولى إليه. ذهب الشيخ للرجل المتزوج، ولم يكن فى ذلك غضاضة ؛ لأن كل الصالحين في هذا الوقت يتزوجون غير واحدة، وعرض عليه لو يتقدم للخليفة يطلب يد ابنته، وفعل الرجل، وتقدم للخليفة يطلب يد ابنته. رحّب الخليفة وقال له أما عنى فقد عرفت رأيي فيك، ولا أجد أحسن منك بعلاً لابنتى، لكن الشرع يصر أن يؤخذ رأيها.

ووافق الناس الخليفة على ذلك وأرسل شاهدين إلى الحريم يسألان بنت الخليفة موافقتها على الخاطب، فقالت لا أتزوج على ضرة. وهنا طلق الرجل زوجته. ثم تقدم ثانية لابنة الخليفة

فرفضته، وقالت لا أحب أن يقول الناس عنى فرقت بين المرء وزوجه. قد أوافق لو تزوجت زوجتك. وهنا يأتى دور الخليفة، فيقول لأصحابه، إنى أتحمل مسئولية طلاق هذه المسكينة، ولهذا أردت أن أعوضها خيراً منه، وأن أزوجها ابنى وهو ولى العهد ليكون عوضاً لها عما لحقها من غدر زوجها، وشكر الناس تصرف الخليفة الحصيف.

وأوفد الخليفة الشيخ الجليل ليكون رسوله إلى العروس يخطبها لابنه، ومعه مهرها، ومضى الرجل يسعى فى الخير، ليقابله رجل من آل البيت،فيسأله عن مقصده، فيقول له إنه ذاهب ليخطب فلانة لابن الخليفة، فيقول له حفيد النبي وإنى والله أردت أيضاً أن أخطبها وما منعنى إلا أن أجد من يحمل خطبتى لها، ولن أجد مثلك يحمل رسالتى إليها، فاذهب إليها واعرض عليها خطبتينا، ودعها تختار من تريد.

وذهب الشيخ إلى المرأة وعرض عليها الخطبتين، فقالت إنى والله لمحتارة، ومثلك يستشار، فأعنى برأيك من أختار؟ مَن تفضله لي؟. وهنا لم يستطع الشيخ الصالح أن يميل مع السلطة ضد الحق فقال له لاريب أن الأفضل هو حفيد النبي . فاختارت العلوي وتزوجته.

وجن جنون الخليفة لفساد تدبيره المحكم إحكاماً دقيقاً، لكن ماذا يفعل، والله خير الماكرين ؟! المهم تتمة القصة أن زوجها المسكين المجنى عليه، غضب الخليفة عليه ؛ لأنه ظل يهذى بخداع الخليفة له. فعزله عن منصبه وجرده من أملاكه، وضاقت الدنيا بالأمير، واضطر أن يذهب لمطلقته الذى كان قد حفظ لديها مبلغاً كبيراً من المال، لكن حياءه منها منعه أن يذهب إليها، فلما ضاق به الحال اضطر أن يطرق بابها، ليقابله زوجها العلوي، ويسمح له بأن يطلب منها أمانته.

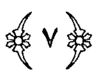
وتقدمها له المرأة، يمد يده إليها وهو يعتذر عن غدره بها ويبكى، وهنا يقول له الزوج انتظر يارجل، إنى والله ما تزوجتها رغبةً فى جمالها، بل لأنى حدست ما دبر لكما، فتزوجتها أحفظها لك. وقام بتطليق المرأة لتعود بعد عدتها لزوجها. وفوّت حفيد النبي الفرصة على الخليفة.

القصة في رأيي غير صحيحة تاريخياً، وهى موضوعة وضعها أنصار العلويين للتشهير بأشهر خلفاء الأمويين، وقد ذكرت القصة لأنى أريد منها العظة، ولأنى أراها غير صحيحة لم أثبت الأسماء فلنعدها أسطورة غير حقيقة، لكن ثمة عظة يمكن أن تستخلص منها هو أن المكر السيء مهما أحكم له التدبير فالله يفسده.

﴿٦﴾

ابنتى.. إياك والإهمال. فيقولون فى المثل: **بيت المهمل يخرب قبل بيت الظالم** ؛ لأن المهمل يكون عوناً لعدوه على نفسه. بينما الظالم يقاوم ما استطاع أن يصد عقابه. واعلمى أن بيتك أمانة. يقول ﷺ : **كلكم راع. وكلكم مسئول عن رعيته.** الراعى الجيد هو من لا تغيب عن عينه أجزاء من دولته. والمرأة راعية بيتها. ومعنى أن تكونى راعية أن تكونى أكبر من بيتك. أنت راعية بيتك أى يجب أن تحيطي بكل صغيرة وكبيرة فيها مثل الحاكم. كان عمر بن الخطاب وهو يحكم امبراطورية ضخمة يقول: لو أن ناقةً عثرت بالعراق لخشيت أن يسألنى الله لم لم أمهد الأرض لها ؟ وأنت ياصغيرةُ تحكمين بيتاً صغيراً. توشكين أن تُسألى لماذا وقَع صغيرك ؟؟

فلا تكونى جزءاً صغيراً من البيت. بل كونى البيت كله.لا تعيشى فى بيتك كأنك غريبة. مشدودة إلى بيت أبيك. فالإنسان يستقر عند المكان الذى يشده خاصة إذا لم تكن هناك مقاومة منه. اعلمى أن بيتك هو مملكتك. قاتلى من أجل أن تكونى محيطة بكل شىء فيه. يقولون وراء كل عظيم امرأة. وأقول أنا بل: يجب أن تكون أمامه تسبقه بخطوة. إذا احتاج شيئاً كانت يدها أسرع إليه.



ابنتى. أتريدين طائرة تحملك إلى الجنة ؟ ليس إلا الزوج. واسمعى مايقول خاتم المرسلين: **أيما امرأة ماتت وزوجها عنها راضٍ دخلت الجنة**. ويقول: **إذا صلت المرأة خمسها وصامت شهرها وأطاعت زوجها وحفظت فرجها. دخلت الجنة**. ويقول: **لا ينظر الله إلى امرأة لا تشكر لزوجها ولا تستغنى به.**

ذهبت امرأة إلى الرسول: تقول له كتب الله الجهاد على الرجال فإن أصابوا أجروا. وإن ماتوا وقع أجرهم على الله عز وجل وإن استشهدوا كانوا أحياء عند ربهم يرزقون ونحن نقوم عليهم ونحتش لدوابهم وليس لنا شىء من ذلك. فقال رسول الله: **أعلمى مَن وراءك من النساء أن حُسْن تبعل إحداكن لزوجها وطلبها لمرضاته واتباعها لموافقته يعدل كل ذلك كله.**

بنيتى.. عليك طاعته. فإنك لن تجنى من طاعته إلا خيراً. ولن تجنى من عصيانه إلا شراً. والعاقل من اختار مافيه منفعة نفسه. رأى شريح القاضى عقرباً. فهم بقتلها. فسمع

إقامة الصلاة وكان إمام القوم، فعدل عن قتلها، وكفأ الإناء عليها، وخرج، وقد قال لامرأته لاتحركى الإناء حتى أرجع، فقلبت الإناء فضربتها العقرب.

ولا تطيعيه فى معصية، فمقاومة المعصية نجاة، ألم تسمعى ببائعة اللبن تطلب من ابنتها فى جوف الليل أن تمزج اللبن بالماء، فرفضت ابنتها ؛ لأن أمير المؤمنين عمر نهى عن ذلك فقالت لها أمها وأين منا عمر الآن ، فقالت: إن كان عمر لايرانا، فرب عمر يرانا،أو لعلها قالت ما كنت لأطيعه فى الملا وأعصيه فى الخلا. كل هذا وأمير المؤمنين قد خرج يتفقد الرعية ويعس المدينة، وسمع الحوار، فقال عمر لمرافقه أسلم: ياأسلم: أمضى إلى الموضع وعلّم الباب، وأعرف الموضع. ومن الغد جمع عمر أولاده وقال لهم: هل فيكم من يحتاج إلى امرأة أزوّجه، ولو كان بأبيكم حركة إلى النساء ماسبقه منكم أحد إلى هذه الجارية، فأطاعه عاصم فزوّجها له، فولدت لعاصم بنتاً، وولدت البنت عمر بن عبد العزيز. هذا الخليفة العادل الذى فى عهده وقف الذئب يحرس الغنم، لقد كان ينثر الطعام في الطرقات للإنسان والحيوان، فلم يحتج الحيوان للافتراس.وصدق رسول الله ﷺ : فاظفر بذات الدين تربت يداك.

ما يعنينى هنا أن عاصماً وافق على الزواج بها دون أن يراها، وكم من فتاة لا تقبل بالرجل، وتكاد تريد أن ترى حياتها معه أولاً قبل أن توافق عليه !!



لا تقاومى النصيحة، أو تجادلى فيها، وفرقّي بين الاتهام والنصيحة، الاتهام يمكنك أن تدافعى ضده، لكن النصيحة يجب أن أتلقاها،فإن كنت أفعلها فهى تذكرة،وكان من هو خير منك كعمر بن الخطاب يتقدم إليه أحد الرعية لينصحه ويقبل عمر ؛ لأن الذكرى تنفع المؤمنين. ولو كنت لا أنفذها فالنصحية أنا أحوج إليها. لكن من يصد النصيحة يمنع الآخرين من تكرارها، وقد يأتى وقت يكون فى أشد الحاجة أن ينبهه أحد، ويراه المحيطون به، ويتمنون لو ينصحونه، لكنهم يحجمون ؛ لأنهم جربوه مهاجماً لمن ينصحه، ويقع فى الخطأ ويبكى ويلوم الآخرين ؛ لأنهم لم ينصحوه، ولا يدرى أن ما حدث له ثمرة فعله.

لا تطمئنى ؛ لأن يكون لديك حجة كلامية ضد الخطأ. فهناك فرق بين التبرير والدليل. من يخطأ، كلامه تبرير وهو لا يخدع إلا نفسه ؛ لأنه لايبحث عن الصواب ولا يتجه إلى الحل، ويخدعه كلامه ويصرفه عن التصويب. إبليس ذاته عندما أخطأ قدم تبرير خطئه: قال لم أسجد لآدم ؛ لأنى لا أريد أن أسجد إلا لله. كلام شكله مقنع ؛ لكنه مزيف من الداخل ؛ لأنه

عندما يسجد لآدم يطيع الله الذى أمره. إن التى تطمئن إلى قدرتها الكلامية لا يكون عندها حمية أفعال، لا تهتم أن يفوتها مايجب عليها من أعمال ؛ لأنها تثق فى قدرتها الكلامية على تبرير إهمالها، وقتها تصبح جيفة حمار دون أن تدرى. أو تكون كخضراء الدمن، شكلها جميلة وكل ماحولها مستنقع له رائحة قبيحة.

لا تضلى عن عيوبك، فمعرفة الإنسان عيبه هى الخطوة الأولى للتخلص منه،ورحم الله عمر بن عبد العزيز وهو يقول: **رحم الله من أهدى إلى عيوبى.** لا تخفى عن زوجك شيئاً، فالصدق مُنجِّى، والكذبُ يجر بعضه بعضاً. وعليكِ بالكتمان، قد يفضى إليك بشىء، ويكتمه عن العالمين، فإذا تسرّب فأنت وحدك المسئولة، وهنا تهتز ثقته فيك، وهيهات أن يعود البناء الراسخ إلى سابق وضعه إذا ما أطاح زلزال به. ابنتى إياكِ والصوت العالى. يقول سعد الشيرازي: **لا سعادة فى البيت الذى يرتفع فيه صوت الزوجة على صوت الزوج.**

ابنتى.. أتدرين ؟ إن النية تطفو إلى السطح دائماً، فحذارِ أن تخططى لشىء ظاهره جميل وباطنه غير جميل، مهما أوتيت من قدرة فإنك فى النهاية ضعيفة أمام قدرة الله وسوف يرد كيدك فى نحرك. يقول زهير بن أبي سلمى:

ومهما تكن عند امرىء من خليقة   وإن خالها تخفى على الناس تعلم.

ابنتى.. لا تصدى زوجك عن الإحسان لوالديه، كان علقمة رجلاً كثير الصلاة كثير الصيام كثير الصدقة، لكنه كان يُؤثر زوجته على أمه، فسخطت أمه عليه. وجاءته الوفاة فلقنوه الشهادة، لكن سخط أمه حجب لسانه عن الشهادة. فلما رضت عنه بعد تدخل النبي أطلق رضاها لسانَه ونطق الشهادة. ابنتى. الأم أعظم من الزوجة فلا تخوضى حرباً خاسرةً ضد حماتك. ثم إن الأيام دول، وغداً تصبحين أماً لشاب يتزوج من فتاة مثلك، وتفعل هى معك أفعالك فى أم زوجك. فمادامت الدنيا تصر أن تكون مرآة، فلماذا أُظهر لها وجهاً قبيحاً وعندي الوجه الجميل ؟!

﴿ ٩ ﴾

إن خير نساء العالمين أربعة هن: آسية بنت مزاحم، ومريم بنت عمران، وفاطمة بنت محمد، وخديجة بنت خويلد. هن بشهادة رسول الله ﷺ اللاتى وصلن إلى الكمال من النساء. فخذى منهن قدوة. أما آسية بنت مزاحم امرأة فرعون فهى الصابرة، عذبوها

أشد العذاب لكنها لم تتراجع عن دينها. وأما مريم بنت عمران فكانت تنسب رزقها إلى الله. أما خديجة، فنبى الأمة ﷺ يلزمها ولا يتزوج عليها فى حياتها، وبعد مماتها يظل يذكرها بالخير، ويصل من كانت تحبهم، ويغضب إذا تكلم أحد عنها بسوء. وهى إحدى زوجاته فى الجنة، وأرسل إليها الله السلام مع جبريل، بل وبشرها ببيت فى الجنة من قصب لا نصب فيه ولا صخب ؟

عندما خطبت ابنتاها رقية وأم كلثوم لعتبة وعتيبة ابني أبى لهب، كانت تدرى أن جحيماً ينتظر ابنتها لدى أم جميل حمالة الحطب، لكنها ماقالت شيئاً أمام موافقة زوجها ﷺ . وكان بعدُ لم يبعث. عندما لجأ زوجها ﷺ إلى غار حراء يتعبد، لم تشهر في وجهه النكد، وتتهمه بالتقصير، بل كانت ترسل إليه الطعام، وعندما جاءته النبوة، وعاد مفزوعاً كانت له نعم الرِّد، تطمئنه، وتذهب إلى ابن عمها ورقة بن نوفل لكى تبث الأمن فى روعه زوجها ﷺ الذي كان يخشى أن يكون ما يراه ليس ملاكاً،فكانت تجربتها الرائعة عندما قالت له أخبرنى إذا جاء، فأجلست نبى الله على فخذها الأيمن فظل الرسول ﷺ يراه. فأجلسته على فخذها الأيسر ثم فى حجرها وأيضاً ظل الرسول يراه. فتحسرت وألقت خمارها. فاختفى جبريل عن عين الرسول ﷺ وهنا قالت:

- يابن عم، اثبت وأبشر، فوالله إنه ملك وما هذا بشيطان.

وعندما قاطعت قريش بنى هاشم، خرجت معهم إلى الشعب ثلاث سنوات تربط على بطنها من الجوع معهم ، وهى أحد أثرياء مكة، وكانت تناهز السابعة والستين. وتخرج من الشعب مريضة، فيقول لها زوجها نبى الأمة ﷺ :

- بالكره منى ما أرى منك ياخديجة وقد يجعل الله فى الكره خيراً كثيراً. ياخديجة إذا لقيت ضرائرك فأقرئيهن منى السلام. ويفسر لها الرسول ﷺ إن الله زوّجه معها فى الجنة مريم بنت عمران، وكلثم أخت موسى، وآسية امرأة فرعون، فترد خديجة:

- هنيئا لك يارسول الله بالرفاء والبنين.

وبعد موتها تقول عنها عائشة: لكأنما ليس فى الأرض امرأةٌ إلا خديجة ؟ فيغضب الرسول ﷺ غضباً شديداً تتعلم منه عائشة ألا تذكرها بعدها بسبة أبداً.

أما ابنتها فاطمة فقد خطبها ابن عمها على، فبكت فاطمة وقالت : كأنك ياأبت ادخرتنى

لفقير قريش. قال ﷺ : والله لقد أنكحتك أكثرهم علماً وأفضلهم حلماً وأولهم سلماً، ما آليت أن أزوجك خير أهلي،والذى بعثني بالحق ما تكلمت فى هذا حتى أذن لى الله فيه من السماء. فقالت الزهراء: رضيت بما رضى الله ورسوله. وعندما مجلت يداها من العمل وعاد أبوها ﷺ بسبايا، ذهبت هى وزوجها يسألانه خادماً، فرفض وقال لهما ألا أخبركما بخير مما سألتماني:

- تسبحان فى دبر كل صلاة عشراً وتحمدان الله عشراً وتكبران عشراً، وإذا أويتما إلى فراشكما فسبّحا الله ثلاثاً وثلاثين، وتحمدان ثلاثاً وثلاثين، وكبّرا أربعاً وثلاثين.

عادها الرسول ﷺ وهى مريضة، فسألها عن حالها فقالت:

- إنى لوجعة وإنه ليزيدنى أنى بلا طعام آكله.

- أما ترضين أنك سيدة نساء العالمين ؟

- يا أبت فأين مريم بنت عمران ؟

- تلك سيدة نساء عالمها وأنت سيدة نساء عالمك، أما والله لقد زوّجتك سيداً فى الدنيا والآخرة.

وكم من نساء غير تلك الكاملات اقتربن من الكمال، باعت امرأة دراً بثلاثين ديناراً، فقال لها زوجها: نفرق هذه الدنانير فى إخواننا، ونأكل رزق يوم بيوم، فوافقته وقالت: تزهد أنت ونرغب نحن ؟ هذا ما لايكون. وامرأة أخرى سمع زوجُها الرسولَ ﷺ يبيع نخلة تسببت في خلاف بين اثنين بنخلة فى الجنة، فما كان منه إلا أن باع بيته ليشترى النخلة ويتنازل عنها ليحل المشكلة، وعاد لزوجته يطلب منها الرحيل من البيت فقد باعه بنخلة فى الجنة، فقالت ربح البيع ياأبا الدحداح. ابنتى لاتقفى فى وجه زوجك إذا كان قطاراً يحمل خيراً. العاقلة من تركب معه القطار. وويل من تنزل من قطار لتقف فى وجهه، هل سمعنا عن قطار لا يدوس من تقف فى طريقه ؟؟

امرأة أخرى هى بهية بنت أوس، رفضت أن تمنح نفسها لزوجها إلا إذا فعل عملاً يثبت أنه أهل للشرف، فخرج فصالح الفريقين المتنازعين فى حرب داحس والغبراء التى استمرت أربعين عاماً، وتحمل ديات القتلى من الفريقين. وما أعظمه من مهر يُقدم لعروس. أصرت أن تكون بداية حياتها مع زوجها أثراً خالداً لا ينساه العرب.

﴿١٠﴾

يرسم ﷺ طوق نجاة المرأة من النار، هو الصدقة، يقول: **يامعشر النساء تصدقن ولو من حليكن فإنكن أكثر أهل النار يوم القيامة**. وقيل لرجل ما لك تكثر من التصدق ؟ فقال: لو أن رجلاً أراد أن ينتقل من دار إلى دار، أكان يبقى فى الأولى شيئاً ؟ ويحكى أن ملكاً كان يقطع يد من يتصدق، مع ذلك جاء رجل إلى امرأة فاستحلفها بالله أن تتصدق ففعلت فقطع الملك يدها فوقع ابنها فى النهر فبكت فجاءها رجلان ولما سألاها عما بها دعوا ربهما فاستوت يداها وقالا لها: تدرين من نحن ؟ قالت لا. قالا نحن الرغيفان اللذان تصدقت بهما. وكان ابن عباس يتخيّر أفضل ما عنده فيتصدق به ليحقق قوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾﴾ آل عمران

مقتلك فى لسانك، قيل لرسول الله ﷺ أن فلانة تصوم النهار وتقوم الليل وتؤذى جيرانها بلسانها قال لا خير فيها هى فى النار. قيل للربيع بن خيثم:: " **ما نراك تغتاب أحداً، فقال لست عن حالى راضياً حتى أتفرغ لذم الناس** ".

﴿١١﴾

ابنتى..واختم كلمتى لك بمجموعة من الوصايا الرائعة، ومثل تلك الوصايا تصنع خير الناس: أوصى أسماء بن خارجة ابنته قبل زواجها: "**كونى لزوجك أمة يكن لك عبدا**". وأوصى أبو الأسود الدؤلى ابنته: " **إنك لن تنالى ماعنده إلا باللطيف، وأعلمى أن أطيب الطيب الماء** ".

وأوصت أمامة بنت الحارث ابنتها عند زواجها فقالت لها:

"**أى بنية، إنك فارقت الجو الذى منه خرجت، وخلّفت العش الذى فيه درجت إلى وكر لم تعرفيه، وقرين لم تألفيه، فاحفظى له خصالاً عشراً يكن لك ذخراً.**

أما الأولى والثانية : فالخشوع له بالقناعة وحسن السمع والطاعة.

وأما الثالثة والرابعة : فالتفقد لمواقع عينيه وأنفه فلا تقع عينه منك على قبيح ولا يشم منك إلا أطيب ريح.

أما الخامسة والسادسة: فالتفقد لوقت منامه وطعامه.فإن تواتر الجوع ملهبة وتنغيص النوم مغضبة.

وأما السابعة والثامنة:فالاحتراس بماله والإرعاء على حشمه وعياله. وملاك الأمر فى المال حسن التقدير وفى العيال حسن التدبير

وأما التاسعة والعاشرة: فلا تعصين له أمراً ولا تفشين له سراً. فإنك إن خالفت أمره أوغرت صدره وإن أفشيت سره لم تأمنى غدره.

ثم إياكِ والفرح بين يديه إن كان مهتما والكآبة بين يديه إن كان فرحا ".

ومن الوصايا الرائعة، ما أوصت به إعرابية ابنها:

" **أى بنى: إياك والنميمة، فإنها تزرع الضغينة، وتفرق بين المحبين، وإياك والبخل بمالك، ومثل لنفسك ما استحسنت من غيرك فاعمل به، وما استقبحت من غيرك فاجتنبه** ".

ومن الوصايا ما أوصى به عمرو بن كلثوم أولاده قبل أن يموت:

" **يابنى إنى والله ماعيرت أحداً بشىء إلا عيرت بمثله. ومن سب سُب فكفوا عن الشتم فإنه أسلم لكم، وأحسنوا جواركم يحسن ثناؤكم. وإذا حُدثتنم فعوا، وإذا حدثتم فأوجزوا. ولا خيرفيمن لا روية له عند الغضب** ".

أما أكثم بن صيفى فيوصى قومه:

" **لن يهلك امرؤ عرف قدره، والعدم عدم العقل لا عدم المال، ومن عتب على الدهر طالت معتبته، ومن رضى بالقسم طابت معيشته. وآفة الرأى الهوى** ".

وكان لابن المقفع صديق هو أعظم الناس فى عينه ؛ **لأن الدنيا كانت صغيرة فى عين هذا الصديق، ولأن بطنه ليست لها سلطان عليه، فلا يشتهى ما لايجد ولا يكثر إذا وجد. ولأن لسانه ليس له عليه سلطان فلا يقول ما لا يعلم ولا ينازع فيما يعلم.و لأن الجهالة ليس لها عليه سلطان، فلا يقدم أبداً إلا على ثقة بمنفعة.** وأوصى أبو حازم سليمان بن عبد الملك فقال: " **عظّم ربك، ونزّهه أن يراك حيث نهاك، أو يفقدك حيث أمرك** ".

وأخيراً أتركك مع القصة التى وعدتك بها:

قصة قصيرة

السعادة اسمها مصطفى

تدخل حجرة نومها. أقدامها ضعيفة رأسها كيس رمل. خلا البيت إلا من الوحدة والصفير صوت ناى حزين كالصورة لاينفد. تبغى دموعاً سهر معها فى هذه الليلة العقيم التى لن تلد نهاراً. لكنّ عينيها صحراء.

لم تدخل الحجرة قبل الليلة وحدها. دوماً يعلو رأسها. كالمعتاد تمد له خدها لتأخذ القبلة. لايفعل. لكنه هكذا دائما. تبسط خدها وتنتظر. ويتصنع هو عدم الانتباه حتى تهزه بكوعها عاتبة. فيضحك ويرسم ضحكته على خدها. لكنها هذه المرة لاتسمع سوى صمتها. هى الحقيقة : هى وحدها فى هذه الحجرة القطبية .

امتدت يدها إلى صورته. أول شىء يقابلها فى هذه الحجرة. تحاول أن تنفذ إلى أعماق عينيه مثلما كانت عيناه دائماً تنفذ فى أعماق الآخرين. تحاول أن تتلمس ضحكته. كانت دائماً ثالثتهم. تضم الصورة إلى صدرها وتغلق الباب بظهرها. وتستند عليها..

أول مرة دخلت هذه الحجرة وقف أمامها يغلق الباب بظهره. وانقلب العريس الأنيق الذى ظل يداعبها فى الفرح إلى رجل آخر. أبرقت عيناه وأرعدت. وشد كرافتته فقطعها. ووقعت أزرار قميصه وتمزق وهو يفتحه. وهو ينظر لها بعيون تقدح شراً. وتقدم نحوها. وهو يزيح من أمامه كل مايقابله. عفشها الجديد. انكشمت بجوار السرير خائفة. ليس هذا ماتزوجته هذا مجنون. أهذا مايقولون عنه ذبح القطة ؟؟ أمسك بها وكلها رعب . أمسك برقبتها. قال لها وهى تكاد تموت قبل أن يضغط على عنقها :

- جاءت اللحظة. تزوجتك لأنتقم من أبيك. قاتل أبى.. عشت انتظر هذه اللحظة عندما أقدم لأبيك جثة ابنته ليلة عرسها..

وضحك بوحشية.. لم تنبس بكلمة.. بينما أشعل سيجارة. وقال :

- أنا أعظم ممثل فى العالم والله العظيم.. حتى تعتزى بنفسك وتعرفى أنت متزوجة من !! تشامخى.. تشامخى.. انهضى.. كان هزاراً .. بادبح لك القطة..

نهضت فى يده كالقطة المذبوحة. فاكتشف انها عملتها على نفسها من شدة خوفها. وهنا لم تتمكن أن تعاتبه أو تخاصمه. فقد ظل يندب..

- ياخيبتك التقيلة يادرش.. مراتك عملتها.. أقول أيه لولادك..وكمان فى فستان الفرح.. طب

لو واحدة من العيلة جت تستلفه.. نقولهم أيه ؟ ابننا عملها على أمه ليلة فرحنا.. ولو صدقوا انك حبلت وولدت فى ليلة..طب فين الولد.. أكلتيه..

يابختك الحلو يانى.. أمى دعت عليا.. طب أقول أيه لمراتى التانية.. دى هتغني لي: ياشماتنين بالقوى ياحنا..

آه ياوجع ظهرى ياأنا.. كل يوم أطلع المراتب على السطح..

كان يتحدث بصوت عال.. وكلما رفعت عينيها له ضحك. فازداد غيظها. كانت تريد أن تصرخ فيه ليسكت. لكن غضبها منه كان شديداً. لقد زلزلها وأقنعها أنه مجنون فعلا وخافت منه. لذلك لم ترد أن تكلمه حتى لاتنهى الموقف.. واستمر هو يتكلم..

- حبى لك يامصطفى عمره مايتغير.. حبى لك إيمان.. أحبك كما أحب الحمار برسيمه. أنا برسيم ؟؟!. راح فين حبك. أزاى ياأبلة تصدقى أننى مش أنا. وازاى قلبك يخدعك ويوهمك أننى مجنون.. من بقى الغلطان للثانى.. أنا كنت بشوف حبك لى.. وياخسارة لقيته لاشيء.. بينما حبى أنا باق مابقيت الزهرة على الفستان.. فستان حبنا.. ولماجاء أبوزيد الهلالى وشم الريحة. قال أف. هى دى حبيبتى. عايزنى أسكت. قومى بوسى راسى..

نظرت إليه كمداً.. فضحك

- أنت حرة. سيستمر البرنامج هذه الليلة على هذا المنوال إن لم تعتذرى عن غلطتك الفظيعة فى حقى..

نظرت إليه كأنها تقول له:

- أنا برضه ؟؟

- والآن إذاعة جمهورية مصر العربية تقدم لكم احتفالاً بعرسنا العظيم أغنية الفنان الكبير فريد الأطرش يازهرة فى خيالى.. يابقعة على فستاني.. يابنت خالى..أنا كان مالى.. ماكنت خالى..موهبة أنا..

ليلة لاتنساها أبدا.. وخاصة أنه بعدها. أسمعها الشريط. ولم تصدق نفسها وهى تسمع تفاصيل الليلة الرهيبة مسجلة. وضحكت كما لم تضحك فى حياتها. وإذ به يقول لها أناديهم يسمعوا الشريط..

وتجذبه من ذراعه. أصبحت تصدق أن يفعل أى شيء. تتشبث فى ذراعه. ينزل برأسه ويقول لها: بوسى.. ولايفوته أن يشير إلى قصر قامتها. موضوعه المفضل مطلقاً قولته الضاحكة:

- أنت واقفة ولاقاعدة..

وتعودت أن ترضخ له دائماً. فتشب تقبل رأسه التى ترتفع كلما اقتربت منها. بعد هذه الليلة التى لم يتركها فيها إلا وقد سحب منها ضيقها تعاهدا ألا يبيتا ليلة مختلفين..

- تعرفوا طمطم بتقولى أيه.. نفسى كنت اتجوز واحد تانى غيرك. ليه ياطمطم. تقول عشان كنت اخلف منه ولد أسميه مرتبة. عشان يقولولى يام المرتبة.. وتكتم ضحكتها.. فلا تستطيع أن تقول له: ماالأمنية لسة موجودة.. فالسر بين أسنانه يمكن يقوله. فقد تزوجت رجل فضحى. ومسك عليها من أول يوم مصيبة..

تدير عينيها فى الحجرة المقدسة كما كان يسميها، فكم اختفى فيها ليفزعها، لكن الحجرة ظلت صامتة، تؤكد رحيله، لكن من غير الممكن أن يرحل، فلم يكن واحداً، كان فريقاً، عرفته وهى تودع التلمذة، لتظل تلميذة له.. ويظل الأستاذ..

ـ نفسى فقط هى التى عندك، لذلك أنا حر فيها، كذلك أنت حرة فى نفسك التى عندى..

فى هذه الحجرة اليتيمة الآن مثلها، رأت فيه كل الناس، حتى حنان الأم، فى ألمها عندما فقدت جنينها كان يسهر عليها، يحضر لها الطعام فى الفراش

ـ الحب أن يكون كل منا ما يحتاجه الآخر منه..

تخطو على أرضية الحجرة برحمة حتى لاتجرح حزنها، تمد يدها لسر لم تخبر به أحداً حتى أمها، كانت قد خاصمت أمها وظنت أنها به تستغنى عن الدنيا، وأرسلت الأم إليه وردت عليه، فرجع فى يده عصا صغيرة..

ـ هى عصاى أهش فيها على غنمى ولى فيها مآرب أخرى..

ظنته فى البداية يمزح، أمسك بقدميها تحت ذراعه بقوة، ولم تستطع أن تخلصهما، وظلت تضربه فى ظهره بيديها، ثم لم تتحمل، فبكت وأكبت بوجهها فى الفراش ولم يتوقف إلا مع الضربة العاشرة، انكمشت وهى لاتصدق أنها تحولت فى لحظة إلى طفلة، وقعت مع سيدنا.. وإذ به يقول بابتسامته الشهيرة..

ـ انهضى.. اجرى فى الصالة حتى لاتتورم قدماك..

واطلق ضحكته، وازداد غيظها أن تسمع ضحكته المحببة فى هذه اللحظة التى لاتريد فيها أن تراه.. وأحست أنها لابد أن تقف هذه المرة، ولاتدع الأمر يمر بسهولة فهى مثله، ولايجب أن ينتقص منها هكذا.. وانها هذه المرة لن تستجيب لمحاولته مصالحتها بسهولة.. انتظرت أن يحاول حتى تتمنع، لم يفعل.. جاء الليل.. لاتستطيع النوم، بينهما عهد وقسم ألا يبيتا مختلفين.. ولو.. ظلت صامتة، على الأقل لن تبدأ هى.. ظلا جالسين.. كلما رفعت عينيها له كتم الضحك، امتنعت أن تنظر إليه حتى لاتضحك.. وينتهى الموقف.. نهض إلى التسجيل، فهمت أنه سيقوم بتشغيل شريط ليلة الفرح، قررت أن تتماسك ولاتضحك.. فوجئت بشريط يسجل العلقة.. وبدأ هو يغيظها..

ـ يضربك ليه.. هو له ضرب عليك.. ليه دا أنا أهلى يقطعوه حتت.. ثم أن للمرأة حقوقها، ولم تعد المرأة تضرب، ده كان زمان، لكن بعد أن أصبحت المرأة وزيرة و.. يبقى لسه فيه ضرب، دا تخلف، وأن الاتحاد النسائى لن يسكت.. عن هذا الانتهاك لحقوقه..

ـ دامش كلام.. يعنى دا أصول.. تضربنى يامصطفى.. طبعا تستغل حبى لك، وتفعل مايحلو لك، لاتعمل اعتبار لزعلى، أو لنفسيتى..

يمسك شفتها السفلى

ـ دلدولة.. جميلة.. بسكويت بوزو.. حاصل على درجة الأيزو.. علامة الجودة العالمية.. ماعليك عزيزى المشاهد سوى أن تذهب للبائع وتمد بوزك.. متر.. اثنين.. ثلاثة.. تخد بسكويت.. اثنين.. ثلاثة.. مد بوزك تاخد بوزو.. اوعوا تنسوا بوزوا.. خلى بالك من بوزو..

ـ أنا بأتكلم جد.. أنا أعلم أنك إنسان مثالى لكن مفيش واحدة تقبل كده أبداً.. وبعدين أنت

بتستغل أننى مرتبطة جدا بك.. وتفعل أى شىء..

- اجرى فى الصالة..

- أنا باتكلم جد. أول مرة أعرف أنك قاس..

- اجرى فى الصالة..

- أنت بتهدر آدميتى. مستغلاً حبى لك. لكن هذه المرة لا.. ثم أنا عملت أيه..

يأخذها فى صدره بقوة. كبحر يبتلع سفينة صغيرة. أين هى. لا تدرى. ولا يكتفى بأن تصفح عن الموقف. فلا يفتأ يذكرها به. فى أى وقت على غفلة يمسك قدميها:

- "واوا.. واوا ""

ويضحك. ولا يتوقف عن الضحك. وتخفى زبيدة لأنه كلما رآها ينهمر بالضحك. وفى كل مرة يكتشف مكانها يهلل كطفل وجد لعبته التى أخفتها عنه أمه. كان صانعاً ماهراً للسعادة. ولصاً أمهر فى امتصاص غضبها وضيقها. يضعها فى عينيه ولايتركها حزينة أبدا. نهر كله خير لكنه فى لحظة يقلب..

وفى نفس اليوم بعد عام يدخل عليها راقصاً وفى يده تورته:

- فى مثل هذا اليوم كان اليوم العالمى لحقوق الإنسان.. اجرى فى الصالة..

ويضحك. وهو يجرى من أمامها. وكأنه لم يفارق الطفولة. كانت العودة للطفولة أبرع مافيه. لايفتأ يمارسها كأنه يقوم لها بدور طفلها الذى لم يأت..

كانت تتوقف تتأمل كيف استطاع أن يجعلها تحتفل باهانتها وكيف أقنعها بانتظار هذا اليوم بعد ذلك كأنه أحد الأعياد. كيف برع فى أن يجعلها فى صفه دائماً حتى فى المواقف التى ضد نفسها..

تحدثت معه . قال:

- أصبحنا واحداً.. ماتت الأنا داخلك.. أنت أعظم منى.. فهذا لايقلل منك.. أنت لست دولة لك حدودك فى وجهى.. بل نحن سوياً لنا حدود واحدة.. لاكرامة بيننا.. ولا ذل فيما تسميه إهانات مادام لايعرف بما يحدث بيننا سوانا..

- لكن كلها من نصيبى وحدى. ومادام الأمر بيننا فلم.. اتفقنا مفيش زعل..

- قولى.. قصدك.. لماذا لاأهان أنا أيضاً.. طب بذمتك كيف يحدث..وسيادتك مؤدبة كل هذا الأدب وتخافى على زعلى. لدرجة أنك خفت أن تكملى الجملة.. ياعزيزتى. أنت أمينة مرات سى السيد. لاتقدرى أن تكون خلافها. لكنك فى القرن العشرين. لذا فأنت مندهشة. كيف تكونى أمينة. أنت مستغربة فقط. لكنك هى. ولاتقدرى أن تكونى إلا هكذا..

- وأنت سعيد لأنك سى السيد..

- لأنا زوج أمينة.. وسوف أثبت لك..

يدخل ويحضر زبيدة.. تنكمش فى الحائط كتلميذ خائف..

- مصطفى.. لم يحدث منى شىء. كانت مناقشة...

- انظرى مدى الرعب فى عينيك. ألم أقل لك أنت أمينة. لو لم أكن سى السيد. لجعلتنى أنت سى

السيد ياست أمينة. لاتخشى شيئاً. لقد قررت أن أقنعك أن ما أقوله حق. بيننا لاذل. الآن تركب السيدة المصونة أمينة فاطمة سابقاً الحمار الرائع مصطفى سى السيد مصطفى سابقاً .. وتسوقه بزبيدة..

- لا.. أنا.. مش ممكن..

يأخذ هيئة الحمار. تنهضه

- يكفينى هذا. لأقبل أن تضربنى كل يوم و..

- ستركبين..

- مستحيل.. لاأقدر..

- على الطلاق منك ستفعلين..

كانت أول مرة يستخدم هذه الكلمة. كانت حقاً أمينة كما قال لها، وماكانت لتفعلها إلا إذا كانت أمينة فعلتها. لكنه كان يعرف كيف يحملها أن تفعل مايريد. وركبته وضحكت وكتمت سر هذه الليلة. فقد استعدت فيها لمليون موقف تذل فيهم وترضى وتسعد. لن يؤلها بعد ذلك أن يعاملها كطفلة. حتى فى هذا الموقف هو الرابح. حتى هذا الموقف كان يغيظها به. يهمس فى أذنها والناس من حولهم:

- زوجك حمار.. بيه.. حمار.. طب جحش..

- بس عاجبنى.. مش أنا اللى راكبة..

وتخرج له لسانها. يبتسم.. وكأنه سعيد لأنه نولها أن تنتصر مرة عليه. وتمضى الناس..

- مش أنا اللى راكبة.. ماشى ياأمينة.. أحنا كدة متخاصمين..

- كدة.. لبان بوزو.. حاصل على الجودة العالمية. ماعليك عزيزى المشاهد..

- إلا أن تمد بوزك متر.. اثنين.. ثلاثة..

وترتفع الضحكة. هذه الموسيقى اليومية.. التى اعتادتها الحجرة..

دخلت عليه وهو مشغول. ركزت النظر فى عينيه للحظة فكأنها سرقت منه حقيقة يخفيها. انتبه لاهتمامها. فرفع ابتسامته لعينيه. وبدد النظرة.. رأت فى عينيه حزن الدنيا لكنه لم يلبث أن تلاشى فى لحظة وألهاها بضحكه ومزاحه.. كأنه يعيش حياة أخرى لايريد لها أن تراها الآن تتذكر هذه النظرة. كأنها كانت تقرأ فيها قلقه عليها من لحظة فراقه وكأنه كان يحس بنهايته ويخشى عليها.. ويشغلها دوماً بالسعادة. فلم تنتبه لحظة أنه يسرع فى الرحيل..

دخلت عليه هذه الحجرة. كان نائماً فيها. لم تجده. وجدت المخدة مكانه وقد غطاها باللحاف. لم تستغرب. كيف خرج. تدرى أن له وسائله الخاصة. لكن تملكها الغيظ. لم تشد الغطاء عليها. لاتستطيع أن تكون تحت غطاء واحد مع آخر حتى لو كان دمية قماش. عندما كادت أن تنعس وجدت نفسها فى أحضان المخدة. كتمت نصف الصرخة. كان يختفى داخل كيس المخدة بعد أن فتح فيه فتحتين لذراعه. ليلتها لم تنم. تضمه بقوة كأنه طفلها. فيخرج ضغطها عليه ضحكته العاليه ويقول:

- لاأستطيع أن أتركك وحدك.. ثم يهمس لها أوعى تكون عملتيها..

أهو العدل أن يأتيها الحزن الشديد كالصاعقة بعد هذه الألفة القوية مع السعادة. كانت السعادة اسمها مصطفى. تصحبه أينما سار. لذا عندما كانت تخرج معه كانت تقبض على ذراعه

بكلتا يديها، وكم مرة يطلب منها أن تكتفى بيد واحدة فلا تستمع له حتى جاء يوم، وتوقف فى منتصف الشارع، ينظر إليها وهو يكتم ابتسامته ثم يتحدث إليها بصوت مسموع:

- ماهذا ياآنسة، أهكذا تتعلقين فى ذراع أى حد..عيب..سيب أيدى.

- فيه أيه ياأستاذ مصطفى..

- أنا عارف.. طب افرض مراتى شافتها الان.. أعمل أيه..ياعم محمود

وضحك.. بينما انكمشت فيه أكثر وتجره لتبتعد عن المكان سريعاً وهو مازال ينظر للخلف يحادث الرجل وهو يضحك.. بينما تهمس له بغيظ:

"- آنسة.. عيب عليك"

وتعود إلى البيت، تقذفه بالوسائد، بكل ماتجده أمامها وهو لايتوقف عن الضحك

- ألم تحرج من الرجل.. ؟

- زمانه هيقول لمراتى وتبقى حكاية..

- يقول على أيه.. حرَمتنى أمشى من الشارع ده..

ويواصل الضحك، وكأنه يجتهد أن لاترى عينيه صافية.. بحزنها.. فيضحك، ثم يضحك..

- الضحك طبيبى الخاص..

- لماذا أنت دائما تسعد الآخرين..

- لأنى أحبهم بقلوبهم..

- نحن نعيش لفترة لاندرى متى تنتهى، أو لماذا لم تنته إلى الآن، عدى حياتك قد انتهت من لحظات، وهذا ليس صعبا، فما كنا لنمنع الموت لو جاء، لو فعلت ذلك لكانت كل حياتك سعيدة حتى فى المصيبة.. انظرى، إنسان بعث من موت، ثم وهو يجرى من قبره تعثر، فكسرت رجله، سيواصل جريه سعيداً لأهله يفرحهم بنجاته من الموت.. بعد كل نجاة من حادثة نحمد الله، كل لحظة لاتحدث لنا فيها حادثة، نجاة من حادثة..

- اجعلى كل زمن تعيشينه زمنا لك، بمقدور كل إنسان أن يكون سعيداً، فلا تركبى سفينة الماضى مهما كان القبضان..

امتدت يدها إلى جهاز التسجيل، تسمع صوته ليلة الفرح..حقا لم يتركها وحدها، كما قال لها فى الليلة التى كان يختفى فيها فى المخدة، كلماته ترسم الابتسامة على وجهها كما كان يريدها دائماً..



(الكلمة الثالثة العاشرة)

ليس إلا النبل معطفاً

الكلمة الثالثة عشرة:

ليس إلا النبل معطفاً

بني..

النبل كالشمس في نهار الشتاء الغميم. نفرح به ويبث فينا الدفء.

﴿١﴾

كن نبيلا. تخسر الأشياء لتحتفظ بنفس نقية. قاوم هوى نفسك.فقديماً قالوا **خالف نفسك تسر**. وقال حكيم: **خالف النساء وهواك وافعل ماشئت**. ودوما أردد: **إن تعف فأنت على صواب .**

الظلم يابنى أن تأكل أكثر مما تحتاج معدتك.
الجبن أن تتضاءل حتى تتلاشى.
البخل أن يمسى جسمك قبراً بجيوب.
الخيانة. أن تصبح جثةً عفنةً لا يحتمل أحد رائحتها.
الكذب أن تصبح اثنين.
والعدل يابنى أن تتجنب الهوى.
والشجاعة أن تحب الحياة. فالجبن رائحة تجذب الموت حتماً.
الكرم. أن تؤمن أن الرزق بيد الله.
الوفاء. أن تحتفظ فى نفسك بشمس لا تغرب أبداً.

﴿٢﴾

النبل ألا تقدر أن تكون قبيحاً. بل ألا تقدر أن تكون مثل الآخرين. وهناك كثيرون عجزوا أن يفعلوا ما يفعله أغلب الناس. ولو وضع هذا الشيء العادي في كفة مع الموت. لا يمكنه أن يختار هذا الشيء العادي. فهو يقبل أى شيء حتى لو كان الموت. لكنه لا يستطيع أن يكون صغيراً. المتنبي في لحظة حاسمة من حياته يتعرف على أعداءً له من بعيد دون أن ينتبهوا

إليه. فيهمٌّ بالانحراف بعيداً حتى لا تحدث مواجهة غير عادلة. فهو وحده في مواجهة جماعة. فيذكّره خادمه بنفسه، ويقول له لا ينبغى لمن قال: الخيل والليل والبيداء تعرفنى.. أن يهرب. عندما انتبه المتنبي إلى نفسه لم يستطع أن يكون صغيراً. وبرغم أن الاختيار أصبح صعباً. إما يكون صغيراً أو الموت. لكن ما باليد حيلة. لا يمكنه أن يكون صغيراً. فأهلاً بالموت. فأقبل عليهم. وقبل الموت في الوقت الذى لم يستطع أن يقبل الصغر. وعجز عن الهرب ووقف في وجههم ليموت.

وقبله وقف الموقف نفسه الشاعر طرفة بن العبد. الذى فتح له أعوان الملك باب السجن ليهرب من الموت الذى ينتظره على يد الملك في الغد. لكن ظل الباب مفتوحاً. وظل هو بالداخل. لا يقدر أن يكون صغيراً. حتى لو كان البديل الوحيد لذلك هو الموت. بقى ليموت لأنه لا يستطيع أن يهرب. فتحملُ الموت أهون من الهرب.

والموقف ذاته وقفه السموأل الشاعر اليهودي الذى عاش وسط العرب فاكتسب صفاتهم. فقد اوتمن على أشياء وضعها عنده الشاعر امرؤ القيس. فجاء عدو امرئ القيس يطلبها منه فأبي أن يفرّط في الأمانة. وأثناء الحصار يقع ابن السموأل في يد الملك المحاصر. وهنا ينادي السموأل. ويخيّره بين أن يعطيه الأمانة التى عنده . أو يذبح ابنه امام عينه. ويقف الشاعر لا يملك خياراً. يقول أما ما اوتمنت عليه فلا يمكننى أن أفرط فيه. ويذبح ابنه. وقد تتعجب أن يتحمل ذبح ابنه ولا يتحمل أن يكون صغيراً.

وهذا الموقف يقفه البطل العربي العظيم هانئ بن مسعود عندما وضع النعمان أسلحته عنده وذهب إلى كسرى مستسلماً فيقتله كسرى. ثم يطالبه بدروعه من عند ابن مسعود. لكن الرجل العربي الذى يدرك أنه لا يستطيع محاربة كسرى. وأن النعمان وقد كان أكثر منه قوة لم يقو على محاربته. تلك الحقيقة لا قبل لقبيلة عربية بمواجهة الفرس. فالنعمان كان ملكاً على مملكة ولم يقو على مواجهة الفرس. فهل تقوى قبيلة عربية على المواجهة. الحقيقة لا. والحقيقة أن الرجل العربي كان يدرك تلك الحقيقة وأنه لا قبل له بمواجهة كسرى. لكنه في الوقت نفسه لا يستطيع أن يكون صغيراً ويخون الأمانة. والإنسان لا يمكنه أن يفعل مالا يستطيع. والخيانة فوق استطاعته مهما حاول. فلم يجد خياراً. فمشى في الطريق الوحيد: مواجهة أكبر قوة في ذلك الوقت. والغريب أن تلك الموقعة انتصر العرب فيها وكانت الموقعة الوحيدة التى انتصر فيها العرب على الفرس. في موقعة لا تنسى اسمها: **موقعة ذى قار**. فقد انضم إلى الفارس العربي كل فرسان العرب تقديراً لموقفه. فبالوحدة انتصروا. لكن ما يعنينا هنا ليست الوحدة. بل عجز الفارس أن يكون صغيراً. ولو خُيّر بين الضآلة و الموت. فهو

لا يختار الضآلة أبداً، لأنه لا يقدر عليه. إن كل خيارات العظماء بين الضآلة والموت تنتهى بعدم اختيار الضآلة.

ولو أن يوسف عليه السلام قابل الموت ما جرى منه، لكنه جرى من وجه امرأة تعرض جمالها عليه، ودعا ربه أن يمنحه السجن حتى لا يفعل فعلاً يسعى إليه كثيرون : ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ﴿٣٣﴾ ﴾ (يوسف). العظمة ألا تقدر أن تفعل ما يفعله الآخرون من صغائر.

ويقع حبيب بن زيد أسيراً في يد مسيلمة الكذاب، ويطلب منه الكذاب أن يشتم النبي ﷺ، فيرفض حبيب، فيبدأ الكذّاب بتقطيع حبيب إربا إرباً لكن حبيباً يمكنه تحمل العذاب، لكنه لا يمكنه أن يشتم النبي، والحقيقة أنه لا يختار بين أمرين، لكن ثمة فعلة لا يمكنه أن يفعلها، فيشهر عجزه عن فعلها. العذاب الذى لا يحتمل أهون من أن يفعل تلك الفعلة الصغيرة.

وهذا عبد الله بن حذيفة السهمى، يأسره ملك الروم ويعرض عليه النصرانية، فيأبى رغم الصلب وإطلاق السهام عليه، ويجهز ملك الروم وعاء من نحاس قد حمي، ويضع أمامه برجل فيه فيخرج عظاماً، وبرغم أنه رأى مصيره المحتوم بعين رأسه، إلا أنه لا يستطيع أن يقبل ما لا ترضاه نفسه له، فيصر على الرفض، ولم يكن قيصر يريد قتله، وقتل الرجل قبله لأنه يثق أن هذا قطعاً سيجعله يرضخ . لكنه لم يدر أن هناك أشياء لا يقدر عليها بعض الناس، أناس لا يمكنهم أن يكونوا صغاراً في نظر نفوسهم. وهنا يعدل عن قتله بتلك الطريقة ويحرمه الطعام أياماً ثم يرسل إليه خمراً ولحم خنزير، ورغم أنه قد أحل للمسلم المحرمات عند الضرورات إلا أنه رفض أن يأكل حتى لا يشمت الملك به، فطلب الملك منه أن يقبل رأسه ويطلقه، فاشترط أن يطلق معه جميع أسارى المسلمين، فوافق الملك، فقبل ابن حذيفه رأسه، فلما رجع إلى عمر، قال له عمر: حق على كل مسلم أن يقبل رأسك. وبدأ عمر فقبل رأسه.

ما كل هذا النبل! رباه يابني.. النبل يغطيك بعباءة احترام تقيك برد الندم فى صقيع الشيخوخة. والخسة أن تصبح بلاعة، تحتفظ بكراكيب لا تصنع فى الغد نهاراً مشرقا، بل تتكاتف لتصنع قبواً مظلماً. إن كل ماتشده أنانيتك إليك يحول جسمك إلى سلة زبالة. ويحول نفسك إلى جثة تجرها داخل جسدك. وبئسه من مصير. بينما مواقف النبل تسجل فى نفسك بحروف من نور، تخلق منك طائراً، لعله لا يملك شيئا، لكنه أبداً يلازم النور.

﴿٣﴾

العظماء - يابني - لم يخلقوا من طينة أخرى غير طينة الناس. كل إنسان مهما كانت قدراته يمكن أن يكون عظيماً، بشرط واحد أن يؤمن بما يريد. وأن يظل وراءه . وكل من يصرُّ على هدفه ولا يتراجع عنه مهما كانت المعوقات يصل إليه.

إذا كنت ترى أن هناك شيئاً يعوق نجاحك. فهذا وهم، ترتاح به، وتنصرف عن السعى. فلا أشياء تعوق النجاح، لا يعوق النجاح سوى نفسك. تقف أمامك لتحجب عن عينيك طريقك.

ضابط صغير من ضباط الإنجليز غيّر وجه التاريخ، بمغامرة أجمع الجميع أنها مستحيلة، لكنه سار إليها، في نهاية السير وجد نفسه قد حقق المعجزة. وفاجئ الجميع بما فيهم نفسه. كانت الحرب بين تركيا وإنجلترا، وهبّت الثورة العربية في وجه تركيا أثناء الحرب فضربتها تركيا بلا رحمة بالطائرات، وما كان يمكن أن تستمر ثورة بين سيوف ترتفع بطول الذراع ضد طائرات ترتفع بطول النظر. وطلب الشريف حسين من الإنجليز مساعدته. فقالوا لابد لكى يصلوا إليه أن ينسحب إلى ينبع حتى يمكن أن تصل السفن إليه. عرض عليهم أن يساعدوه عن طريق العقبة. قالوا له لو وصلت إليها نساعدك. طلب منهم أن يساعدوه ليحتلها. اعتذروا لأن للأتراك مدافع، ولا تريد إنجلترا أن تتورط في مواجهة في مكان يملك مثل هذا السلاح، لأن هدفها الأساسى هو الحفاظ على سيطرتها على قناة السويس أكثر من اهتمامها بمساعدة العرب في ثورتهم.

ضابط إنجليزى صغير قال للشريف حسين، يمكنكم أنتم أن تحتلوا العقبة. ضحكوا منه واعتبروه مجنوناً. فالمكان الذى لا يغامر الإنجليز باحتلاله لا يمكن للعرب أن يفكروا مجرد تفكير في احتلاله. لكنه قال لهم: إن تركيا تنصب مدافعها في وجه البحر لأنها لا ترى مكانا يقدم منه العدو (الإنجليز) سوى الشاطئ. وهنا قال لهم لا خطر من المدافع لأن المدافع مصوبة إلى الخارج، ونحن سنهاجمها من الداخل، من البادية. طلب خمسين رجلاً، واخترق صحراء النفوذ، ليقابل شيخ قبيلة عربية كان يساعد الأتراك لأنهم يدفعون له فعرض عليه أن يدفع له أكثر مما يدفعه الأتراك، وبذلك ضم أفرد القبيلة إليه إلى جوار الخمسين، وعلى حين غرة هاجم المدينة الآمنة التى لا تظن العدو قادماً سوى من الأمام. فلما جاءها من الخلف أخذها على حين غرة، وتمت السيطرة على المدينة. وفوجئ

الإنجليز بتلك الهدية التى مكنتهم من الإجهاز على الإمبراطورية العثمانية. وسقطت امبراطورية عمرها خمسة قرون في مغامرة آمن صاحبها أنه قادر على تنفيذها، أو على الأقل تستحق المحاولة. هذه الشخصية العادية أصبحت شخصية أسطورية. وهو لا يملك سوى الإصرار. ويقين واحد هو أن كل طريق يستحق المشى. ولا ينبغى الحكم على نهايته بقرار من العقل. لابد أن تحدده الأقدام. سر إليه. فإذا لم تصل. فالأمر لا يمكن الوصول إليه. لكن ما من طريق يُمشى إلا وتصل إلى هدفك منه.

لا يهمنا في قصة الضابط الإنجليزى سوى موقفه. أنه يفكر أن كل شيء ممكن، وكل شيء يستحق السعى إليه. وأنه سيمشى الطريق حتى لو سار فيه وحده. نعم يمكن ألا يصل. لكن عليه السعى. والساعي واصل.

هذا الضابط اسمه لورانس. اشتهر فيما بعد بلورانس العرب وعُمل عنه فيلم كان أول فيلم عالمي يشارك فيه عمر الشريف. والحقيقة أننا لسنا معجبين بالإنجاز. فعن نفسى رغم تحفظي بل رفضى لأسلوب الأتراك في حكم بلادنا . إلا أنه في النهاية الأتراك أرحم من الإنجليز والأمريكان. فلست معجباً بالإنجاز. أنا أسلط الضوء على نبتة في داخل الإنسان. موجودة تحتاج إلى الإيمان بوجودها والاستماع إلى صوتها. وعدم الانصراف عنها. لا يعجبنى انتصار الإنجليز أو نتائج الحرب وكنت أتمناها معكوسة برغم عدم حبي للأتراك الذين ظلموا بلادنا وتركوها متخلفة ليضمنوا استمرارها في أيديهم.ولو ساعدوا على تقدمها لظلت في أيديهم. ولقاتل العرب مع تركيا دون أن تدعوهم تركيا. بدلا أن يقاتلوا تركيا لصالح إنجلترا. أنا يعجبنى إصرار لورانس. يعجبنى إيمانه بأن الفكرة المستحيلة تستحق المشى إليها. وقد أثبت إصراره نجاح الفكرة. لأنه عندما مشى إلى الفكرة المستحيلة ولم ينصرف عن التنفيذ لكونها مستحيلة أمسك بيده الفكرة المستحيلة.

إن الماشى في الصحراء يرى السراب يستحق السعى إليه. لو تصرفنا في حياتنا برغبتنا بأسلوب هذا الماشى في الصحراء. سنجد الماء حتماً. نعم أن الماشى نحو السراب لا يبخل عليه بجهده. ويطلبه مهما كانت الفكرة مستحيلة. هذا الإصرار نابع من قتاله من أجل الحياة. على كل منا أن يكون مقاتلاً من أجل فكرته المستحيلة مثل الماشى في الصحراء. يمشى إلى السراب لعله يكون ماء. لا يبخل في سبيل ذلك بأى جهد ولا أية محاولة. مهما كان متعباً. فالحياة تستحق القتال من أجلها.وإن كان الماشى في الصحراء تحركه روحه . كذلك يجب عليك أن تقاتل بالروح نفسها في سبيل فكرتك.

كما الماشى في الصحراء يمشى بإصرار نحو السراب كأنه يراه ماءً حقيقياً، كذلك يجب على الماشى نحو الفكرة المستحيلة أن يمشى إليها كأنها نهار حقيقي.

ولا يغيّر من المثال السابق أن المصرَّ عندما حقق فكرته كان بداية معاناة حقيقية للعرب، فالقيمة ثابتة لا يغيرها نوع مستعملها، وعلى العربي أن يطلب تلك القيمة، ووقتها يمكن أن يغير هو أيضاً التاريخ.

ولن نذهب بعيداً، فقبل لورانس بقرون فعلها خالد بن الوليد، هو أيضا اخترق الصحراء نفسها، والكل كان يقول إنه جنون، وحده كان يرى أن تلك الصحراء التى لم يخترقها أحد قبله، ولم يدخلها أحد وخرج من الناحية الأخرى يمكن دخولها والخروج من الجهة الأخرى. لكنه كان يرى الناحية الأخرى، ويرى نفسه قد وصل إليها، وبالفعل مضى بجيش يصل إلى ثمانية آلاف في تلك الصحراء التى لا توجد فيها قطرة ماء، لا ماء للإبل التى لو ماتت ماتوا . لا ماء سوى ما يحملونه معهم .

أصرَّ خالد على اختراق الصحراء ليلحق بجيش المسلمين في اليرموك، عطّش الإبل وقبل دخول الصحراء أمر بأن تشرب وهى ظمآى، وحمّلها بماء، فكانت الإبل دبابات مدججة بالماء من الداخل والخارج، ووصل في عدة أيام، بدلا من شهرين . ولم يكد يصل حتى تولى القيادة لينهى المعركة الحاسمة في تاريخ الإسلام ويسقط امبراطورية الروم التى عاشت في تلك المنطقة أكثر من سبعة قرون، وكان إصراره هو الخطوة الأولى في سقوط تلك الإمبراطورية مثلما جاء بعده بثلاثة عشر قرنا لورانس ليكون إصراره هو الخطوة الأولى في سقوط الإمبراطورية العثمانية.

لا نطلب منك أن تكون خالداً أو لورانس، ولو حدث فبها ونعمت، كل ما نطلبه شيء واحد أن تملك إصرارهما بإمكانية تحقق المستحيل في فكرتك الصغيرة، حتى لو كانت الفكرة الذهاب إلى صديق، لا تقنع نفسك أنه لن يكون هناك فلا داعى للذهاب، لا، اترك عدم وجوده هو الذى يخبرك بأنه غير موجود.

لقد ظللت ماشياً ست ساعات لأصل إلى عنوان لا أعرفه، بيت في شارع في مدينة نصر ، وأنا لا أعرف اسم الرجل، ولا اسم الشارع، ولا عنوان البيت في الشارع، كل ما هنالك أننى كنت سمعت اسم الشارع مرة، فمضيت أقرأ لافتات الشوارع، لعل إحداها تذكرني بالاسم الذى سمعته في هذه المرة العابرة، عندما قيل العنوان أمامى لآخر،ولم أهتم لأنى لم أكن أظن أننى سأحتاج لهذا العنوان.

ووصلت بعد أربع ساعات ونصف من المشى المتواصل إلى الشارع المنشود.كان اسمه على ما أذكر قرشى أو قرشم. كان ذلك في عام ١٩٨٥، وبعد أن وصلت كانت المشكلة مازالت قائمة، ففى أي بيت وفي أى شقة من تلك العمارات يسكن هذا الرجل الذى لا أعرف سوى اسمه الأول: محمد. قلت فلأظل ماشياً في الشارع غادياً رائحاً، لعل الرجل ينزل لشراء شيء. وهذا ما حدث في الساعة السابعة والنصف لمحته يخرج من إحدى العمارات، فمضيت إليه، وهو في ذهول كيف وصلتُ إلى بيته وأنا لا أعرف العنوان. لكنى في النهاية وصلت، وظل هذا الأمر أحد الأمور التى تسعدنى كلما تذكرتها. لأنها من الأمور التى تكشف عن جوهر الإنسان وتُعرّف الإنسان حقيقته. أما قصة هذا البحث فكانت تتلخص أنى كنت ذاهباً لزيارة عمي وأحب الناس إلى قلبى في مستشفى خاصة بمدينة نصر، وكنت وقتها في الجيش، حضرت حوالى الساعة الواحدة وأنا أنتوى قضاء اليوم عنده ثم العودة في الصباح الباكر إلى الوحدة، فوجئت من المستشفى أنه خرج، كنت أدرى أن أحد أقارب زوجته في مدينة نصر، فتوقعت أنه لابد قد ذهب إليه لأنه لا يمكنه التحرك كثيراً بعد المستشفى، وانتقاله إلى منزله في العاشر من رمضان قد يتعبه. عندما لم أجده وثقت أنه عند قريب زوجته هذا الذى لا أعرف عنه سوى اسمه الأول، وأنه يسكن في شارع سمعته يقوله مرة عابرة لأحد الأشخاص دون أن أنتبه له. قلت لنفسى هذا اليوم وهبته لهذا العم العزيز، أقضيه معه، مادمت لم أصل إليه، ومازال اليوم الموهوب لم ينته فلهب بقية اليوم في البحث عن البيت الذى انتقل إليه، وقررت أن أنفق الوقت الذى جئت لأقضيه معه في البحث عن بيت نسيبه هذا.

ووصلت إلى البيت مع ذهول نسيبه، الذى استقبلنى، وقال لى هو فعلاً جاء هنا ساعة، ثم أصر على العودة إلى منزلة برغم صعوبة ومشقة الرحلة إلى العاشر، ابتسمت، وفهمت، لم يشأ هذا العم الطيب أن يرهق هذا البيت بمن يأتونه للزيارة، فأراد أن يعود إلى منزله، فلا يثقل على صاحب البيت ولا يثقل على زائريه من زملائه وجيرانه. خرجت من البيت وأنا عازم على الذهاب إلى العاشر، ولم تكن ثمة مشكلة في ذلك، فأنا أعرف الوصول إلى وسيلة المواصلات، وأعرف عنوانه في مدينته التى يقيم فيها، وصلت قرابة التاسعة مساء، لا أنسى سعادته عندما عرف بالقصة، كان يكتم الضحك خشية أن الجرح يفك. ولم أبق سوى دقائق وعدت لأرجع إلى وحدتى قرابة نصف الليل. في رحلة بدأت في الواحدة ظهراً. وانتهت في منتصف الليل. لكنى كنت في غاية السعادة وأنا أضع رأسى لأنام. لا، لست وحدى كان عمي سعيداً، أنساه إعجابه بي آلامه، أتدرى، كنت كلما ذهبت لزيارته يرحمه

الله يقدمنى لأصدقائه بتلك القصة. يقول لهم ذهب إلى نسيبى في مدينة نصر وهو لا يعرف عنوانه.

هذا ما أريده وقد حكيت تلك القصة حتى لا تظن من الموقفين اللذين أسقطا أطول امبراطوريتين أن الأمر في نطاق المواقف الكبرى وحسب. لا. لقد مشيت من الساعة الواحدة إلى السابعة لأصل إلى البيت ثم لم أجد الرجل هناك. لكنى في النهاية صممت على الوصول ووصلت.

يومها اكتشفت أننا نعاني كثيراً في سبيل الوصول لهدفنا ونتحمل التعب من أجل لحظة السعادة التى نجنيها عند الوصول إلى الهدف ولا ندرى أن لحظات السعى للهدف هى لحظات السعادة الحقيقية. أو كما قيل في إحدى الحكايات عن مجموعة خرجت تطلب كنزاً. فبعد رحلة طويلة اكتشفوا أن الكنز هو الرحلة نفسها .

ولقد تكرر معى هذا الموقف مرات عديدة. فلا أنسى أني نزلت من بيتى الساعة الواحدة والنصف وخمس دقائق وأنا أريد أن أصل إلى مصلحة حكومية في مدينة المنصورة تغلق أبوابها الساعة الثانية. والمسافة بين بلقاس والمنصورة نصف ساعة. وبين بيتى والموقف خمس دقائق. وصلت إلى الموقف الساعة الثانية إلا الثلث. قابلنى زميل رآني متعجلاً. فقال لي إلى أين: أخبرته. قال لى لن تلحق.. قلت له: سألحق بإذن الله. تعال معي.. مازال هذا الصديق يتعجب. كيف وصلنا. وتمت المصلحة..

أنا أمشى. ولا أحكم على نهاية الطريق. أترك النهاية لانتهاء المشى. الخطوة الأخيرة هى التى تقرر وصلت أم..بلغة الكرة أنا من مذهب الجرى وراء الكرة حتى لو كان العقل يقول لن ألحقها. لعل طوبة توقفها. لعلها تصطدم في رابة الزاوية.. وأكاد أومن أن من يجرى وراءها قد تعجب به وتقف له. أقصد قد تبحث عن طوبة لتصطدم بها من أجله.

﴿ ٤ ﴾

الإنسان المميز ابن بيئته الخاصة. التى يمكن أن نسميها البيئة المقروءة. تأخذ من تلك الشخصية خيطاً ومن تلك خيطاً ثم تنسج لنفسك شخصيتك الخاصة التى إذا مشت على الأرض قال الناس هذا متفرد. ليس من زمننا. إنه من الزمن الجميل أو آخر الرجال المحترمين.

ولقد وجدتنى لا أقرأ شيئاً جميلاً إلا وعجزت أن أقاوم دخوله في نسيج شخصيتي.. في مرة قرأت عن أبي حنيفة صديقي الأثير أنه كان يمشى فسمع الناس الذين يمر من جوارهم يشيرون عليه ويقولون هذا رجل صالح، إنه لا ينام الليل، يظل طيلة الليل قائماً. لم يكن أبو حنيفة يفعل ذلك، لكنه عندما سمعهم يقولون ذلك حتى قرر ألا يمضى عليه يوم إلا وهو قائماً بالليل يصلي، وقال: من أحسن فيك الظن فصدّق ظنه. بعد ما قرأت ذلك آثرت بعدها ألا أسمع أن الناس تظن بي شيئاً جميلا إلا كنته. وأصررت أن أكون مثله عند حسن ظن الناس بي.

قرأت قصة معن بن زائدة التى يأمر فيها خادمه أن يعطى كل ما معه للإعرابي الذى أكرمه فلما راجعه الخادم بأن الإعرابي الذى لا يعرفه يرضى بأقل من ذلك . لم يستطع مَعنٌ أن يختفى من نفسه، وقال قولته التى أعشقها: إن كان لا يعرفنى فأنا أعرف نفسى، وإن كان يرضيه القليل فأنا لايرضينى إلا الكثير.من وقتها وأنا أتربي بهذاالخلق. وأصر أن أكون نفسى حتى لو لم يكن الناس يعرفونني.

وعندما سمعت بعبارة كوليدج: **أنا لم تجرحني إساءة قط ما لم تكن صادرة منى** أصبحت لا أحفل بإساءات الآخرين عني. وهكذا لذلك أنصح بالقراءة حتى تجد الجينات التى تحب أن تتشكل منها.

وكذلك عندما قرأت تعريف سيد الخلق: واضعاً للناس مقياس الإيمان: إذا سرتك حسنتك، وساءتك سيئتك فأنت مؤمن. عندما قرأت هذه القولة أصبحت أكثر حرصاً أن أزيل أى ضيق لمعروف فعلته وكبدنى كثيراً. لقد أعطيت من وقتى الكثير لإنسان لا يستحق، لكنى فعلت، أصبحت أكثر عزيمة على طرد أى وسواس يداخلنى بالضيق، تدربت أن تسرنى الحسنة. أما الأخرى فالحمد لله موجودة.

والخطوة الأولى في النبل أن تحب أن تكون نبيلاً، ولا تستبعد الطريق، فكم من أشياء نجدها بعيدة جداً، ثم بالسير والوقت نجد أنفسنا عندها.

﴿ ٥ ﴾

إن الناس في حد ذاتها لا تبهر، ما يبهر هو الموقف . فالناس بلا موقف لا يساوون شيئاً، والموقف عملة تقاوم الزمن، لا يصدأ، ومهما مضى الموقف يظل بنضارته ونقائه. ويعظم الموقف دائماً إن هانت المادة أمام المعنى.

يحكى عن عبد الله بن عمر أنه كان يحب السمك، والسمك نادر في الجزيرة العربية، وتسعى زوجته لتحصل على سمكة، لأنها رأت في زوجها حباً للسمك، فحصلت على واحدة، وهي تعدها له، يطرق على الباب طارق، يسألهم عطاءً، فيقول ابن عمر لزوجته:

ـ أعطيه السمكة..

ـ إن لدينا لحماً قد يحبه عن السمك.

ـ لكني أحب السمك. أعطيه مما أحب..

ويأخذ السائل السمكة، وتخرج الزوجة وراءه، تشتريها منه بدرهم، ولم تكد تدخل، حتى يطرق الرجل الباب ثانية، يعاود طلب الإحسان، ومجدداً يحصل على السمكة. وثانيةً تخرج الزوجة وراءه تشترى منه السمكة مرة أخرى.

وفي المرة الثالثة، تخرج إليه بالدرهم، وتستحلفه بالله ألا يعود إليهم الليلة، ويخرج الرجل وقد أشفق على عبد الله بن عمر . وتعود بالسمكة، فيبتسم ابن عمر ويقول:

ـ لقد سمعت النبي ﷺ يقول: **إيما رجل اشتهى شيئاً وآثر به غيره إلا غفر الله له.**

وصدق ابن عمر فقد قال رب العزة ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ [1]﴾. ولأجل ذلك كان ابن عم النبي عبد الله بن عباس لا ينفق إلا مما أحب.

وهذه أسماء بنت أبي بكر، التي ذهب ابنها يودعها وهو على وشك الموت، فحثته على الموت حتى لا يخون أصحابه الذين ماتوا لإيمانهم به. وذاك سعيد بن المسيب يرفض خطبة الخليفة عبد الملك بن مروان ابنته لابنه ولي العهد الوليد. ولا يكتفي بالرفض، بل يزوجها على درهمين لرجل فقير هو كثير بن أبي وداعة . ولما سئل في ذلك قال: أريد لابنتي رجلاً لا يفقدها آخرتها.

ومادمنا نقرر أن الإنسان بالموقف، فلنقف مع هذه المواقف للرجل الذي قال عنه خاتم الأنبياء: لو كان بعدي نبي لكان عمر بن الخطاب:

الموقف الأول: عندما شرب ابنه الخمر، لم يدافع عنه، بل علم أنه جُلِد سراً، فأرسل يستدعيه على وجه السرعة، دون راحة في طريق، فلما حضر بدأ جلده مرة ثانية، وعندما قارب الحد على الانتهاء، صرخ الابن: إنك لقاتلي، فيقول له عمر: بلّغ رسول الله ﷺ إن أباك يقيم الحدود . يقول له الابن إنك ستقتلني، فلا يبكي عمر، ولا يأخذه في أحضانه، بل يقول له: خذ هذه الرسالة معك لرسول الله ﷺ .

---

(١) آل عمران: ٩٢

الموقف الثاني: عندما أسلم جبلة بن الإيهم ملك الغساسنة، وحضر إلى عمر، فداس أحد العوام على ثوبه، فضرب الرجل، فاشتكى الرجل إلى عمر، فطلب عمر من الملك أن يرضى الرجل وإلا اقتص منه. وذُهل الملك عندما فهم أن عمر قد يأمر الرجل أن يضربه. واستمهل الملك عمر إلى الغد ليهرب في الليل،ويرتد عن الإسلام، لم يحفل عمر بأن يزيد الإسلام واحداً، بل اهتم بتحقق العدالة ؛ لأن العدالة جوهر استمرار الإسلام، أما تملقُ شخص فقد يزيد الإسلامَ واحداً فى لحظة مؤقتة لا تلبث أن تزول، فالمبدأ أو الجوهر أكثر بقاءً من الأشخاص ؛ لأن الجوهر باقٍ إلى الأبد، والشخص فترة مؤقتة. حرص عمر على تحقق العدل، والعدل أساس الملك.

الموقف الثالث: عندما اشتكى قبطي مما فعله به ابن أمير مصر عمرو بن العاص، فوقف الفاروق عمر يمكّن القبطي من ابن الأمير المسلم ويقول له: اضرب ابن الكرمين، وبعدما اقتص الذمي لنفسه، قال له: فاضرب صلعة أبيه (يقصد عمرو بن العاص أمير مصر)، فقال له الرجل: ما فعل معي شيئاً، ابنه الذى فعل، وقد أخذت حقي منه، قال عمر: لولا سلطة أبيه ما فعلها الابن، لكن القبطي لم يفعل مكتفياً بأنه أخذ حقه الذى ما كان يجرؤ على طلبه لو كان الروم مازالوا يحكمون مصر.

الموقف الرابع: رأت امرأة حبلى عمر، فتتملكها الرهبة من هيبته، فسقط حملها، فجمع الناس وقال لهم هل عليّ من دية ؟ فقالوا له: لا، أنت لم تفعل شيئاً، يريدون العيب عيبها هى التى تمتلك قلباً خفيفاً. فيقول له على بن أبي طالب، بلى عليك دية، فهل يسقط حملها لو كانت قابلت غيرك ؟ وهنا يستجيب عمر ويدفع دية الجنين الذى تسبب في سقوطه.

الموقف الخامس : وهو يدخل القدس مع خادمه، الذى يتناوب معه ركوب البغلة، ويصر أن يركب الخادم في دوره برغم ان تلك هى المحطة الأخيرة التى سيراهما فيها الناس المنتظرة لحضور الخليفة الذى ستفتح له أبواب القدس، فإذا به يأتيهم بثوبه الذى يحمل ثماني عشرة رقعة، ويجر البغلة للخادم. ويقول له أبو عبيدة معاتباً: ما كان يجب عليك أن تفعل ذلك فنحن أمام عدو يحب التباهي، فيقول له: **لو غيرك قالها يا أبا عبيدة، لقد أعزنا الله بالإسلام، فلو ابتغينا العزة في غيره أذلنا الله**. ويأتون له بثياب جديدة ليقابل بها البطريرك صفرنيوس لكنه يأبي إلا ثيابه المرقعة، ولا يدرى ولا يدرون أن تلك علاماته في التوراة، وأن القدس لا تفتح إلا لمتواضع، فلو لبس الملابس الجديدة ما فتحت القدس إلا بحرب.

الموقف السادس : تأتى صلاة الظهر، وعمر داخل كنيسة القيامة. فأراد عمر الخروج ليصلى الصلاة خارج الكنيسة. فعرض عليه البطريرك صفرنيوس أن يصلى داخل الكنيسة. فأبى عمر.وقال أخشى فيما بعد أن يأتى أحد من ملوك المسلمين فيقول هنا صلى عمر.ويأخذها منكم فيبنيها مسجداً. انظر أنه لا يحسن معاملة أهل الذمة في حياته فحسب، بل يحرص عليهم في مستقبلهم.

الموقف السابع : يعزل خالد بن الوليد بعد سلسلة من أروع الانتصارات التى يحققها قائد. وهو سيف اللله المسلول. فيسأله خالد: أتغمد سيفاً سله الله ورسوله ياعمر ؟ وهنا يعرض عليه عمر: تعهد أمام الناس أنك لن تطلب الخلافة من بعدي وأنا أعيدك قائداً عاماً على جيوش المسلمين. ما أعظمك ياعمر ! يخشى على المسلمين بعد وفاته. ويريد أن يستوثق من خالد أنه لن يستغل الجيش في الحصول على الخلافة. فلو وعده بذلك أرجعه إلى قيادة الجيش. فإذا لم يعده. لا يترك في يده سلاحاً يحصل به على الخلافة بدون رغبة الناس. فمادام يريد الخلافة فليحصل عليها بقدراته لا بجيش تركه عمر في يده . ورفض خالد أن يتعهد بعدم طلب الخلافة. لأنه يريدها من بعد عمر. والعجيب أن خالداً يموت قبل عمر. ويصلى عمر عليه وهو يشهد بأن النساء عقمت أن يلدن مثله. فلم يعزله إلا لحرصه على أمر المسلمين بعد وفاته.

﴿٦﴾

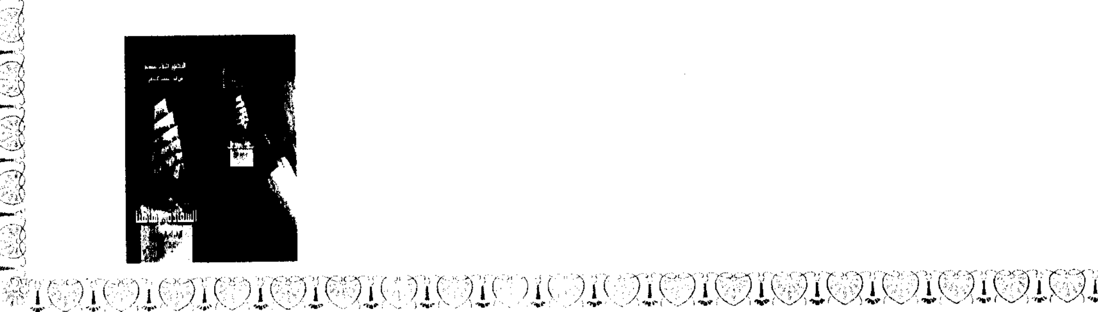
واحرص ألا تتوحد بمن يضايقك تصرفه. فإفرازات الآخرين السوداء إذا نالت من النفس تلوثها. ودون أن تدري قد تفعل مع غيرك ما فُعل معك. لا تسمح للغبار أن يدخل إلى نفسك فيلوث نفساً نقية تألمت من سواد نفس أخرى. لتجد نفسها دون أن تدرى مثلها. فما أكثر ما نتوحد بعدونا ونستبيح لأنفسنا أن نستعمل وسائله. وعلينا إذا اشتد الوحل حولنا. فلنغرس فيه زهرة. وأن لا يؤلمنا غدر الآخرين. بل يكون مدعاة لفخرنا لأننا لم نكن الغادرين. كالسحاب لا يضره نباح الكلاب.كالشمس تظل نقية مهما مرت على أماكن غير نظيفة . كالنور يظل نوراً حتى لو كان ضئيلاً وسط مملكة من الظلمة. ألا تري أن شمعة صغيرة لا تطفئها آلاف الأطنان من الظلام ؟؟ بينما يظل المعدن الردئ رديئاً مهما جلوته.

إن الإنسان زمن. ولا يستقيم أمره إذا تناقض الزمن فيه. فإذا اتسق الإنسان الزمنى مع يومه الذى يعيشه. كان هذا أقرب إلى الفطرة مثلما لو كانت طبيعته ترابية كان أقرب

إلى الفطرة. لكنه لو انشغل عن يومه بزمن آخر فات أو يأتي ما أحس بتوافق، لأنه يُشد بعيداً عن نفسه.

وإذا أردتَ أن تتجنب ما يعكّر عليك حياتك، فلا تكن عوناً عليك، إن الإنسان يصبح أكثر أعداء نفسه شدةً إذا انشغل بزمنين، الأمس والغد. فاحرص يابني على استقلالية يومك، فلا تسمح للأمس باستعمار يومك، ولا تسمح للغد باحتلاله، الأمس يستعمرك بالندم، والغد يستعمرك بالوهم، والندم والوهم حائطان بينك وبين نفسك، لا تلبث أن تجد نفسك سُرِقَتْ منك.

وتفسير ما سبق: إن الغد ليس من شأنك، وكما يقول الإمام على **إن يكن من عمرك يأتك رزقك.وإن لم يكن فلا تشغل نفسك بما لا تعيشه.** فكن ابن يومك. وإن كنت تحفل بالماضى فاليوم هو ماض بالغد، فاحرص عليه، فلو حرصت كل يوم على يومك ماكان لديك ماضٍ لا ترضى عنه.



(الكلمة الرابعة العاشرة)

الشيطان ليس في بيتي

الكلمة الرابعة عشرة:

الشيطان ليس في بيتي

الابن الحبيب..

على خلاف كل ما كتبت سأحدثك عن الأشياء القبيحة. تعال أصحبك في رحلة عكسية. رحلة تستظهر القيم السلبية. فإن كنا نبتغى القيم الحسنة دستوراً لحياتنا. فنحن على الجهة الأخرى نحتاج إلى أن ننفر من القيم السيئة. نحتاج أن تكون نفوسنا قلعةَ تستعصى على هجمات الصفات السلبية.



أيخون إنسانٌ بلاده ؟
إن خان معنى أن يكون
فكيف يمكن أن يكون ؟

أبيات لبدر شاكر السياب شاعر العراق العظيم. فالخيانة أقبح ما فى الوجود. الخيانة تنفى الوجود. الخيانة كالعار لا يمكنك معه الاستمرار. وغالباً يلقى الخائن جزاءه. ربما من الذى خان لأجله ؛ لأن هذا الأخير هو أدرى الناس بأنه لايصلح. فى السيرة الهلالية. خانت سعدى بنت الزناتي خليفة أباها لتتزوج مرعى أحد أعداء أبيها. وساعدت فى مقتل أبيها لتفوز بحبيبها. لكن ماذا كان الجزاء؟ دياب قاتل أبيها اعتبرها من نصيبه. فلما ألحوا عليه أن يعطيها لمرعى. عرض أن يقام سباق بينهم. وتكون هى الجائزة. وفاز دياب. لكنه بمجرد أن وصل إلى خط النهاية لم ينتزعها إلى قصره. بل جزلها نصفين. لينهى المساومة عليها بعد ذلك. ولاقت البنت التى خانت وطنها وأباها جزاءها على يد من خانت لأجلهم.

وفى القصص العربية قبل الإسلام قام ملك الفرس نيسابور الشهير بذى الاكتاف بغزو حصن عربي اسمه حصن الحضر وكان ملك الحصن يدعى الضيزن. وله ابنه جميلة اسمها **النضيرة بنت الضيزن**. واستمر ذو الاكتاف يحاصر الحصن دون جدوى حتى كاد أن يرحل. وتطل النضيرة من فوق الأسوار لترى الملك بجثمانه الهائل. يعجبها وتتمنى أن تتزوجه. فأرسلت إلية جارية لها تعرض علية صفقة: أن تدله على الطريق إلى دخول الحصن مقابل أن يتزوجها وتصبح ملكة. ويدخل العدو الغازي الحصن العربي. لكطنه يوفى بوعده ويتزوج

النضيرة، التى مكنّته أن يدخل مدينتهم على جثة أبيها وبعض حراسه.

و فى ليلة، لا يأتيها نوم، يصيبها الأرق، ويبحثون عن سبب أرقها، ويفضون وسادتها، فلا يجدون فيها إلا ورقة صغيرة من ورق الآس وسط ريش النعام، كان حفيفها يمنع نومها، فلما رفعوا الورقة، نامت. فى الصباح سألها الملك عن حياتها أيام أبيها، تلك الحياة التى أوصلتها أن تشعر بورقة صغيرة ضائعة وسط الرياش، فحكت له عن النعيم المقيم الذى كانت تحياه، وكيف كانت تشاء فيتحقق لها ما تشاء، فيصرخ الملك فيها:

- يفعل أبوك لك كل هذا ثم تخونينه .. وتتآمرين على قتله، وأنا لم أفعل لك شيئاً من هذا .. فما يجعلني آمن لك ؟؟ وما أدراني أنك لن تخونيني أنا أيضاً مادمت قد خنتِ من أعطاك كل هذا النعيم؟؟

وأمر بها فُربط شعرها فى ذيل حصان، وأمر بالحصان فضُرب بالسياط، لينهب أرض الساحة، ولا يتوقف السائس إلا بعد أن لفظت أنفاسها. وهكذا ماتت الخائنة على يد من خانت كل شيء لأجله . وكذلك كل خائن.

وفى الأساطير اليونانية أيضا نجد سيلا ابنة نيسوس ملك ميجارا Megara، عندما هاجم مدينتهم مينوس Minos ملك كريت Crete . أعجبها الملك وهى تنظر من فوق الأسوار، وكانت تدرى أن مدينتهم لن تنهار أمام حبيب القلب إلا بعد موت أبيها، وهيهات أن يموت أبوها إلا لو نزعت من رأسه شعرته الذهبية، وتتسلل الابنة ليلاً إلى أبيها لتنزع شعرته، وتنزع معها حياته، وتستسلم المدينة، لكن الملك المغير كان نبيلاً، فرفض أن يتزوج ابنته، وقال من تخون أباها لا آمان لها. إننا لا نطيق رائحة الخيانة، فكيف يتحمل الخائن رائحة نفسه.ربما يتحملها ؛ لأن أنفه أيضاً تعفنت.

القصص السابقة ترسخ معنىً مهماً هو أن الغاية ليست الغاية.. بل هي الوسيلة لا تنظر إلى الغاية التى وصل لها الإنسان بل انظر إلى الوسيلة التى سلكها ليصل إلى هذه الغاية.. والنضيرة لقت جزائها بسبب سوء وسيلتها. وما أروعك ياسياب وأنت تقول :

إنى لأعجب كيف يمكن أن يخون الخائنون؟

أيخون إنسانٌ بلاده ؟

إن خان معنى أن يكون

فكيف يمكن أن يكون ؟

﴿٢﴾

يقول المثل: **لا تعاشر الظنان، ولا تاكل خبز المنان.** إن المثل يكشف أن الظنان يجعلك حياتك جحيماً، لأنك في نظره متهم بأشياء لم تفعلها. والمنان يظل يعايرك بما أعطاه لك. فحتى لو كان خبزه يقيم أودك فأنت في غنى عنه.

ما أروع قول ربي: ﴿إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ يَٰٓأَيُّهَا. أكاد أجزم أن المقصود بهذا الظن المنهى عنه هو الظن الذى تبني عليه أحكاماً. لكن فلتظن ما تشاء، مادمت لا تبني أحكاماً.. أما من يبني أحكاماً على ظن فهو يبنى بيوتاً عنكبوتية لا أساس لها، فإن أبجدية الصواب افتراض العكس. هلا سألت نفسك ماذا لو كان هذا الظن غير صحيح؟ لو كان هذا الظن غير صحيح لكان إثماً. ومن الأحرى تجنب الإثم. فماذا لو كان صحيحاً؟ لن أخسر كثيراً لأني لن أنخدع.

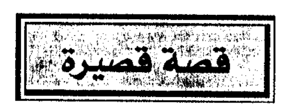
إنْ قيل لك فلان يكرهك. حسناً، لا تطمئن إليه، لكن لا تتخذه عدواً. لو لم تطمئن إليه لن يخدعك، لكنك لو اتخذته عدواً، وبدأت محاربته فقد أقمت على الظن حكماً، ومن ثم فهو الإثم. وقد تواجهه بظنك، فلا ينكر؛ ذلك لأنه قرر أن يخسرك عندما صدمه شكك فيه. ووقتها سيقول المخلص المظنون فيه: إن يخسرني يخسر مخلصاً وإن أخسره أخسر شكاكاً. أتذكر معنىً لعله كان بيتاً من الشعر: وإذا رأيت الجميلة تولى بوجهها عن حبيبها، ثم لا تُطلب، فاعلم أن الحبيب منها هارب.

وانظر إلى التعبير القرآني، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ لقد وصف بعضية الظن بالإثم، ثم عندما أمر بالاجتناب أمر باجتناب كثير الظن لا بعضه.

كتبت قصة اسمها **الشك أخى**، تتحدث عن شاب لاحظ أن أخاه الأكبر الذى رباه ثم تزوج شابة صغيرة في مثل عمره. قد انتبه إلى أن أخاه يخاف أن تعجب الزوجة الصغيرة به، وعندما انتبه لذلك بدأ يتأكد من حدسه ويحتاط له، فلا يذهب البيت إلا ويمر عليه أولاً، فإذا دخل البيت تعمد أن يترك الباب مفتوحاً لأنه يدرى أنه قادم وراءه أو يأخذ في الصلاة. رأى أخاه يتعذّب، فكّر أن يرحل، لكنه خشى لو فعلها أن يتقين أخوه من شكوكه فيظن أنه هرب عندما أحس بانتباه أخيه للأمر.

ولما أنجبت رأى أخاه يردد النظرات بين وجهه ووجه الوليد. تمنى لو يستطيع أن يقسم له أنه لم يخنه، وأن امرأته لم تعرف سواه. وكان يزيد الطين بلة أن الزوجة الصغيرة على فطرتها تضحك مع أخى زوجها، وتنادي طفلها وتقول له اذهب إلى بابا فلان، تقصد عمه.

ولم يعد الزوج يحتمل، فترك الحياة لهما ومضى، كاتباً خطاباً لأخيه بأنه قد تمزق بينه وبين زوجته، وأنه لم يعد يحتمل لأنه لا يستطيع أن يقتل ابنه، لهذا آثر الرحيل، طلقها من أجله، ومضى تاركاً ابنه الذى يثق أنه ليس ابنه. ووقف الأخ متحيراً بين زوجة أخيه المظلومة وابنها. يتخلى عنهما أم يتزوج امرأة أخيه ويسترها ويكفل ابن أخيه ويرد لأخيه بعضاً من معروفه عليه، أم لا يفعل ويتخلى عنهما حتى لا يثبت التهمة على نفسه. واضطر الأخ المتهم أن يتزوجها ليستر زوجة أخيه البريئة، ويربى ابن أخيه، وهو يثق أنه بذلك يثبت التهمة على نفسه. وأن الأخ الذى لابد يتابع أخبارهما من بعيد قد تأكدت ظنونه فيهما، وأنه محق في وساوسه التى لا أساس لها من الصحة، فقط منعت عنه السعادة، وهدمت بيته.



الشك أخي..

لم يكن مجرد أخ، بل كان أبي بعد وفاة أبي، برغم أن ما بيننا سبع سنوات فقط، لم أحس بسور بيننا قط، حتى تزوّج وجاءت امرأة بيتنا، امرأة في مثل سني، يخرج إلي العمل، وأبقي أنا أذاكر في البيت، لم يغب عن بالي السور الذي ولد بيننا بعد زواجه..

كثيراً ما يجلس أمامي وتذهب عيناه بعيداً، أحس بما يعانيه، صراع بين ثقته فينا، وبين سيطرة شك قاتل كثعبان يلتف علي ضلوعه. أقرأ ما يعانيه، ولا أقدر أن أفعل شيئاً، أ أنفي له أم أكون كمن يقدم له الدليل علي ما يشك فيه ؟؟

لابد أنه يخشى أن يكون تعليمي العالي دونه قد فتنها، أن يكون السن المتقارب، والتواجد الطويل معاً، وحسن تعاملي معها، ثم استغراقي في التفكير في هذا الموضوع كلما رأيته مهموما يظهرني مشغول البال، كل هذا يظهرني له متغيرا...

لا يملك أن يعاقبني، ينتظر دليلاً، بينما يستطيع أن يعاقبها دون دليل، عندما يعاقبها علي جريمتها في نظره بأن لا يغفر لها أشياء صغيرة، يفتعل شجاراً، وأمامي أن أتدخل فيتأكد من دفاعي عنها من شيء في رأسه، أو لا أحفل فيفسر أنني لا أفعل ما يجب أن يحدث لأبعد الشك عني..

أصبحت أحضر من الكلية فأمرُ عليه أولاً، كأني أوقّع في دفتر الحضور، ثم أعود إلي البيت، وأنا أترقب أنه سيحضر بعد قليل، أترك الباب مفتوحاً، وأجلس في مدخل البيت أضع أكلاً أمامي وأبدأ في تناوله . بمجرد أن يحضر يفتعل حجة .. ويأخذ شيئا ثم يمضي..

مرة أخري، وجدني أصلي.. كنت دوماً أتعمد أن أنهمك في شيء، فالزوجة حسنة النية علي جهل تام بالمباراة الدائرة بيننا، تعتبرني أخاها، ولا تري ضرراً أن تمزح معي، أن تجري ورائي، تقذفني بالمياه أمامه، تدفعني بيدها،

تختبئ لتفزعني. تضع لي في الشاي ملحاً.. أشياء لها تفسير آخر..

وكنت أثق أنني السبب في جفائه معها. لذا لا أقدر أن أكون جافا معها أنا أيضا. وبرغم أني أدري أن هذا يزيد اعتقاده إلا أني كنت أري أنها لا ذنب لها..

فكرت كثيراً أن أرحل. حتى قبل أن تنتهي سنوات دراستي. وخشيت أن يفسر ذلك بأني فهمت اكتشافه سرنا..

عندما اشتد عليها في شيء تافه. قذفتها في وجهه . أنه ليس حنونا مثلي. وقتها صمت وكأنه عثر علي دليل. ولم يفتني تأثير اللفظة عليه. لكنه ابتلعها. ولو كنتُ مكانه لبرأتها. فما كان لعاشقة أن تفضح سرها..

وزاد الطين بلة. أن الحياة بدأت تدب في بطن الزوجة. كأنها لم يحلُ لها الحمل إلا هذه الأيام. ماذا لو انتظرت قليلاً. حتى تنتهي دراستي وأتركهما إلى الأبد. وأريح أخي. أصبحت أتضايق من حضور وليده. وقد كنت أترقبه لأرد الجميل له..

عندما وضعت طفلاً. رأيته يتملى بالنظر إلي الطفل. يتصنَع أنه سعيدٌ به. وهو يقرأ ملامحه. ثم يختلس النظرات إليّ. لا أملك إلا السكوت. أحس أنه يمهد لطلاقها. عقاباً لها علي جريمة يظن أنها ارتكبتها. والظاهر للناس أنه يطلقها لأنه ليس علي وفاق معها. فالتناحر بينهما مستمر. والجيران دوماً تسمع زعيقاً علي كل صغيرة أو كبيرة.. حتى صارت المسكينة لا تحتمل. وتثور بدورها سريعاً. لأنها لا تفهم شيئا.. وهذا يساعده في مخططه الذي ينشده ليتخلص من شكه الذي يكاد يقتله. أصبح الأمر مخيفاً. وأصبحتُ كعاجز الحلم..

أخشى أن أُظهر حبي للطفل. وأصد نفسي عنه. رغم أني أحب الأطفال وخاصة ابنه الذي جاء جميلاً. والحمقاء تداعب ابنها وتقول له اذهب إلي بابا "صفوت"..وألعن في سري اسمي. ولا أملك إلا افتعال الفتور.وأدري أنه رجَح ابتعادي ونفوري من "طفلي" إلي ما يعرفه من ذكائي. وأنها محاولة تضليل له..

وبالفعل طلّقها. لكنه لم يطردها عن حياته. بل رحل إلي حيث لا ندرى. وترك لي ورقة تقول لي بأسى قاتل:

- لم أستطع أن أفعل شيئاً لأني أحبك. وأحبها.. لهذا بعد تفكير طويل. قررت أن أرحل أنا عن حياتكما..

أخوك..........

بحثت عنه طويلاً. وكثيراً. لم أترك مكاناً إلا وذهبت إليه دون جدوى. قدمت لها ورقة الطلاق. وأخفيت أمر الخطاب..

تزوجتُها وأنا أبدو للناس كأني أعالج هرب أخي المفاجئ. وأستر زوجة أخي وابنه. وعاشتْ معي سعيدة. أجتهدُ أن أعوضها كل جفاء لاقته دون ذنب لها. ولا أنسى أنها زوجته. وأن عليّ أن أقدم لها قرابين تكفير كل يوم عن خطيئتي في حقه. وعاشت لا تدري إلا أن أخي كان قاسياً وأنا شديد الحنان. لكنها كانت لا تقدر أن تتحدث عنه أبداً بسوء. فقد كانت تقف علي شدة حبي له وتدري أن مجرد الحديث عنه بسوء يضايقني. وكانت تجتهد أن تسعدني..

أدري أنه تجسّس أخبارنا. وعلم باستقامة الحياة بيننا. وأدرى أنه تأكد أن ظنه فينا على صواب. ولعله راضٍ عما فعل. ويدعو الله لي أن يغفر لي. ويتمني لو كنت بريئاً.



إن الظن السيء يعكّر على الفاعل والمفعول حياتيهما. فلا الظان سعيد. ولا المظنون فيه.

فإياك أن تجعل أذنك أرضاً خصبة للشيطان ليزرع فيها وسوسته، وقتها ستظل الأرض ملكاً له، وسيظل الزرع نفسه. هذا الزرع الذى يرعاه صاحب الأرض فلا يجنى منه سوى شوكه. إن الشيطان إذا استلم إنساناً عكّر عليه حياته، ولعل هذا هو ما حدا بالشرع ألا تحفل بالوسوسة في الوضوء، فجعلك على وضوءك وإن شكّك الشيطان في ذلك مادمت لا تستطيع أن تقسم أن وضوءك قد نقض. فلم يجعل الشك دليلاً على نقض الوضوء، بل اعتبر العجز عن اليقين دليلاً على دوام الوضوء.

إذا أسأت الظن في صديق، فكذّب نفسك، لأنك وقتها تكون غير قادر على الصداقة، فلن تسعد بصداقتك، ولن يسعد بصداقتك أحد. فالظن لا يصلح أساساً لبيت إلا إذا نفعت خيوط العنكبوت. وبذلك يظل عدم الحكم الظني المبدأ الأول في السعادة مع الآخرين. فلا تحكم بتخمين، لابد أن تكون الحقيقة واضحة بأدلة قاطعة.

هناك فيلم مصرى اسمه المجهول امتلأت فيه البطلة (قامت بالدور سناء جميل) بحقد على البشر لأنها فقدت ابنها، وبدأت تقتل الناس فى فندقها البعيد حقداً لفقد ابنها. كل من ينزل عندها من نزلاء تقتلهم ثم تسلبهم حاجياتهم، آخر نزيل أرسلته إلى الموت، اكتشفت من أوراقه أنه ابنها الذى فقدته وهو طفل، قتلته بيدها دون أن تدرى . هذه هى القصة هى تجسيد لقصة الإنسان مع السعادة، تكون في يده ويظل يبحث عنها، ويخنقها حنقاً لعدم عثوره عليها.

وثمة رجل فى الأساطير اليونانية ظل ينتظر ابنه الغائب ولا يقطع الأمل فى عودته، ظل ينتظر أن تعود السفينة وقد رافعت الراية البيضاء بشارة عودة الولد، ويعود الولد بعد أن قتل الوحش، لكنه ينسى أن يغيّر الراية كما اتفق مع أبيه، عندما يرى الأب أن الراية ليست بيضاء قتل نفسه ولم ينتظر أن ترسو السفينة، ولو انتظر لرأى ابنه على ظهرها قد عاد منتصراً . فكم يبنى الناس حياتهم على وهم.

ويحكى أن رجلاً حضرته الوفاة فقيل له: قل لا إله إلا الله، فكان يقول لا، فلما افاق ذُكر له ذلك، فقال: أتاني شيطان عن يمينى وعن يسارى يقول أحدهما: مت يهودياً فإنه خير الأديان، والآخر يقول مت نصرانياً فإنه خير الأديان، فكنت أقول لهم: لا، لا..

كان الرجل إذن يقول لا، للشيطان داخله، لا للناس حوله. فلو مات قبل أن يفيق لظنوا ظناً قاطعاً أن الرجل قد هلك ومات على غير دين الإسلام. لو أخبرت أحداً أن ثمة ميتاً قيل له: قل لا إله إلا الله محمد رسول الله، فقال لا، لا، ثم لفظ آخر أنفاسه، فهذا الرجل لن يصلى على هذا الميت..

﴿ ٤ ﴾

إن أسوأ عيب يمكن أن يتصف به إنسان هو الجحود، فى رأيى أن الجحود درجة من درجات الكفر ولذلك يغفر الله كل الذنوب إلا الشرك به، لأن الشرك جحود.

الجحود جلد عفن، أو هو مثل جثة، يصبح الإنسان ذا رائحة كريهة لا يتحملها أحد. عن نفسى قد أسامح فى أى شىء، إلا الجحود، لا أتحمل رائحته أو رائحة صاحبه .

إن جحود الناس، يدفعنا إلى الكفر بهم ، ويردنا إلى الإيمان بالله، لو كنا نفعل هذا الشيء لأجل الناس، فمنطقى أن يؤلمنا جحودهم، لكن لو فعلنا الخير للغير ابتغاء وجه الله، فلو قوبلنا بجحود من الناس، لم يضع المعروف، وما أكثر ما تصدمنا الناس التى نُحسن إليها، إذن فليكن الإحسان إليهم ليس باسمهم، أرأيت أن كثيراً من المحن ليست محناً فى الحقيقة، بل هى رزق من الله، يعلمنا فيها الحقيقة التى تعصمنا من الألم، يخبرنا أننا يجب ألا نطلب وجه الناس بأفعالنا، فما جحودهم إلا خير، لأنه ردٌّ لنا إلى الصواب، إلى أن الطريق ليس الناس.

كثيراً ما تألمت أن تكون النتيجة لكل ما فعلته من أجل شخص ما هو هذا الجحود، وهذا الإيذاء، وقتها تبزغ شمس الحقيقة فى نفسى، لأني كنت ضالاً، لو فعلت ما فعلته ليس من أجل الشخص ماكان الآن ثمة مكان للألم والحزن، وهذا يردنا أن نفعل الصواب ليس لأن فلاناً يستحق منا هذا الإخلاص وهذا الحب، بل نفعله لأنه يليق بنا أن نفعل الإخلاص، وقتها لا ننتظر رداً، ولا يؤلمنا الخذلان لأننا لا نتوقعه.

على الإنسان أن تكون نفسه هى بؤرته، يفعل ما يفعله ليس لأن غيره يستحق منه ذلك، بل لأنه يستحق أن يفعل، يعطى الكثير ليس لأن الآخر يستحق الكثير، بل لأنه لا يليق به أن يعطى القليل، إن من يعطى يعطى قيمته.



صفة أخرى هى الرضوخ، ومازلت أعجب للذليل، ما الذى جعله يرضى الذل، أحرصاً على حياته ؟ وهل أخذ ممن أذله عهداً بدوام حياته؟! غبي من يقبل الذل ليربح حياته ؛ لأنه طلب الحياة ممن لا يملكها، وقد يموت بعد لحظة واحدة من عفو هذا القادر، يموت بعد أن خسر كل ما يملك ليعيش ولا يعيش.

لقد رضخ آخر خلفاء العباسيين لهولاكو، وآثر السلامة وخرج إليه بالهدايا ليرضى عنه هولاكو، فماذ فعل هولاكو ؟ أمر به فوضع في جوال، ثم أمر جنوده فقتلوا ركلاً ورفساً. وقتلوا

معه كل رجالات الدولة الذين خرجوا بالهدايا، وأصبحت بغداد بلا رأس يفكر، لأن الرأس آثر الإذعان فأصبح هو والقدم سواء، ولم يحمهم الاستسلام، بل ساهم في أن تكبر المصيبة. لي قصة اسمها: **هولاكو الجديد** نشرتها في كتاب (**غداً بل أنا**) تحكى هذا الرضوخ ونتيجته.. اسمح لى أن أسجلها كما هي:

قصة قصيرة

هولاكو الجديد

(أ)

ويدخل هولاكو بغداد العريقة. يأمر أن يخرج كل السكان رجالاً نساءً أطفالاً شيوخاً دون سلاح إلى الخلاء. وفي الخلاء تبدأ معركة طرفها الأول جنود هولاكو بسلاحهم وخيولهم. والثاني عزل لا يملكون إلا رقابهم. تنتهي معركة السلاح والرقاب. بمقتل كل سكان بغداد مليونين إلا قليلاً.

يُذهل القتلى لحظة القتل بالندم. مادام لابد من الموت. لماذا كان إذن الخوف ؟ولماذا كان الاستسلام ؟ أهروباً من الموت؟! وهل حال الذل دون موتهم. أين آذانهم من صوت المتنبي يصرخ في البرية :

إذا لم يكن من الموت بدٌّ.. فمن العجز أن تكون جباناً !!

ينكبون على وجوههم. يهمسون للأرض المرهفة التي رقّ جلدها بما تسرب إليها من دماء. يتوسلون إليها وهي التي تشفق عليهم أن تحمل رسالتهم لمن يأتي بعدهم :

- إياكم والذل. لا تفترشوه وسادةً لتفلتوا من موت. له رائحةٌ مميزةٌ يحضر على أثرها الموتُ.

(ب)

ويأتي هولاكو الجديد. يحمل اسماً جديداً كلينتون جوان. بشعره الأشقر المسبسب. لا يلبس جلباباً. بل يلبس دى شيرت، وبنطلوناً يخفى علامات في ساقه تعرفها سيدةٌ جيداً.

يتملّك الخوفُ أهلَ بغداد. يخشون الموت لو تصدوا. يطلب منهم كلينتولاكو أن يسلموا كل سلاحهم : ليعفو عنهم. يفعلون ويشهرون ذلهم وسادةً لينجوا من الموت. خوفهم الشديد يصم آذانهم. لايستمعون إلى الرسالة التي تداوم الأرض على إرسالها.

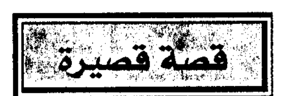
يأمر كلينتولاكو رجاله بقتل الجميع. يتساقطون على وجوههم ويلتصقون بالأرض. يجدون الأرض تردد صوت الأجداد :

- إياكم والذل. لا تفترشوه وسادةً لتفلتوا من موت. له رائحة مميزة يحضر على أثرها الموتُ.

﴿٦﴾

الكذب. تأتى فى مقدمة الصفات المرفوضة. فالكذب يبعدك عن نفسك. ينفيك عنها. يجعلك إنساناً آخر. يمتلك مجموعة من الأقنعة. وقد ينسى أى الأقنعة ارتداها أمام هذا فيلبس قناعاً آخر. وقديماً قالوا إذا كنت كذوباً فكن ذكوراً. وهيهات أن يتذكر ! الكذب يجعلنا مدناً غريبة عن أنفسنا. والغربة مُرة. ويظل الإنسان لا يدرى بالغربة عندما يكون محاطاً بالناس. لكنهم لابد راحلون عندما يكتشفون أنهم فى المدينة الخطأ. يمضون ليتركون الإنسان وحده مع نفسه. وهما غريبان. لا يعرف أحدهما الآخر. الكذب يشدك بعيداً عن نفسك. وكيف يهرب الإنسان من نفسه..؟؟ الكذب رحم لا ينجب إلا وهماً.

يابني.. المؤمن يكون جباناً. ويكون بخيلاً. لكنه أبداً لا يكون كذاباً كما أخبر سيد الخلق. فالكذب والإيمان لا يجتمعان. ولن أطيل في هذه الصفة السلبية.. وسأكتفى بتلك القصة القصيرة:



السمندل

لم يهتم قاسم إطلاقاً وهو يرى أخاه "على بابا" يحمل كنز الحرامية أن يرى أين يذهب به. فقد كان متأكداً أنه سيحمله إلى بيتهم. أخيرا يقودهم "على بابا" إلى الخير بعد أن عاش ينفر من العمل. ولايفعل شيئا سوى أن يحمل زمارته ويغنى..

لم يقنع برقة إحساسه. بل بقيت يداه أيضاً رقيقة. ورغم ذلك ظل أخوه قاسم يرعاه وينفق عليه.. ويقول:

- أخرج ألتمس فى شمس النهار رزقى. أعود محملاً برزق كل الأفواه..

جاء الوقت ليحملهم "على بابا" على جناحيه إلى الرخاء والسعادة الأبدية لكنه يقرر أن يأكلهم من يده هذا اليوم أيضاً. ومن الغد يسلم لـ "على بابا" الراية..

- أكثر مايخوفنى من هذا الثراء أن يحرمنى من العمل.. وقد كان العمل متعتى.. لم أعرف أجمل متعة منه.. هل بعد الثراء سأجد نفس الإحساس.. أشك.. ماهذا ياقاسم ؟ أتتبرم من الرزق ؟؟ احمد ربك.. ياجدع..

ويعود إلى المنزل فى المساء كعادته. يحمل طعام البيت. يعلم أن "على بابا" يبحث عنه الآن بفروغ صبر. ليزف إليه البشرى. فكم حلم "على بابا" بصوت مسموع أن يعوضه كل مايفعله من أجله..

يدخل كأنه لايعرف شيئاً. يلقى السلام على "على بابا". كالملتهم للصمت. يرد وهو منشغل بما يأكل. عيناه كأنها قادمة من مشوار بعيد. لايفهم قاسم شيئاً. يفرد طعامه ويدعوه للأكل..

يأكل معه "على بابا" كالمنصرف عن الأكل..

ـ مالك لاتأكل..

ـ لانفس لى..

ـ خير؟

ـ خير!

أيكون "على بابا" قرّر الانفراد بالكنز. لاأثر له فى البيت. ولا يبدو فى وجه "على بابا" نية إخباره به؟ أهذا هو النعيم الذى ظل "على" يعدهم به ؟؟ أم مَن تعلم أن يأخذ دائماً لايعرف كيف يعطى.. لايعرف إلا أن يمد يده.. أنسى كيف كنت أبسط لحمى مائدةً ليأكل ؟ هذا هو الجحود إذن ؟! لأول مرة يراه كتاباً مفتوحاً. سطوراً واضحةً.. لايدرى أكان كتابه مفتوحاً دوماً وهو الذى لايرى.. أم لم يفتح إلا اللحظة ؟؟

حانت منه التفاتة لعدة الحطب. مازال فى حاجة إليها. يحمد الله أنه لم يرجع اليوم إلا بطعام. قد جهر "على بابا" بجحوده وقرر أن يغتنى وحده ولايسدد ديونه. قرر أن يتنكر حتى لأحلامه التى طالما أتعب سمعهم بها.

بهدوء يقترب منه "على بابا".. يقول له

ـ أريد أن أتحدث معك فى موضوع مهم..

ـ اتفضل ياعلى.. وهل بيننا حواجز ؟؟

ـ أحتاج فلوس.. أبدأ بها مشروع.. تعبت من البطالة. أريد أن أعمل. وأكفيك نفسى.. لقد تحملتني كثيراً. كمل جميلك..

لم يكن بحاجة لأن يتفرس فى وجهه ليرى كم الكذب الهائل فى عينيه. فللكذب رائحة كالبنزين تزكم النفوس.. و "على بابا" هذه اللحظة يبدو مثل قطنة مثقلة بالبنزين. البنزين أثقل من قدرة مسامها على الاحتفاظ به. يتساقط منه. ينزُ كذباً. .يحس أنهما قد أصبحا فى بركة من البنزين..

ـ لكن لامال معى الآن..

يقولها وهو ينظر إليه. يرى فى عينيه لافتة استنكار ولسان حاله يقول له أتتخلى عنى..؟

ـ فعلاً. ليس معى..

ـ لكن تقدر تتصرف..ثم أنى سأردهم لك عند أول دخل من المشروع.

يسود الصمت. وترتفع رائحة البنزين جداً. أيبصق فى وجهه ؟ أيصفعه ويقول له كفاك كذبا ؟؟ لايدرى لماذا يطلب مالاً لايحتاج إليه. أهى حجة ضده. فلو لم يساعده يكون ذلك مبرراً للابتعاد عنه بكنزه.. وإذن سوف يخرج يشكو للناس جميعاً. أخى يتخلى عنى..

مطلوب أن يعطيه أو يرسب فى الاختبار لكن لو أعطاه هل ينتهى الأمر عند هذا الحد. أم سيتكرر الطلب حتى يشهر قاسم تبرمه. فيشيح "على بابا" بنفسه عنه.. ويبتعد بالكنز وحده..

ماكل هذا الإجهاد والتكلف ؟ ولم تلك اللفة الطويلة ؟ أم لابد للجحود من شرعية ؟؟ عارياً أمامه. ولايدرى.. لايستطيع إلا أن يراه..

ـ لم لاترد. هل ستتخلى عنى..

ـ أنت تعلم أننى لا أملك..

ـ لكنك تقدر أن تتصرف..

ـ لكنى زهقت منك. ومن كسلك. قرفت. لم أعد أطيق رائحتك. لاأريدك. انتظرت طويلاً أن ترحل من نفسك.

لكنك كالرائحة العفنة راكدة فى مكانها، وأنفى لم يعد يتحمل..

ـ هكذا، أتظن لأن ربنا أعطاك وأنا ضيقة عليّ تصبح رائحتى عفنة، على كل حال شكراً، لكنى أريد أن أقول لك شيئاً، قد ظهرت على حقيقتك، واعلم: أن الدنيا لاتدوم لأحد، النهاردة معاك بكرة تبقى معى..

ـ وأنا لم أتمن لأحد أن يعطيه الله مال قارون سواك، ليس حباً فيك، بل لتبعد عنى.. فليغنك الله لكن ارحمنى

يسود الصمت، والبنزين.. يعلم أن "على بابا" يستدرجه، وقد مضى معه ، ليرى آخر المطاف..

ـ اسمع يا "على بابا"، لو أعطيتك ماتريد، لاتطلب منى ثانية..

ـ لاأريد منك شيئاً..

ـ لاتزعل منى، قد انفعلت.. وأنا آسف.. سأتصرف لك فى المبلغ، فأنت لاتهون على..

ـ لاأريد شيئاً..

ـ عشان خاطرى..

ـ لا.. حتى لو قدمت لى مال قارون لن أقبله..

ـ لماذا تمنعنى أن أصلح خطئى..

ـ أنا حر ياأخى، لاأريد منك شيئاً، لقد رأيت الدنيا تُقبل على عندما عايرتنى بفقرى، وأحسست أن الله سيعوضنى ولن يتركنى فريسة لتحكمك.. فلماذا أقبل تفضلك على، وأفسد الخير القادم نحوى..

ـ هذا شأنك، لكن اعلم أننى لم أتأخر عليك..

ـ بعد أيه..

ـ اسمع ياعلى، أنا لاأريد منك شيئاً، وإذا كان قد ظهر لك باب رزق فربنا يبارك لك، لاداعى أن تفتعل هذا الأمر لتمحو كل معروفى السابق نحوك.. فإذا كنت لقيت كنزاً أو ما أشبه.. حلال عليك..

ـ كنز.. ضحكتنى ياأخى.. هو فيه حد بيلاقى كنوز هذه الأيام..

ـ يعنى لو حدث، أنا لاأريد منه شيئاً، ولاأريد منك شكراً، فقط لا تلبّسنى العمة..

ـ ياعم، قل ياباسط.. أنت خيرك على..

ـ بلاش النغمة دى ياعلى، واسمع منى هذه الحكاية يمكن تغير موقفك، هناك عند الجبل الغربى، كنت ماشى، لقيت واحد، العلم لله يشبهك، يدخل مغارة الحرامية، ويشتال شوال فلوس على كتفه، ويمشى، مشيت وراه، عرفت خباهم فين، واستنيت لما مشى، وطلعتهم، وفى حتة العفريت الأزرق ما..

ـ يعنى شفتنى..

ـ هو كان أنت..

ـ قاسم، بلاش تلعب معايا..

ـ ما أنت بتلعب من الصبح..

ـ يعنى خدت فلوسى.. سرقتنى ياقاسم..

ـ أنت من شوية بتقول إنك مفلس، وجاى تستلف منى، يعنى ربنا أعطاك وادعيت الفقر، خدهم منك وأعطاهم لى عشان أما تطلب منى تلاقى..

ـ قاسم، قل لى وديت فلوسى فين..

ـ بقول لك العفريت الأزرق لايعرف مكانهم، يبقى هأعرف أنا..

ـ الموضوع لايحتمل هزار، فلوسى ياقاسم..

ـ ليست فلوسك، دى فلوس الحرامية، سرقتها أنت منهم، وخبيتها، وخدتها أنا..

-سأقتلك.. دى حلم حياتى.. أملى..

-معايا ومعاك واحد..

-سأقتلك لو لم تقل لى أين كنزى..

-هكذا.. نفترق.. فلوسك فى مكانها ويمكنك أن تتأكد.. باى باى..

﴿٧﴾

من الصفات السلبية أيضاً أن تحارب عدوك بسلاحه، لا تلبث أن تكون هو، وتفقد مصداقية قضيتك. وماذا أختلفُ عن العدو الذى سرق حقي إذا أنا فعلت ما يفعله ؟؟ أفزعنى جداً في فيلم **الطريق إلى إيلات** وهو فيلم رائع أن تظهرنا المخرجة في صورة من نقدم نساءنا للحصول على المعلومات، هذه طريقة عدونا فعلها مع جمعة الشوان وخلافه، لكننا لا يجب أن نفعلها، وما فائدة المقاتلة من أجل الوصول للحق مادامنا قد أصبحنا متماثلين مع فريق الباطل. ويزيدك ضيقاً أن القصة الحقيقية لم يحدث فيها ذلك، فالدور الذى كانت تقوم به مادلين طبر في القصة الحقيقية كان بطله رجلاً وليس امرأةً فلماذا قدمت المخرجة البطلة في صورة من يستدرج قائداً بجسدها، لتساوينا بعدونا الذى يجيد تقديم نسائه للوصول إلى هدفه ؟

ولو كان هذا ما حدث في الواقع فهو خطأ فيجب أن نفهم أننا لا يجب أن نصل إلى الغاية النبيلة إلا بوسائل من جنسها. لقد أقسم رجلان من المسلمين أنهم ليسوا من جيش محمد، لذلك أطلقهم أبو جهل في غزوة بدر، فلما مضيا قابلا النبي والجيش، فقالا له القصة، فقال: أكملا مسيركما إلى المدينة ووفيا بقسمكما أما نحن فليعنّنا الله عليهم.

يجب أن أحارب الشيطان بأسلحة غير شيطانية وإلا كنت دون أن أدرى أحد جنوده.

بني.. الاختراق.. الاختراقَ، لا تسمح لعدوك أن يخترق أسوارك. إننا برغم نكسة ٦٧ لم يتمكن العدو منا، وظل انتصاره ناقصاً ؛ لأنه لم يجمع بين الانتصار العسكرى والاختراق، لكنه بنعومة الثعبان استطاع أن يتسلل إلينا بعد هزيمته العسكرية وصدق نزار قباني إذ يقول: "**ما دخل اليهود من حدودنا، وإنما تسربوا كالنمل من عيوبنا**" .لو كان لجحا مسمار فى جسم إنسان، فسوف ينتهى المطاف بهذا الإنسان أن يحمل عصاه ويرحل تاركاً لجحا كل حجرات الجسم !

يجب ألا نُخترق، ألا يدخل إلينا فيفصل بيننا وبين أنفسنا، يفقدنا ذاتنا.ودوماً أردد: "**لا**

تغفل عن عدوك فإنه عنك لا يغفل" ..وكان ابن المقفع يرى أن الرجل الذى لايغفل عن عدوه جدير بأن يرتفع فى عينيه. وحذار أن تستهين بعدوك، ويقول الإمام الشافعى:

وليس كثيراً ألف خل لواحد   وإن عدواً واحداً لكثير

إن بداية الهزيمة أن نستهين بعدونا،ولا نعطيه حقه. أذكر أننا زمان سهرنا للفجر مع التليفزيون، وكان التليفزيون يغلق إرساله قبل منتصف الليل، وفى هذا اليوم كان سينقل مباراة ملاكمة لمحمد على كلاى. يومها سهرنا نمنى أنفسنا بانتصار كلاى، ولم نستطع أن ننام من الحزن، فقد ظهر كلاى البطل الذى علمنا حلاوة النصر، ظهر بصورة مخزية، كأنه كيس رمل يضربه الآخر . لقد نزل كلاى المباراة واثقاً من النصر ، : لأن منافسه كان أحد الذين يُستأجرون له ليتدرب على أجسامهم بدلا من كيس الرمل، فلم يشغل نفسه بالاستعداد له. بينما كان الثاني يدرس كلاى جيداً ،ويعرف قيمته، فنزل المعركة مستعداً. وسحق سيد الحلبة ، وتركه ملقى على الأرض كأنه كيس من الرمل. وفى نكسة ٦٧ لم نعط للعدو حقه، فكانت النتيجة علقة ساخنة، لكننا عندما كنا نعلم قيمة عدونا كنا نهزمه مهما كانت قوته.

﴿٨﴾

للشيطان نبرة مميزة، فكيف تعرف أن هذا هو صوت الشيطان لتنفر من الاستماع إليه ؟ **الملمح الأول لصوت الشيطان**: أن تسمع صوتاً في نفسك يلح عليك بالتأجيل فهذا صوت الشيطان، إذا جاءت الصلاة وسمعت نفسك تقول لك مازال هناك وقت، فصاحب الصوت هو إبليس، فالتأجيل مذهبه المفضل، فهو لا يطلب منك الشر صراحةً، هو يقنع منك بأقل من ذلك ، لا يطلب منك عدم الصلاة، بل يوهمك أن مازال بالوقت فسحة، حتى تفوته الصلاة، ولا يطلب منك الانصراف عن العمل أو المذاكرة، بل يزيّن لك أن تنهض للنوم وتصحو في الفجر أكثر نشاطاً، يظل يقنعك أن الوقت مازال متسعاً حتى يطبق الوقت عليك. فالتأجيل - إذن - أحد أسلحة الشيطان مثل الظن، عرفنا أن التأجيل لا يقل خطورة عن كل الصفات السلبية، لكنه لا يضر إلا بصاحبه.

قدم قيس بن الخطيم على النبي ﷺ بمكة، فعرض النبي عليه الإسلام، فقال: إنى لأعلم أن الذي تأمرني به خير مما تأمرني به نفسي، وفيهابقية من ذاك، فأذهب فأستمتع من النساء والخمر، وتقدم بلدنا فأتبعك. وقبل أن يقدم النبي إلى المدينة، قتل الخزرج أوساً، وخسر بالتأجيل. والقصة ذاتها حدثت للأعشى. فقد وفد أعشى قيس على النبي ﷺ يريد الإسلام، وأعد قصيدة يمدح فيها النبي، فبلغ خبره قريش، فرصدوه على طريقه وقالوا: هذا صناجة العرب ما مدح أحداً

قط إلا رفع قدره، فلما ورد عليهم قالوا: أين أردت يا أبا بصير، قال أردت صاحبكم هذا لأسلم، قالوا: إنه ينهاك عن خلال ويحرمها عليك، وذكر له أبو سفيان: القمار، الزنا، الربا، الخمر: قال : لعلى إن لقيته أن أصيب منه عوضاً من القمار. فقالوا: الربا قال: ما دنت ولا أدنت. ثم ماذا ؟ قالوا الخمر، قال: أرجع إلى صبابة فى المهراس فأشربها. قال له أبو سفيان: هل لك فى خير مما هممت به ؟ قال وما هو ؟ قال: نحن وهو الآن فى هدنة، فتأخذ مئة من الإبل وترجع إلى بلدك سنتك هذه، وتنظر ما يصير إليه أمرنا، فإن ظهرنا عليه كنت قد أخذت خلفاً، وإن ظهر علينا أتيته. فقال الأعشى: ما أكره ذلك. فقال أبو سفيان: يا معشر قريش، هذا الأعشى والله لئن أتي محمداً واتبعه ليضرمَنَّ عليكم نيران العرب بشعره، فأجمعوا له مئة من الإبل ففعلوا، فأخذها وانطلق إلى بلده فلما كان بقاع منفوحة (وهى بلدته) رمى به بعيره فقتله. ومات فلم يدخل الإسلام فأضاع آخرته ولم يستمتع بما جمعوه له في دنياه.

والشيطان لا يكتفى بتضييع الصلاة عليك، فهو يسوّف لك حتى تضيع، فإذا ضاعت انبرى يلومك، ويضخّم لك من خطئك ليمنعك من الإصلاح، فهذا اللوم أيضاً هو صوت إبليس يريد أن يقنعك أنك إنسان قبيح لتيأس من الخير.

يضخّم لك الخطأ الصغير بعد ارتكابك له، حتى تيأس من التوبة. فإذا رأيت خطئك كبيراً، فاعلم أن هذا صوت عدو، فلا خطأ يكبر عن عفو الله إلا الشرك به.

هناك من ينتحر لأسباب صغيرة، ذلك لأنه ضخّم الصغير . ضع أخطاءك في مكانها، ليس مهما أن تخطأ، فالخطا ليس في الخطأ لكن في الإصرار على الخطأ. وقد عصى إبليس وآدم كلاهما ربهما، كلاهما مخطئ، لكن من تاب منهما أصبح نبياً، ولُعِن الثاني لأنه أصر على الخطأ.

ولا تندم على شيء أبداً، فالندم يجعللك مشدوداً إلى الأمس مشغولاً عن يومك، إذا أردت الندم فما عليك سوى التوقف عن هذا الخطأ الذى تريد الندم عليه. فأعظم أنواع الندم هو التوقف على الخطأ المندوم عليه.

الملمح الثاني لصوت إبليس: أن تجد نفسك مشغولاً بالأمس أو بالغد، كل ما يصرفك عن اللحظة الراهنة هو إبليس، إنك لن تغيّر من الأمس شيئاً . والغد ليس من حقك، فهو من خصوصيات الله. وقد لا تعيشه فما شأنك بيوم قد لا يكون من عمرك،ولو كان من عمرك فلليوم أرضه الخاصة به.

قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ﴾.. من وسائل الشيطان أن يدفعنا إلى الانشغال بأشياء خاصة بالله عز وجل،

وما انشغل إنسان بخصوصيات الله إلا وأرهقه الله بها، أو لنقل أرهق نفسه عندما شغلها بأشياء لا تستطيعها. من هذه الأشياء الانشغال بالرزق أو الملك أو النتيجة أو الغيب، وكلها غيبيات. والله عز وجل لا يمنع إنساناً أن ينشغل بخصوصياته. لكنه لا يتدخل ليساعده عليها، ووقتها يجهد الإنسان؛ لأنه يقوم بأمر فوق طاقته.

أراد صدام حسين أن يضمن ملكا لابنه من بعده، فشهد مقتل ابنه في حياته، واُنتزع الملك من يده . ولعله في أيامه الأخيرة جلس يتفكر: هل ضمن الملك لنفسه ليحاول حجزه لابنه بعد مماته ؟؟ وهل ضمن لابنه حياته حتى يضمن له الملك ؟؟ قل لمن يريد ملكاً لابنه من بعده لو أجبت عن هذين السؤالين بنعم فما تريده حق مشروع: السؤال الأول: هل تضمن لابنك عمره ؟ وهل تضمن الملك لنفسك لآخر لحظة في حياتك ؟ والأمر نفسه في المذاكرة عند الطلاب، فمازال كثيرون منهم ينصرف عن المذاكرة كلما فكّر فى النتيجة وحسب درجاته قبل الامتحان.

كن ابن يومك، فالشيطان يريد لك أن تكون ابن أى زمن إلا اليوم.

الزمن كالصلاة لا يجب أن تنشغل عنها بغيرها لو انشغلت عنها فأنت لا تؤديها كما يجب، اليوم في حياتك يجب أن يكون كالصلاة، لا تنشغل عنه بغيره، فإذا انشغلت عنه فأنت لا تؤديه كما ينبغى، ولا يشغلك عن يومك إلا من يشغلك عن الصلاة فاجعل يومك صلاةً دائمة، عينك لا تغادر اللحظة التى تعيشها، وأعط لكل عمل وقته، اخلص في اللعب عند اللعب، واخلص في العمل عند العمل، واخلص في العبادة عند العبادة.

الملمح الثالث لصوت الشيطان: هو الانشغال بخصوصيات الله، وهذه الخصوصيات هى الرزق، النتيجة، السلطة.. النصر..فلا تشغل بالك بالرزق، فأنت لا تدرى ما الرزق ؟ الرزق ليس الامتلاك، إذا حصلت على مئات الآلاف ولم تنفق سوى جنيهات فهذا رزقك، والباقي رزق الورثة. رزقك هو ما خرج من يدك لا ما دخل إليها، ألا ترى الناس تقول الدنيا لا تهون إلا على الفقير، هذا معناه أنك عندما تذهب ضيفاً لاثنين أحدهم غنى والآخر فقير، قد يكرمك الفقير أكثر مما يكرمك الغني، هذا يعنى أن ما خرج من يد الفقير أكثر مما خرج من يد الغنى، باختصار كان الغنى أكثر امتلاكاً والفقير أكثر استمتاعاً، هنا يكون الفقير أكثر رزقا. ومن الرزق رد الفعل على الرزق، فلو شكرت على النعمة زادت، ولو صبرت على النقمة زالت.

الرزق نوعان: عطاء مادي أو حجب مصيبة. فأنت لا تدرى هل كان رزقك أن تأخذ النعمة أو تمنع المصيبة، فقد لا تأخذ مالاً، لكن تتلافى مصيبة لا تقدر عليها، قل للشاكي كم مرضاً في الكون

لم يأتك ؟ إن المرض الواحد قمة الفقر، فالنجاة من كل الأمراض هوالغنى عينه.

فأنتَ لا تدرى أيهما أفضل لك ؟ فلعل مجموعاً قليلاً يشدك إلى كلية صغيرة فتصبح مميزاً في مجالك خير من كلية عالية تفشل فيها أو لا تكون مميزاً، وكم من الناس اكتشفوا أن الطريق الذى مضوا فيها دون رغبة كان أعظم مما يحلمون.

إن الرزق والموت قادمان لا محالاة، والإنسان حريص على قدوم الرزق وإبعاد الموت، فيكرس جهده نحو استجلاب الرزق القادم وينصرف عن الاستعداد للموت، والحق أن الموت أحق بالاستعداد لأن الرزق قادم بدون جهد منه، والموت يحتاج إلى رصيد، وبذلك يظهر ضلال الإنسان عندما يجرى وراء ما يحضر بنفسه، وينشغل عما يجب عليه أن يستعد لحضوره، لكنه الإنسان يقتل من أخوته البشر في يوم واحد أكثر مما افترسته الأسود منذ خلق الكون برغم أن الأرض تتسع لهم جميعاً، والرزق مكفول لهم من ربهم ؟؟

الملمح الرابع لصوت الشيطان: أن تنشغل بما حُرِمْته، فهذا أول صوت أطلقه إبليس في إذن أبويك، عاشا في جنة عرضها السموات والأرض، لو أرادا التمتع بما فيها لاحتاجا إلى مليارات السنين، الجنة كلها لهما إلا شجرة، لكن إبليس نجح أن يشغلهما عن كل النعيم بالشيئ الواحد الذي حُرّم عليهما، فلو وجدت نفسك تنصرف عما تملكه إلى ما لا تملكه فاعلم أن هذا صوت إبليس، يريد أن يعكر عليك جنتك الأرضية كما عكّر على أبويك جنة السماء. دوماً أطالب بإلحاح من أبنائي - وهم كثر والحمد لله - ألا ينظروا إلى ما في أيدي الآخرين، فعلى الإنسان ألا ينظر إلى ما حُرِم منه، بل إلى ما ناله ، فلم يجن آدم من انشغاله بما مُنع إلا الطرد من الجنة التى وُهبها ولم يحصل - طبعاً - على ما مُنع، الجنة كلها لكَ لو لم تهتم بشيء واحد مُنعته، فأنت في نعمة لا تدرى ما هى ؟ إن المصاب في نتيجة ابنه في الثانوية العامة لو تذكر مثلا أن نزار قباني مات ابنه وهو في الخامسة في طب القاهرة، لعلم أن نزار كان يتمنى أن يعيش ابنه حتى لو لم يدخل كلية الطب.

كيف تقاوم الشيطان ؟

أولاً: إذا وسوس لك بشيء افعل حسنة، بكل وسوسة صدقة، بكل وسوسة صلاة، والله ليبتعدَنَّ عنك. ذهب أحدهم إلى أبي حنيفة وقال له: يا إمام لقد وضعت مالاً في مكان، ونسيته فدلنى عليه. طلب عجيب، هو الذى وضع المال، ويطلب من آخر لم يكن معه أن يدله عليه، قال له الإمام الأعظم: اذهب فصل ليتك، وتعال إليّ في الصباح وأناأخبرك بمكان المال، لم تمض ساعة حتى وجد الرجل قد عاد إليه متهللاً، يعلن وجهه بحاله قبل لسانه:

- تذكرت يا إمام.. ووصلت إلى مالي.

قال الإمام مبتسما: كنت أعلم أنه لن يتركك تقضى ليلك في صلاة.

هكذا كانت فطنة الإمام في موقف يمكن أن نقول عنه ضحك على إبليس. إبليس الذى يضحك على الكثيرين، ضحك عليه الإمام الأعظم. فإذا أردت أن تضحك عليه فافعل ما يغيظه.

ثانياً: انشغل بيومك فحسب. ولا تقلق من غد، ولا تندم على أمس. وإذا شغلك بالأمس، فقل لنفسك أروع الندم التوقف عن الخطأ. وإذا شغلك بالغد فقل لنفسك اضمني لى أن أعيش إلى الغد.

ثالثاً: اعص هواك، وافعل ما شئت. فوالله إن النفس أحد عملائه، فهو مقيد في رمضان وتستمر الذنوب ، ذلك لأن له جنوداً ينوبون عنه. والنفس خبيرة بصاحبها فتعرف من أين تأتيه.

رابعاً: لا تنشغل بالشجرة البعيدة التى في يد غيرك، فهى منجل يقتلع جذورك من جنتك.

خامساً: ابتعد عن هذه الصفات: من الصفات التى لا ينجو صاحبها من براثن إبليس: البخل لأن البخل من صفات تغلغل حب الدنيا في القلب. وقد أهلك إبليس اليهود بذلك، أحبوا الدنيا فكرهوا الموت. وأقوى أسلحة إبليس هى تخويفهم الفقر.والحرص والكبر. يقول إبليس: "**إياكَ والكبر فإنى تكبرْتُ فلعنْتُ. وإياكَ والحرص فإن أباك حرص على أكل الشجرة فأخرج من الجنة . وإياك والحسد فإن أحد بنى آدم قتل أخاه بالحسد**".

وقد صدق الكذوب في ذلك. فالكبر يجعلك متوحداً بإبليس، فهو أول عنصري في التاريخ تكبّر عن طاعة الله بالسجود لآدم، ولم يكن تعليله سوى أنه أفضل عنصراً منه. والحرص أن تشغل بالك بما لم تنل، وبه خرج آدم من الجنة. والحسد: أن تنشغل بما نال غيرك، وبه تدخل النار.



(الكلمة الخامسة عشرة)

كل ظلام العالم
لا يطفئ شمعة

الكلمة الخامسة عشرة:

كل ظلام العالم لا يطفئ شمعة

الابن.. الحبيب..

سمعت الشيخ الشعراوى يقول: إذا لم يعطك الله ماتريد، فلأنه يدخر لك مايريد. فلا تحزن على ما لم يأتك.فلعل الله منعك طريقاً لأنه يدخر لك تفوقاً فى آخر. أروع ما فى الإنسان أن يكون متسامحاً، حتى مع من يخطأ معه، فلو لم نعاقب الآخرين فهناك من يعاقبهم بدلا عنا.أو على أقل تقديركما يقول المثل: اجلس بجوار الشط سيقذف لك الموج بجثة عدوك.

لقد أراد الرسول ﷺ أن يدخل الكعبة، لكن عثمان بن طلحة الذى يحمل مفتاح الكعبة يرفض له خاصة ويسمح لأشراف مكة بالدخول، وتمر الأيام ويفتح الرسول مكة،ويصبح المفتاح فى يده، أتعرف ماذا فعل ؟ لقد أعطى المفتاح لعثمان وجعله حقاً له ولأولاده.

الإنسان هو أعظم اختراع فى الكون، لو تمثل العبودية، لو لم ينس أنه عبد لله. يقول الكاتب الروسى دوستوفسكي: لو لم يكن الله موجوداً فكل شيء مباح، حقا بدون الله، تصبح هذه الحياة لا شيء. إن الخنساء التى كاد موت أخيها صخر يفقدها صوابها، يعصمها إيمانُها عند استشهاد أربعة من أبنائها. واليهود الذين يرعبهم الموت نجد فى المقابل من الفلسطينيين من يقبل على الموت بدرجة تماثل تمسك اليهود بالحياة، والسر هو الله. الأول قلبه خلا من الله فأصبح الموت بالنسبة له شيئاً فظيعاً، يفزعه مجرد سماع اسمه. أما المسلم فيرى أن الموت يقربه من الله فيقبل عليه باختياره.

﴿ ١ ﴾

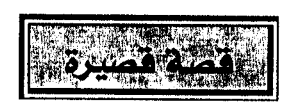
إن الناس هى أكثر الأشياء إحداثاً للقلق، والضيق، ولو استطاع الإنسان أن يأمن بوائق الآخرين لعاش بلا مشاكل إلا إذا كان هو نفسه مشكلة، وإنه لا يريح نفسه، ومن كان الداء فى نفسه، فلا خلاص له.

كتبت قصة تعد من أوائل القصص التى كتبتها، كانت فكرتها تدور أن الناس جميعاً شر، كلما اقتربت منهم تعرضت للايذاء، والنجاة فى الابتعاد عنهم. حاولت كثيراً أن أوهم نفسى بصدق تلك القصة، وظلت نفسى تأبى، ولا تهضم الفكرة. لم آومن قط ولم أنجح فى ترويض نفسى لتقبل تلك القصة. ومازالت أرى أن الناس فيهم هذا وذاك. وأن القصة كانت صادقة ؛ لأنها تعبر عن بطل فى ظروف معينة، لم يصادف إلا أناساً سيئة، فترسخ عنده الإيمان بأن الناس ترعة شر، وأن النجاة فى الوقوف على الشط بعيداً. لكنى ورغم أنى مؤلف القصة لم أمر بظروف هذا البطل، وقابلت أناساً فيها الشر وآخرين فيهم الخير. وظللت فاشلاً فى الإيمان بفكرة أن الناس شر. وأن الخير فى الابتعاد عنهم.

لقد آمن بطل القصة أن الناس شر، وأنك لن تجنى من وراء الاتصال بهم سوى الشر، وقد ترجم فلسفته إلى تطبيق، فأصبح يتلافى الناس، فلا يخرج إلاوهم نيام، وينام في النهار. وعاش وقتاً طويلاً بلا ألم، فازداد اقتناعاً بفكرته ، حتى كانت ليلة عاد فيهامبكراً، والتقى بفتاة لاقي منها وهو صغير شراً كبيراً، كانت تشتمه، وتعايره.

لأول مرة يمتلك أمر إنسان، ويتمكن منه، ولأول مرة يفعل شراً، ظل فى هدنة مع الشر حتى تلاقي مع الناس، ففعل شراً. لكنى كنت أرى زيف فلسفته تلك رغم إيمانه الجازم بها. فلا فضل فى خير جنيناه من البقاء فى جزيرة منعزلة، الخير أن نعلو على الشر فى نفوسنا، أن نقدر على الشر ولا نفعله. هنا تنبه البطل أن هذا ليس دليلاً على صدق فلسفته، بل على بطلانها. فالشر بداخله كامن، لم يقتله ابتعاده عن الناس، كان كالوحش المحبوس، عندما فتح الباب كان وحشاً، فالحبس لم يلغ التوحش.

وإليك القصة ..



ذلك المساء

في سكون الليل ماتت الرحمة في قلبها، أودعت وليدها شط ترعة، تخلت عنه كما تخلى عنها أبوه، تركته فريسة لهواء بارد وهو الذى كان يجد في صدرها قلعة من دفء. قد اختفت عن الأنظار طوال الشهور الماضية،

منزوية في حجرة كالسجن، تسمع صاحباتها يسألن عنها، وتتعلل أمها بسفرها.

يوم أو يومان، وتطرق بابهن كأنها حقاً قد عادت من سفر، وهي حقاً عادت من سفر، ويا له من سفر، سافرت وخسرت كل ما معها، كانت فقيرة وجميلة، كل شباب الحارة يطمعون أن تكون من نصيبهم، لكنها كانت تطلب العلالي، وجاءها بسيارته، تركب فيها، وهي الآمر الناهي، لم تقلق منه، وهي ترى أنها دوماً في كل مشوار هي السواق، وما عليه إلا الطاعة، عرفها على والده رجل الأعمال الكبير، واستأجر لها شقة باسمها، وقدم لها عقد تمليك لها، وفجأة انفض المولد، كانت لا تملك إلا رفضها، وظل يدفع الكثير في مقابل تنازلها عنه، وعندما تنازلت اكتشفت أنها أصبحت مفلسة، وأن الشقة مفروشة، وأن عقد التمليك مزور، وأنها لا تقدر أن تعود إلا ليلاً إلى الحارة التي كانت ملكتها المتوجة، عندما تمر حلاوتهم يجب أن تصمت الألسنة وتتسمر النظرات، الآن أصبحت حلاوتهم مرارتها، بعد أن تعلمت درساً بعد فوات الأوان، لو استطاعت أن تخبر كل فتاة لقالت لها، تزوجي أي إنسان، إن الحلال أغلى من المال.

كانت مثل كل فتاة تحلم بالزواج والولد، ومن يطلب الثمرة قبل أوانها يجدها عديمة الطعم، لأنها لم تنتظر حتى يأتي الزواج في موعده، تقوضت فكرة الزواج لوقت بعيد، وبعد أن كانت تتدلل، وتحلم أن تنتقي العريس، وترفض هذا، وتأنف من ذاك، إذ بها الآن مستعدة أن تتزوج أي رجل.. ماذا لو صبرت بعض الوقت.. أما كانت تلك اللحظة التي ترزق فيها بطفل هي أروع لحظات حياتها ؟؟ ماذا فعلت بنفسها، وبأمها ؟؟ لو كانت مكان أمها ما كتمت سرها، بل لداست على قلبها وقتلتها.

هاهو باب سجنها ينفتح في اللحظة التي تخلصت فيها من وليدها، إن الحارة دوما تتحدث، وستعرف أي بيت عثر بالطفل، وماذا فعل به.. جريمة جديدة لتمحو جريمة أمس.. كأن الخطيئة تتوالد..

مضت وعيناها لا تنظر إلى الأمام، بل مشدودة إليه، القلب حجر، لكن العين لا تستطيع أن تنظر إلى الأمام، مشدودة إليه، وهو ساكن يأخذ النوم بجفونه، هادئ تعلن وداعته جناية الشر عليه، قلبها يجري منها، يتعجل العودة إلى البيت، تتعجل انتهاء المعركة، لا يهم الآن كم الخسائر.. المهم ألا تموت.. فجأة تصطدم به، كأن الأرض انشقت عنه، كان الوقت سحراً، القمر في السماء، أضواء متفرقة يزيدها خفوتاً تعاريج البيوت، لكنها كانت تكفي لأن ترى قوام هذا الساري في هذا الوقت من الليل.. لم تتبينه للتوها، فأكثر من عشر سنوات لم تره، رغم أنهما في حارة واحدة.

فغرت عينيها وازداد وجيب قلبها وارتجافها، قد انكشف سترها، وانكشف لهذا اللقيط، ابن الشيطان، هكذا كانوا يطلقون عليه وهم صغار، حتى اختفى فجأة، ابن شيطان.. فلا يعرف له أب أو أم، رباه، وماذا يكون ابنها ؟ وماذا تكون هي.. ؟؟ أهي تكرار لقصة مقززة..التفتت بحركة انعكاسية إلى اللفافة التي على امتداد العين..

سنوات لم تره، وانشغل الناس عنه بحياتهم، لو كانت تذكرته قبل اليوم لرجحت أنه هاجر إلى بلد أخرى دون أن يصاحب هجرته أي ضجيج..عندما ظهر لها الآن ظنته راجعاً من سفر ولعنته في بالها ولعنت سفره الطويل الذي أرجعه في هذا الوقت، وأحست أنها تلعن ابنها.. ولعنت الذين تسببوا في سفره، ولم تدر أنها نفسها أحد الذين جعلوه يكره الحياة، ويعزف عنها، فلم يلق منهم سوى الشر كل الشر، عندما كانت تتزعم الصغار في زفة تعايره بحقيقته، وكان يجري منهم كما يجري من طاعون.

يبكي، ولا يشفق عليه أحد.. لم يسافر كما اعتقدت وإنما لزم بيته، لا يخرج إلا ليلاً عندما تنام الناس ويعود قبل أن تصحو حتى يتجنب لقاءهم، فلم يجن منهم مرة خيراً، في كل مرة يلتقي بأحد يعود بجرح أو إساءة..

نظرت إلى وجهه، تريد أن تقرأ ما يدور في ذهنه، وجهه ليس آمياً، حزن مكتوم وألم طويل، عينه كأنها تسافر

إلى بعيد. زاد خوفها. لو وقعت مع أى أحد لكانت المصيبة أهون. لكنها لا تدرى ماذا يفعل بها هذا الموتور منها وبقسوة.. لقد لحقها ويدها مقيدة خلف ظهرها. أيعفو وهو لم ير العفو من أحد وخاصة هي ؟؟ بإشارة منها ستفعل ما يريد. لقد كانت دائماً قوية عليه. وكان دائماً ضعيفاً ينكمش في ذاته. اليوم بعد غياب يعودان للقيا لكن بعد أن تبادلا المشاعر.. تخشاه.. تتمنى لو تجرى.. لكنها كانت محاصرة. لا تعرف كيف تفلت.. مثله تماماً بالأمس كان يبدو كفأر مقيد في مصيدة.. لا يقدر أن يهرب من هزارها السخيف..

عادت بإشارة من يده إلى اللفافة. يحس أنها لفافته هو وأن هذه أمه التى ظل يبحث عنها. مثلها فعلت أمه. ألقت لفافته في السحر فكتب عليه ألا يخرج إلا فيه. وكان أن التقى بمن تعيد سيرته..

لقد خبر الناس. فوجدهم شراً. لا تأخذ منهم الخير إلا لحاجتهم إلى خير أكبر منك. رآهم يجاملون بعضاً لكن دوماً في انتظار المقابل. هذا يذهب إلى فرح جاره ليأتيه الأخير يوم فرحه. وهؤلاء يلتفون حول صاحب منصب فإذا بهت بريقه هربوا. حتى لو بقى أحدهم يفعل ليدعى الوفاء. حتى هذا الذى تبناه فعل ذلك لأنه لم ينجب. لحاجته إلى الوليد وليس حاجة الوليد إليه.

لم يلق من الناس خيراً أبداً. ظلوا يضربون فيه. كأنه ملاكم فقد توازنه فلم يرحمه الآخر.. كانوا يثقون أنه لا يملك لهم شيئاً في الغد. فلم يحفلوا أن يكشروا عن وجههم الحقيقى البشع في وجهه.. هو العين الوحيدة التى رأت الناس على حقيقتها لأن الناس لم تخجل أن تخلع ملابسها أمامه..حتى الأقنعة التى طالما تشبثوا بها وحرصوا على الظهور بها. يرمونها في غير رحمة أمام من لا يملك لهم نفعاً..

وصلا إلى اللفة. حملتها عن الأرض. وقفت قبالته. كانت كالتى تقدم مقصاً على قطعة من قطيفة لمسئول يفتتح مشروعاً. أول مرة يقف معه إنسان هذا الموقف.. أول مرة يطيعه إنسان. ويلبى أمره قبل النطق به. لأنه لأول مرة يمتلك شيئاً لأحد.. كم يكره خضوعها وذلتها.. كم يكره قناعها لأنه كم رأى وجهها الحقيقى.. كشف اللفافة قليلاً ليرى وجه الطفل. كان الوحيد الذى لا يلبس قناعاً. لم يصبح بعد من الناس. لا يملك شيئاً لأحد.. حقا هذا أنا..

قبّل الطفل. ثم قربه إلى فمها. قبّلته. فطفرت الدموع من عينيها. فهى منذ قابلته وتفعل كل شىء مرغمة. لم تتحمل أن تقبّل ابنها بالأمر. لم يأمرها بتقبيل ابنها بسبب حنية قلبه.ولكنه يدرى أن هذا أشد إيلاماً لها. بدت كأنها تقبل ابنها رغماً عنها . نظرت إليه بتوسل. تتضرع إليه في صمت. لقد ملك أمر غيره. الآن فقط دخل غابة البشر.

رفع يده عن غطاء الوليد الذى يغط في نومه ساكناً. لا يدرى عما حوله شيئاً. أمرها صامتاً بالسير. عاد الطفل إلى يدها. وعليه أن تسدد ثمن تركها له بضع لحظات. ولا تدرى كم يكون الثمن ؟ فقد وقعت في يد شاب موتور. لن يرحمها.

أصبح أقصى أمانيها أن تعود إلى بيتها. لا تدرى ماذا ينوى أن يفعل. لكنها تحس أنها مقدمة على فضيحة. وما فعلته الشهور الماضية من اختفاء وكادت تفلح. ينهدم رأساً على عقب. وبعد لحظات تعرف الحارة كلها فضيحتها. تتمنى لو تصرخ لتعلم الحارة بالأمر. بيدها لا بيد هذا اللقيط. إنها تموت من الانتظار من الجهل بما ينتوى أن يعمله. إنه غامض. والليل. والموقف. كل شىء يبعث على الخوف.

حتى تتخلص من جريمتها الأولى. فعلت جريمة ثانية. ورمت بوليدها. الآن عليها أن تفعل جريمة ثالثة لتغطى الثانية. ولا تدرى ماذا يجرها هذا ؟ إنه يسيربها إلى حجرته. البدروم. لو ظلت فيه إلى الأبد. لن يعلم أحد. إنها توافق على أى شىء إلا أن يثير ضجة تفضح أمرها. وهو قد لا يريد إلا فضيحتها. تمضى إلى طريق لا تدرى ما

هو. أخطيئة أخرى. وجنين آخر. أهى دوامة لا تنتهى. كلما اقتربت من الخروج انزلقت إلى القاع ثانية .. ؟؟ تريد أن تتكلم. لكنه الليل. والموقف. والرجل الذى لا ينطق بطبيعته .. كل هذا يمنعها أن تتكلم..

لو يصنع معروفاً ويرضى بزواجها. وينقذان هذا المسكين من مصير هو يعلمه جيداً.. لكن أيرضى ؟؟ سبحان الله. لو جاءها قبل اليوم وقبل القدم ماقبلته زوجا.. أتتزوج لقيطاً لا يقدر أن يواجه الناس.. الآن تتمنى ما كانت لا تطيقه.. بل ويعيش معها في بيتها دون أن يقدم شيئاً.. ويرحم هذا الصغير كما رحمه آخر.. لكنها كانت لا تقدر أن تتكلم.. وتخشى أن يمضى الوقت فلا يكون هناك أى جدوى من الكلام..

دخلت معه إلى حجرته. كلها كتب..وأخيرا تكلم..

.تحبين نتحدث قليلاً. أم أنك متعجلة..

. استر علي ربنا يسترك. لا تفضحنى. واتركنى أروح..

. بالسهولة دى ؟!

. أنا مازلت نفساء.. حرام..اتركنى.. ولك علي..

. أن تعودي من تلقاء نفسك. تقولين شبيك لبيك. جاريتك بين يديك. ياسلام.. فكرة جميلة.. أنا موافق.. ما رأيك لو كتبت لي ورقة بذلك ؟

نظرت إليه بين المصدقة والمكذبة.. استمر وهو يعطيها ورقة وقلما..

. ماذا يضمن لى؟ بعد زوال آثار الجريمة لن يصدقنى أحد. إليك الورقة والقلم؛

. ماذا أكتب ؟

. إقرار في وسط السطر.. أقر أنا.. اكتبى اسمك.. بأنى مدينة بليلة للقيط الحارة يفعل بي فيها مايشاء.. مجاناً.. وذلك مقابل سكوته على ما رآه من تخلصى من وليدى اللقيط.. وذلك لأنى اليوم معطلة.. ثم وقعى

. هاأنا قد كتبت.. امشى بقى..

. لا.. إنى لن أنام الآن. وأريد من أتحدث إليه..

. لكن أمى ستقلق علي.

. نعم ياأختى.. ؟!

. اسمع ياأستاذ حسين..

. ياه.. هو فيه حد مازال فاكر هذا الاسم ؟؟

. سأعطيك ما أملك. معى كم حتة صيغة. وأقدر أسرق تحويشة أمى.. سأعطيها لك.. أو.. تزوجنى نحن غلابة مثل بعض.. وسأكون لك جزمة قديمة.. وينوبنا ثواب في الغلبان ده..

. تتزوجينى وأربي لك ابنك.. أيه ابن الحرام ورايا ورايا.. أعانى منها وأنا طفل. ولما أكبر أرعى واحد تانى.. أيه هو أنا مش خدت كفايتى..هأ.. هاها..

. الناس كانت قاسية عليك.. ليه لما ملكت أنت كمان مش عايز تعفو.. وبتقسو مثلهم..

. أتعلمين أننى كنت أستبعد فكرة الزواج تماماً.. من أين لي بالشقة والعفش والمهر والشبكة.. كنت أرى أنه لا وسيلة لي إلا أن تهرب فتاة معى من أهلها.. لكنى أسألك أكنت توافقين علىّ.. قبل أن تصبح رقبتك في يدى..

. لكننا الآن نصلح لبعض.. تزوجنى ولو عرفي.. وسأكون خدامة.. أنا خلاص انكسرت..

-سأريك شيئاً. سأريك صورة أمي.

- أتعرفها ؟

-لا.. لقد تخيلتها.. رسمتها..

- إنك تضع في رقبتها حبل المشنقة !!

- برافو عليك.. أنا لا أرب لي فيك أو في غيرك.. بل أنت في نظري جيفة.. لا يمكنني أن أقربها..

- فلماذا ؟

- ظللت أبحث عن أمي.. والليلة وجدتها.. أنت. فأنت تعيدين سيرتها.. والحكم طبعا أنت عارفاه..

- هل ستقتلني ؟

- وهل تستحقين غير ذلك.. زنا. وقتل ابنك. ترميه في العراء. ليظل عارياً يرفع كل من هب ودب عليه سوطه.. ليظل لا يرحمك أحد رغم أنت لم تفعل شيئاً.. هي التي فعلت.. زنيت ثم داست على قطعة اللحم بقدميها.. ولماذا نلوم الناس إذن.. إذا ظلوا يدوسون قطعة اللحم حتى لو كبرت.. تمنيت عمري أن ألقاها.. والليلة ألقاها متلبسة. تلقى بقطعة لحم جديدة. لتبدأ

- سأصرخ..

- أنت أدرى الناس أن الناس لا تحفل بي. لو احترق بيتي لن يجري أحدهم إلى إطفائه. ثم أنك يجب أن تكوني عاقلة حتى لا أتعجل الحكم.

- أرجوك. لا تقتلني.سأحتضن ابني وأكون له. لن أتركه. لا أريد له..

- لا تريدين له أن يكون أنا. لا يهم.. لست وحدك التي تكرهين مصيري.أنا أيضاً. المهم.. حتى أكون منصفاً معك.. يمكنك أن تختاري مصيرك.. مجموعة من العقوبات.اختاري منها.خذي ورقة واقسميها أربعة أقسام واكتبي في كل قسم.. الانتحار.. الإعدام خنقا.. الجلد ٨٠ جلدة.. وعشان خاطرك.. الزواج.. واختاري.. هيا.. أو أختار لك أنا.. حسنا.. أختار لك أنا..

- الانتحار.. الله.. نعم الاختيار..

- لا.. لن أفعل..

- بلاش دي.. نختار واحدة ثانية..

- أنا لن ألعب هذه اللعبة..

- الزواج.. حسناً.. مادمت غير موافقة على تلك اللعبة.. بلاش .

- لا.. أرجوك.. موافقة.. موافقة..

- الثالثة ثابتة..

- لا.. الاثنين الباقيين.. لا أمل فيهما..

- حسنا.. نخلطهم ونختار من الأول.. لكنك ستفعلين يا أمي العزيزة

- حسنا.. اختر لي أنت.. وأنا موافقة..

- أتدرين.. أتمنى لو خرج الاختيار الجلد..

- ماحنا فيها.. فليكن الجلد.. وبلاش لعبة الموت دى..

- وأنا موافق.. الجلد حد الله..

يرتفع آذان الفجر..

- انظرى.. يبدو أنك توبتك ستقبل..

- أبعد الجلد، لا يكون ابنى ابن حرام..

- الحد يمحو الخطأ. الحد توبة مقبولة، تعودين كما ولدتك أمك. هيا امسكى هذا العمود. ساعدينى أقيدك.

- وابنى.. مادام الحد يمحو خطئى.. هل تتزوجنى ؟

- سأفعل، ليس لأجلك، بل لأجله، حتى لايكرر قصتى، ويعيش مأساتى.

- لكنى قد أموت.. فما مصير ابنى..

- لو حدث ستدخلين الجنة.. وأتخلص أنا من قبرى.. وأربي لك ابنك كأنه ابنى..

انصاعت له، قيدها، وجلدها بلا رحمة، كان يضربها بقسوة كأنه يفرغ فيها قسوة الأيام. كأنه يطهر فيها أمه الذى ظل يكرهها. كأنه يحاول أن يعيدها إلى قلبه..

ظل بعدها يداويها، من آثار الضرب، ثم عقد عليها ومضيا من الحارة، إلى بلد أخرى، لم يعرف الطفل أبا أحن على ابنه منه، وهى استقامت بعد الحد، كأنها دخلت جهنم بعض الوقت، فخرجت منها لا تنوى العودة لها ثانية.

﴿٢﴾

قد يجهدك التعامل مع الناس، لكنهم ليسوا شراً مطلقاً. وما أحوجنا والناس هم أهم المشاكل التى تواجهنا أن نجد نوراً يشق لنا طريقاً بين الناس، فلا يقدر كل ظلامهم أن يطفئ كل هذا النور. ولن يستطيع كل ظلام الدنيا أن يطفئ نوراً ولو كان ضوء شمعة، ويستطيع هذا الضوء الضعيف دائماً أن يدحر الظلمة المحيطة به.فكن نوراً ؛ فالنور دوماً يغلب.

يرسم لنا الإمام على بن أبى طالب الطريق الأمثل للتعامل مع الناس. يرسم لنا طريقاً من النور لا تقدر عتمة الناس أن تمتص نوره. يقول كرم الله وجهه: **خالطوا الناس مخالطة إن متم معها بكوا عليكم،وإن عشتم حنوا إليكم.** آه لو حرص كل منا أن يبنى رصيداً فى قلوب الناس متعمداً أن يذكروه. ويقول: **من أسرع إلى الناس بما يكرهون، قالوا فيه بما لا يعلمون.** ويقول **عاتب أخاك بالإحسان إليه،وأردد شره بالإنعام عليه.**ويقول: **احصد الشر من صدر غيرك بقلعه من صدرك.**ويقول: **أكبر العيب أن تعيب ما فيك مثله.ويقول: كفاك أدباً لنفسك اجتناب ما تكرهه من غيرك.**

ضع نفسك حيثما تضعك الناس. إذا أبعدوك فكن بعيداً. هكذا أنا. فى العلاقات. لكن فى المكانة الأمر يختلف فضع نفسك حيث تريدها: وما المرء إلا حيث يجعل نفسه. وقديما دخل الفارابي على سيف الدولة. فظل واقفاً. فقال له سيف الدولة: اجلس. قال حيث أنا أم حيث أنت ؟ يقصد أجلس حسبما تراني أو حسب ما أرى نفسى. ففهمها سيف الدولة. وأراد أن يختبره ليرى في أية مكانة يرى فيها نفسه. فقال له. بل حيث أنتَ. فمضى الفارابي يتخطى رءوس الناس حتى وصل إلى الخليفة فأزاحه من مكانه وجلس مكانه. فلتكن هكذا دائماً. أنتَ أنتَ !

أما عن العلاقات بين الناس. فلا تقترب ممن لا يريد اقترابك. وضعْ نفسك كالشجرة المثمرة يأتيها الناسُ فلا تأخذ منهم سوى فضلها عليهم بثمارها. وإن ابتعدوا فلم تخسر شيئاً. ثمة كثيرون سيأخذون الثمار. وصدق الإمام على : **لم يذهب من مالك ماوعظك**.

لا تنشغل بإخلاص الآخرين. فكم من رجال كانت قضية إخلاص الآخرين هى شغلهم الشاغل. وانتهوا إلى أنانيين. لأنهم محوريون لذواتهم. يرون ذاتهم هى كل شىء. ويرون العالم يجب أن يتوقف لأجلهم. ويجب أن تتوارى حاجات الآخرين لأجلهم.

أعرف الناس وكفى. فى مرات عديدة أكتفى بمعرفة الناس. ولا أفعلُ شيئاً يجانس نفوسهم أو أفعالهم. تكفينى المعرفة. المعرفة تمنع الصدمة، وعلى الإنسان أن يتحمل الصاحب المتعب ما استطاع التحمل. فإن ضج وعجز عن التحمل فلا يكلف الله نفساً إلا وسعها. أعرف رجلاً استمر مع صديق متعب جداً. مصراً ألا ينهى الصداقة إلا إذا أنهاها هذا المجهد. وأن يستمر ما استطاع للتحمل سبيلاً. وكانت فلسفته أن الرجال تُقاس بالتحمل على المكاره. لا بل بما يجب أن يتم. وإنه يكفيه أن يعرف الإنسان حتى لا يؤلمه ما يصدر منه. وكان يقول: لو خيرنى الله بين أن أكون من يؤلم الآخرين. أو أكون من يتأذى منهم. لاخترت الثانية. ويقول: ماضرنا لو اعتبرنا الأصدقاء جيراناً. إذن لكيّف كل صديق حياته على الاستمرار مع صديقه. وأن يتعلم الصبر حتى يقضى الله أمراً كان مفعولاً.

﴿٣﴾

قالت لى أصبحت لا آومن بالصداقة. تعرضت لضربات قاسية من أقرب الناس لى. قلت لها: هل تصلحين أن تكونى صديقة لغيرك.

قالت نعم، لكنى لا أجد بضاعتى عند غيرى.

قلت: الصداقة موجودة إذن بدليل صلاحيتك أن تكونى صديقة لغيرك.

بعد ذلك قالت لي نفسي بعد تعرضي لهزة في صديق، الآن أنت ذاتك أصبحت لا تؤمن بالصداقة. قلت لها: بل أومن بها إلا إذا فقدت الإيمان بنفسي. فإن كنت أصلح أنا صديقاً لغيرى فالصداقة ممكنة حتى لو خرج كل من صاحبتهم لا يستحقون الصداقة. فيجب أن تؤمن بوجود الصداقة إيمانك بصلاحيتك للصداقة. كل ما هنالك أن النصيب جعلني أعيش في أرض لا تصلح لتلك النبتة. لكنها لو زرعت في أرضها لأثمرت تماماً كما لو زرعها غيري في أرضي.

من هنا أرى أن محور الصداقة هو الإنسان، فاحرص أن تكون إنسانا جيداً، تتصف بصفات طيبة، وهنا تصلح أنت أفضل صديق لغيرك، لا تبحث عمن يصلح صديقاً لك، بل فليكن همك أنت، كن مخلصاً، فالكمال إخلاص أو اتقان أو تفانٍ. كن كتوماً، فكما قيل أنا لم أندم على سر لم أنطق به.

إن الإنسان ليس بحاجة لمقاييس معينة فى الصديق، بل هو فى حاجة إلى مقاييس معينة فى نفسه. ليس مهماً مَن صديقى ؟ فليكن ما يكون. المهم أنا، لقد سُئلت مرة: ما صفات الصديق ؟ قلت أن أكون أنا فى أروعها صفةً. وقتها يمضى الصديق تلو الصديق وأنا لم أخسر شيئاً. ولا يرحل صديق إلا ويحمل لى ذكرى طيبة. لكنى لو كنت إنساناً مملاً فسأفقد الصديق تلو الآخرين، ولن يلبث من ينخدع بى أن يكتشف الحقيقة ويرحل، ولن أكسب شيئاً أن يكون حولى أعاظم الناس. فلو كنت قبيحاً وظهر هذا القبح سيرحلون جميعاً فى لحظة واحدة، لكنى لن أفقد شيئاً لو ظهر أن كل من أعرفهم فالصو، لأنى من البداية حريص أن أظل جوهراً نافعاً. ولا يخسر الإنسان شيئاً حتى لو فقد العالم مادام لم يخسر نفسه.

لذلك احرص على ثوبك أنتَ، وكن فى ذاتك الصديقَ الذى تتمناه حولك. فلو كنت إنسانا نقياً ستتشد الأصدقاء كالنور يشد الجميع دون أن يفعل شيئاً. لكنك لو نجحت في الفوز بأفضل إنسان يصلح صديقاً وأنت بصفات غير جميلة لن يلبث أن يغادرك. كالظلمة ينفر منها كل إنسان.

وإذا أردت تعريفاً للصداقة. فالصداقة إخلاص يجعلك تتصرف بعيداً عن صديقك كأنه معك.

كيف تحتفظ بصديق ؟ دوام الصداقة يحتاج لمجموعة من الأسس:

العمود الأول: عدم الحكم الظني، فمن يبني بيتاً على حكم ظنى كمن يبنى بيتاً على أساس من طين، لا يدوم البناء، يسقط لأنه بلا أعمدة. قتل الشاعر العربي ديك الجن حبيبته لأنه ظن أنها تحب آخر، ثم بعد أن قتلها اكتشف أنه ظلمها، وأنها لم تحب سواه، لكن هل ترجع روحاً غادرت جسدها ؟ هيهات! وما أقساها من قصة، هذه القصة صاغها شكسبير في رائعته المسرحية: (عطيل) ، الذى قتل حبيبته عندما رأى منديلها الذى قدمه لها عند صديق له، ولم يدر أن يداً خفية كانت تريد له أن يظن أنها تعرف غيره، واكتشف بعد أن قتلها الحقيقة، وهنا عندما اكتشف الحقيقة اكتشف أيضاً أنه قتل نفسه عندما قتلها، وأنهى حياته في اللحظة التى أنهى حياتها.

العمود الثاني من أعمدة دوام الصداقة: أن تتعامل مع الصديق كما هو، لا كما تتمنى أن يكون، اعرف عيوبه واتكيف عليها، وهنا لن تصدم فيه .

العمود الثالث: الافتراض، افترض بعد أى خطأ أنه رحل بعد مشادة معك، فبعد صدمتك فيه وعودتك إلى البيت وجدت خبراً في انتظارك مات صديقك، إذا كنت لن تسامح نفسك وستبكى بشدة فاعلم أنك يجب ألا تغضب منه، وأن تصفح عنه برغم الخطأ، ولعلك لو عدت إليه سيجتهد في تجنب هذا الخطأ.

وهنا أفرّق بين خطأين، خطيئة وخطأ، فلو كان خطئاً ستتضايق أنك أغضبته إذا مات، والخطيئة لن تحزن عليه إن مات، في قصة الأيام لطه حسين كان له صديق يسميه رفيق الربع، وكنت أنا في شرح القصة لطلابي أسميه " تفة" وذلك لأنه خان أصدقاءه، عندما حدثت محنة محمد عبده اعتصم الطلاب احتجاجاً على فصله من مشيخة الأزهر، وهنا اكتشفوا أنه كان عميلاً، يقف مع الطلاب في اعتصامهم وفي المساء يتسلل للمحافظة يبلغهم بأخبار المعتصمين، هنا سقط من نظرهم، وابتعدوا عنه، ثم بلغهم خبر وفاته، فلم يتحرك لهم جفن، ذلك لأن ما

فعله كان خطيئة. افتراض الوفاة هو المقياس الذى نقيس به الصفح عن الخطأ أو عدم الصفح.

العمود الثاني: عش الصداقة ولا تنظرها، إن الحياة خُلقت لنعيشها لا لنتفرج عليها، بدلا أن تتحدث عن إخلاصك فلتكن مخلصاً. إن أكثر رفقاء الصبا اهتماماً بنظرية الإخلاص وهل الناس ستخلص له أم لا ؟ كان هو ذاته أول غير المخلصين الذين عرفتهم، في حين ثبت إخلاص آخرين لم يتحدثوا أبداً عن مفهوم الإخلاص. فبدلاً من أن ننشغل هل أصدقاؤنا يحبوننا أم لا، فلنعش الحياة ولنترك المواقف تثبت أو تنفى وجود الحب في داخلنا.

وأخيراً لو لم تدم الصداقة وتعرضت لغدر صديق، ففى رأيى أن غدر الصديق لا يجب أن يؤلم مهما كان قاسياً وغير متوقع، فتلكم نعمة لا نقمة. والدليل على ذلك أننا لو عرضنا عليك المقايضة، أن تصبح مكان الذى غدر، ويصبح هو مكانك مغدوراً به، لو كنت توافق فهي طعنة وغدرة ونقمة، لكن لو كنت لا تقبل تلك المقايضة أبداً فأنت الذى حذت النعمة وليس هو، والنعمة تقتضى الشكر لا الضيق.

﴿٤﴾

فى حياة كل منا أحداث رائعة، وأخرى غير رائعة، يجب أن نبرز الأولى، أن نظل نتحدث عنها لتلمع، ويقتدى بها الآخرون، وأن نستفيد من الأخرى. أن تتحول الأخرى إلى دروس مستفادة. لاعيب فى الخطأ، فقد أخطأ من هم أشرف وأكرم، لكن العيب فى اعتقاد أن هذا الخطأ عار، إنما العار تكرار الخطأ. لو تحول الخطأ إلى حصن أو قلعة تحول دون غزو خطأ آخر، فهو فضل عظيم.

﴿٥﴾

أحب قولة علي بن أبي طالب **إذا قدرت على عدوك فاجعل العفو عنه شكراً لله لأنه أقدرك عليه**. ولهذا عندما انتصر المعتصم على الروم في واقعة عمورية واستدعى المرأة العربية التى استصرخته بصرختها المشهورة: وامعتصماه، وقال لها هاهو عدوك

الذى أهانك قد جعله الله تحت رحمتك فاحكمي فيه بما تشائين. إذ بالمرأة العربية تقول للمعتصم: إذا كان الأمر كذلك فقد عفوت عنه. فقد شفيت نفسى بما فعلت يا أمير المؤمنين. لهذا أميل لعدم الانتقام ممن يستحقون الانتقام. لأني أري الانتقام فخاً لسحبى بعيداً عن نفسى. لأكون ليس أنا. وفي ترفعي عن الانتقام لا أهدر حق المخطئ في العقاب. فهو سيناله العقاب حتماً من الله. فليس هناك ثمة حاجة أن يكون بيدى . أعفو عما حدث فى حقى، ولا يلبث الشط أن يلقى جثة هذا الظالم. دون أن أساهم فى العقاب. احتفظ لنفسى بنفسى التى أعرفها. ولا يخل ذلك فى ميزان العدالة. إذ يلقى المخطئ جزاءه وتظل يدى نظيفة. ثمة نقطة يجب التوقف عندها. هى ميزان العقاب. قد يكون عقابك لمن يستحق العقاب أكثر مما تستحق جريمته. ولهذا دعانا الله إلى العفو. نعفو نحن، ويعاقبهم هو، تحقق لنا ما نريد ولم نفقد أنفسنا. لكن ينبغى التنبيه أن هذا لا يدعو المظلوم عن ترك حقه. فما أقوله يندرج فى سياق القدرة على العقاب. فالعفو لا يأتى إلا عن قدرة. وهذه القدرة على العقاب قد تغرى بالمغالاة فى العقاب.وصدق الإمام على: إذا قدرت على عدوك فاجعل العفو عنه شكراً للقدرة عليه. أما الظالم الطاغية الذى يظلم ضعيفاً. فلا ينطبق عليه هذا الحديث فذلك شيء آخر.

يوماً ما جاءنى دكتور حديث فى كلية. وطلب منى أن أطبع له كتباً. وطلب منى ألا أطلب ما تبقى عليه إلا بعد انتهاء نصف العام. وأعطيته الكتب. ولم أطلب منه المبلغ إلا بعد الموعد الذى طلبه بشهر. فإذا به يقول لى: ليس لك عندى شيء. أتدرى كنت أعرف كيف أثبت أن كتبه تلك مسروقة من كتب أخرى. وكان يمكن أن يفقد وظيفته لو فعلتها. لكنى كنت أقول لقد سرقنى فى مبلغ صغير. ولا أستطيع أن أكبده عقاباً رهيباً يفوق أضعاف جريمته. استعوضت الله فى المبلغ. وعوضنى. وهل يضيع عند الله عوض ؟ وبعد وقت كنت أقول لصديقين لى عن طبعى هذا. إنى لا أحب أن أنتقم ممن يخطئ فى حقى. وأعفو عنه مع القدرة على ذلك. ولا ألبث أن أراه يقع لكن دون تدخل منى. فحكيت له تلك القصة دون أن أذكر اسم الدكتور ولم أذكر سوى قريته. فإذا به يقول لعله فلان. فقلت له نعم. أتعرفه ؟ قال نعم. وسأحضر لك المبلغ. لأنى لى تأثيراً على عائلته. وفعلاً أحضر لى أغلب المبلغ. وقال لي. وثمة أمل فى إحضار البقية. والقضية لم تكن المال. ومازال هذا الرجل خاسراً رغم دفعه المال. فلا أستطيع احترامه. وأثق أنه لن تنتظم حياته أبداً. وأثق أنه يمارس أسلوبه هذا معى ومع غيرى. وغيرى لا يعفو. بل يرد بانتقام منه. وغالباً يكون الانتقام أكبر

من الخطأ، فيكون هذا الآخر قد أخذ بثأرين ثأر نفسه وثأر من عفا.

ثمة قصة عربية تحكى عن شاب سفيه، أراد الشهرة عن طريق إهانة كبير القوم، سيد تميم الأحنف بن قيس، وصفعه على وجهه. وكان الرجل حليماً، فقال له: لم لطمتني؟ قال: جُعل لي مال أن ألطم سيد بني تميم قال: ما صنعت شيئاً، عليك بحارثة بن قدامة فإنه سيد بني تميم. . وذهب الأحمق إلى حارثة وكرر فعلته، لكن حارثة هذا لم يكن حليماً مثل الأحنف، فرد الصفعة على الشاب بقطع يده . يومها قالت الناس: قطعها الأحنف بحلمه . لو أن ذلك الحليم عاقبه على فعلته، ما تجرأ على صفع الثانى. وما دفع يده ثمناً .

المهم من القصة السابقة، نرى أن الأخير أخذ بحق الاثنين، لكنى كما ترين أفضل أسلوب الرجل الأول، يقدر على الرد، ولا يفعل، حتى لا يصبح غير نفسه، ويظل حليماً كما هو مشهور عنه، ولا يفوته عقاب المخطئ، يعاقبه له آخر. بمعنى آخر أن المخطئ يسعى لحتفه. فإذا أفلت فى المرة الأولى، يكررها فى ثانية وثالثة، فعقابه قادم بيده، فالظالم كما يقولون يحمل حفرته، وكلما تُرِك أوسع الحفرة التى سيقع فيها. وما ابتعاد الإنسان عن الرد على الظلم برغم القدرة عليه إلا ليحتفظ بنفسه كما هى، فلعله لو أراد الرد على الظالم لأخذ أكثر من حقه أو عاقبه بأكثر مما يستحق، هنا يصبح ظالماً فى الجزء الزائد. ولا يعنى هذا أبداً إفلات الظالم، لأنك تكل أمره إلى الله، والله يكلف ظالماً آخر ليكون وليا له، والظالمون أولياء بعض.

هوجمت مرة لأني لم أهاجم رئيساً لي كنت أحبه، ثم اختلفت معه لأنى كنت أطمع أن يحقق الكمال مادام يقدر على ذلك، وهو كان قنوعاً بما حقق لأنه حقق أكثر من غيره. سألني هذا الزميل: أراضياً عنه ؟ قلت له: الآن لا، قال فلماذا لا تهاجمه ؟ قلت يفعلها غيرى. قال ولماذا ليس أنت ؟ قلت: لن يعدم المخطئ أن يجد من يهاجمه، لكن عن نفسى لا يمكننى أن أهاجم أصحاب الفضل علي. ربما يكون هذا المبدأ خاطئاً، لكنى لا أملك إلا أن أفعل ما أقتنع أنا به، وقتها سخر مني، قلت له: لا تقول الناس عنى:إنى أطعن أصدقائي. استمر في سخريته، وقال: الله أحق أن تخشاه، قلت له: لقد كان النبي ﷺ أكثر العالمين خشية لله، ومع ذلك رفض أن يقتل رأس المنافقين الذى ارتكب فى حق الإسلام أبشع ما يرتكبه كافر، وقال: لا تقول الناس، محمد يقتل أصحابه . واكتفى النبي بأنه قد أصبح معروفاً له وللمسلمين، ومن ثم يمكن اتقاء شره. لكن زميلي ظل - لأنه يكره الرجل - يرانى مقصراً لأنى لم أهاجمه، كان هذا الحديث يوم ثلاثاء، بعدها بيومين مات رئيس العمل،

ترى ماذا لو كنت هاجمته ثم مات بعدها ؟ قال لى صديق: آه لو فعلتها، لقالت الناس إنك قاتله.

كن قلباً كبيراً، يكسب الآخرين، وحتى يكون الإنسان قلباً كبيراً يجب أن يكون قلبه فى أنامله، أى أن تكون كل الأفعال التى تخرج من يده تنطق بطيبة قلبه، أن تموت روح الأنتقام فى قلبه، ألا يقابل الشر بشر، فالنار لاتطفئها نار.

فى يوم تغيظ الرسول ﷺ كأشد ما عاش إنسان الغيظ، عندما رأى حمزة عمه، وأخاه في الرضاعة، والبطل الذى لا يبارى، وقد مثّلوا به،وقطعوا أعضاءه، وأخرجوا أمعاءه، وأقسم ﷺ أن ينتقم منهم، وأن يثأر لعمه بسبعين منهم يمثل بهم، لكن القرآن يهبط عليه بناموس الله أن الثأر بالمثل ولا يزيد، ولو عفا فهذا أحب إلى الله، ويختار النبي ﷺ العفو. نزل نبى تحت شجرة فلدغته نملة، فأمر بقرية النمل فأحرقت، فأوحى الله إليه: هلا نملة واحدة.

﴿٦﴾

ولا أجد ختاماً أروع من تلك الجلسة العائلية التى كان يعقدها أب مع أبنائه الثلاثة (أحمد، إبراهيم، سمير) الذين عّودهم على القراءة، ويعمل جائزة لأحسنهم حكاية :

قال الأب لأبناءه:عندي لكم هدية غالية لأحب قصة يحكيها كل واحد منكم، ويحكي لي ما فهمه منها.. نبدأ بأحمد...

أحمد: هي قصة قرأتها بالأمس عن فتي اسمه ميداس من الإغريق..صلوا على النبي.

الأب: عليه الصلاة والسلام يابنى..

أحمد: كان فى بلاد الإغريق شاب اسمه ميداس ساعد ساحراً عجوزاً، فعرض عليه العجوز أن يطلب شيئاً واحداً ويحققه له.. فكر ميداس ،وفكر. ثم قال للعجوز..

ـ أطلب أن يتحول كل شئ أمسه إلى ذهب..

وحقّق له الساحر العجوز أمنيته، كل شئ يمسكه ميداس يتحول ذهباً، مضي ميداس فى طريقة سعيداً، لا يصدق نفسه، يمسك كل شئ فى الطريق ليتأكد أن المنية أصبحت واقعاً.. لم يصدق عينيه وهو يري الذهب يلمع، أصبح أغني البشر، سيشتري كل الدنيا، أول شئ سيفعله، يذهب إلى حبيبته يخبرها بالخبر، فى الطريق إلى بيت حبيبته يجلس يأكل تفاحة كانت معه، يجدها تصلبت وانقلبت ذهباً خالصاً.

يحاول أن يأكلها.. لكنها تتحدي أسنانه لا يمكنه أن يأكل ذهباً. أول مشكلة ضد هذه الثروة الضخمة. كيف سيأكل ويشرب. وكل شئ سيمسكه يصبح ذهباً؟ كاد يكتئب لكنه لم يلبث أن تذكر أنه سيصبح سيد العالم وسيكون عنده خدم كثيرون. سيجلس ويضعون الطعام فى فمه والشراب.

يواصل المسير بنفس الفرحة. ينادي حبيبته. تخرج إليه. يرقص لها:

ـ قد أصبحت أغني رجل فى العالم، كل شئ أمسكه يتحول إلى ذهب. انظري.

يتناول طوبة. تتحول إلى ذهب. تنظر إليه غير مصدقة. سوف تصبح زوجة أغني رجل فى العالم. تجري إليه. تمسك يده لتدور به، وترقص معه. يصرخ فيها: لا..لا تمسكي يدي.

لكنها لا تسمع صرخته، فقد تحولت إلى تمثال من الذهب. لا يصدق عينيه ؛ قد قتل فتاته التي تمني أن يصبح غنياً لأجلها. لا يصدق. يتحسسها قد ذهبت فى لمحة عين. قتلها.. يقف.. جوارها.. ويمسك نفسه بيده.. يتحول فوراً إلى تمثال من ذهب إلى جوارها.

الأب: قصة جميلة يا أحمد.. لن أسألك ما مغزاها.. فقد عرضتها عرضاً ينم عن فهمك.. لكني سأسألكم أنتم ماذا تعني هذه القصة..؟؟

إبراهيم: أقول أنا..

الأب: قل يا إبراهيم..

إبراهيم: فهمت من قصة ميداس أن حصول الإنسان على المال لا يعني حصوله على كل شئ باختصار المال ليس كل شئ.

الأب: وأنت يا سمير..؟

سمير: ما فهمته أن الحياة تصبح بلا طعم لو كانت سهلة.. وأن النعمة قد تصبح نقمة وكان لابد أن ينتهي ميداس إلى هذا المصير ؛ لأنه لو أستمر لقطع ذراعيه.

إبراهيم: لو كنت مكان ميداس لحوّلت كل شئ فى قريتي إلى ذهب. ثم أقطع ذراعي. ومعنى ذلك أن النعمة يمكن ألا تصبح نقمة لو ضحى صاحبها بشيء عزيز عليه.

الأب: حسناً يا أولاد. هي قصة جميلة تعلمنا أن سهوله الوسيلة تفسد علينا جمال الغاية. ألستم معي أن الإنسان عندما أصبح له جبال من الذهب لم يصبح أيضاً سعيداً؟ فلماذا فى سبيل قليل من الذهب يبيع بعض الناس نفوسهم ؟؟؟والآن ما القصة الثانية؟ إبراهيم.. ومهمتك صعبة بعد قصة ميداس.

إبراهيم: سأحاول. بعد الصلاة على الرسول الكريم.

الجميع : عليه الصلاة والسلام.

إبراهيم : غضب كسري ملك فارس على النعمان بن المنذر. فهرب النعمان إلى بلاد العرب، ووضع نساءه وماله وأهله عند أحد سادة العرب ويدعى هانئ بن مسعود، ثم بعد أن اطمئن عليهم عنده ذهب إلى كسري ليزيل غضبه. لكن كسري قتله بعد أن رماه تحت أقدام الفيلة. وبعد ذلك أرسل إلى هانئ بن مسعود يطلب ما استودعه النعمان عنده. كان السيد يدرى أنه لا قبل له بملاقاة الفرس. فهو قبيلة صغيرة أقل قوة من النعمان. وقد استسلم النعمان. فماذا يفعل هو ؟ كان يدرى أن قرار الرفض يعنى الحرب وإبادة القبيلة. لكن التفريط في الأمانة يعنى الموت على قيد الحياة. ولم يتردد هانئ بن مسعود. رفض أن يعطيه شيئاً. فغضب كسرى وقرر أن يحاربه.فما كان من هانئ إلا أن استجار بقبائل العرب فالتقت العرب بالفرس وانتصر العرب فى هذه الموقعة على الفرس (وبهذا ضرب هانئ مثلاً دفع حياته حتى لا يخون أمانته)

الأب : آه. وضعت يدك على الجرح يا هيمة. هذه الموقعة يا أولاد تسمي ذي قار. فما الدروس التي نخرج بها من هذه المعركة ؟

أحمد : أن عدم الخوف من ضخامة العدو وقوته هي أول خطوة فى الانتصار عليه. وأن الإيمان بالحق بداية الانتصار على العدو.

سمير : كثيرون يخافون من العدو ويتجنبون مواجهته خوفاً أن يموتوا. ثم يموتون فلا تسمع شيئاً عنهم. بينما ظل هانئ بن مسعود حياً إلى اليوم لأنه لم يخشى الموت. وصدق الصديق أبو بكر وهو يقول أحرص على الموت توهب الحياة.

الأب: وماذا أيضاً يا أولاد ؟

أحمد: وحدة العرب يا أبى..

الأب: وحدة العرب.. يا أحمد.. قل يا بني .

أحمد: وحدة العرب تساوى انتصارهم.

الأب: حقاً يا بنى.. ما من معركة اتحد العرب فيها إلا وانتصروا.. والعدو معركته معنا ليس أن يقوى علينا بل أن يفرقنا.. ووقتها يضمن تفوقه علينا حتى لو كان ضعيفاً..

إبراهيم: أيضاً قرأت عن هذه المعركة أن العرب انتصروا لأجل وجود الرسول علية الصلاة والسلام بينهم قبل بعثته.

الأب: هذا صحيح، انتصر العرب لأول مرة على العجم، وبالرسول انتصروا. وهل هذا كثير ؟ لقد خلق الله الدنيا كلها من أجل رسوله، فهل لا ينتصر العرب ببركته. لكن هذا لا

يعني أننا سوف ننتصر لمجرد أننا أتباعه. فالعرب انتصروا لوجود مقومات النصر وأهمها الوحدة. والآن مع القصة الثالثة. هيا ياسمير.

سمير: بعد الصلاة على النبي المختار. قصتي قصة قصيرة جداً عن ثمانية رجال من صحابة الرسول. جرحى في غزوة أحد. كلهم يقتلهم الظمأ. يفوت عليهم صحابي بالماء. الأول يرفض أن يشرب ؛ ليشرب الثاني. يذهب للثاني ؛ يرفض أن يشرب قبل الثالث. وهكذا حتى وصل إلى الثامن. يطلب منه أن يشرب لكنه يرفض ويطلب منه أن يرجع إلى الأول.. يرجع إليه يجده قد مات. ينتقل إلى الذي بعده يجده مات حتى يصل إلى الثامن، فيجده أيضاً قد مات. ماتوا جميعاً دون أن يشرب أحد منهم.

الأب: ماذا فهمتم من قصة سمير القصيرة الكبيرة..

إبراهيم: هي تعني شيئاً واحداً لكنه كل شئ في الوجود: أن يتجرد الإنسان من ذاتيته ويصبح أخوه أحب إليه من نفسه

الأب: والإيمان هو هذا المعنى.. يقول رسول الله ﷺ لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما.. وأنت يا أحمد..

أحمد: الإنسان يصغر جداً يا أبي أمام تضحية كهذه. لقد قلت لنا قبلاً إن الإنسان لو تجرد من أنانيته لفاق الملائكة. وهذه القصة تثبت ذلك.

إبراهيم: لقد عرفت الآن كيف أملك الدنيا ؟ بألا أحرصَ عليها !

الأب: والآن تنتظرون الجائزة ؟

أحمد: الجائزة هي شربة الماء في قصة الجرحى. أن يتعلم كل منا أن يتنازل لخيه عن أعز شيء عنده . ويؤثر بها أخاه. تلك هي جائزتنا .

الأب: بارك الله فيك يا بني. سأعطي كل منكم جائزة.رغم أنكم كما قلت أخذتم اليوم جائزة أكبر شأناً. مجموعة قيم يعيش بها الإنسان ويظل إنساناً. حب أخاك أكثر من نفسك، دافع عن حقك مهما كانت قوة عدوك. المال ليس كل شئ.

إبراهيم: والآن ياأبي، جاء دورك..

الأب: سأحدثكم عن شخصية أحبها اسمها أوس بن حارثة. كان يجلس في مجلس النعمان بن المنذر. فدخلها عليهم الملك بحلة جديدة مطرزة بالذهب. لم يروا مثلها من قبل. فأخذ شيوخ العرب يشيدون بالحلة وجمالها. إلا أوساً..

فاتجه الملك إليه..

ـ ألم تعجبك الحلة يا أوس..

ـ قال يامولاي، الحلة تحسن وتسوء وهى في أيدى التجار في السوق، فإذا ارتداها الملك زانها، وأصبح ت .

فأعجب الملك بقوله، وقال غداً إذ تجتمعون إلى، أختار من بينكم سيد العرب، وأمنحها حلتى تلك.

فبكر الجميع يلبسون أفضل ثيابهم إلى مجلس الملك، إلا أوساً، قال في نفسه أنا سيد نفسى، ولو ذهبت إلى المجلس ومنعت الأمر فقد يكدرني هذا. وإذا برسول الملك يأتيه: احضر ولا تخش شيئاً مما في رأسك.

فحضر أوس بملابسه التى كانت عليه بالأمس لم يغيّرها، فقال الملك بذكاء وقد وقع اختياره على أوس سيداً علىالعرب، أراكم قد لبستم أفضل ما عندكم، أما أوس فلم يلبس ملابس جديدة، فاسمحوا لي أن أهبه حلتى.

وحسده شيوخ العرب،واستعدوا عليه شيخ الهجائين الحطيئة، فقال لهم أهجو لكم أى إنسان حتى نفسى إلا أوساً، قالوا له لا نريد إلا أوساً.. قال: لا.. ما في بيتى شيء إلا ومن عنده، والله لا أهجوه. فظلوا يعرضون على الشعراء ويزيدون لهم في العطايا ليقبلوا هجاء أوس، حتى وافق شاعر يسمى بشراً، هجا أوساً وأمه سعدى بأفظع كلام.

وأقسم أوس ألا يضع وجهه في وجه أمه حتى يأتيها بالشاعر الكذاب الذى اتهمها زوراً في شرفها ليحط من شأنه، وبذل ماله سخياً في سبيل هدفه، حتى قبض على الشاعر، وعلى الإبل التى أخذها في مقابل الهجاء. ووضعه في جلد حمار ميت، وقال له: احكم على نفسك: قال الشاعر: ميت أنا لا محالة..

وهنا قبل تنفيذ حكم الموت فيه، ذهب إلى أمه، وقال لها الآن أقبلُ أن ترى وجهي، بعدما ظفرت بعدوى الذى تجرأ علينا، فهل تحبين أن تشهدي موته، وأى طريقة تحبين أن يموت بها؟

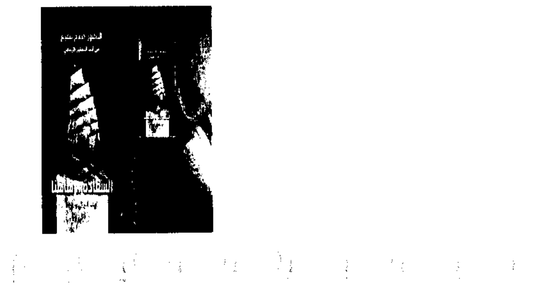
قالت المرأة العربية: يابنى لقد يأس الرجل من عودته إلى أهله، فما رأيكَ لو عفوت عنه، ورددت إليه إبله، ومثلهم من عندي ومثلهم لو شئتَ من عندك..

ـ بعد كل ما فعل ياأماه ؟

ـ لأجل ما قال يابني، فإذا قتلته من يمحو ما قاله عنا ؟ لا يمحو سوء مقالته فينا سواه،

فارجعه إلى أهله.

ويعفو أوس عن الرجل ويعطيه ما أمرت به أمه. فينقطع الشاعر عن الشعر سوى مديح أوس وأمه. حتى نُسي اسم أوس بن حارثة. وأصبح يُعرف بابن سعدى.



(الكلمة السادسة العاشرة)

الإنسان هو الوقت

الكلمة السادسة عشرة:

الإنسان هو الوقت

﴿١﴾

بُنى.. إذا أردت أن يعرف الناس عنك ما هو جميل، فيجب أن يكون داخلك كذلك، فقد جعل الله جسمك المقهور منك، يطلق إشعاعات للآخرين بتكذيبك، لو كنت تجبره على خلاف ما زرعه الله فيه من خير. فهذا الجسم الذى سيشهد علينا في الآخرة، يكتفى في الدنيا بالمقاومة، تلك المقاومة تصل إلى الآخرين، يشعرون بها، لهذا أقول لك لو أردت أن تكون طيباً في نظر الناس فلا سبيل أمامك سوى أن تكون طيباً في الحقيقة، لكن إن كنت ماكراً وتدعي الطيبة فلن يستمر هذا طويلاً، فلن تلبث الناس أن تكتشفه.

فعلى كل إنسان لا يريد للآخرين أن يسبروا ما في دخيلته من أشياء قبيحة فعليه أن يغيّر ما بداخله، عليه أن يتمثل الطيبة ليكون طيباً، فإذا أردت ألا يعرف أحدهم أنك تكرهه فيجب ألا تكرهه فعلاً ، وإذا أردت ألا يعرف أحد أنك كسول، فلا تتكاسل. وإياك أن تطمع فى الجمع بين الشيء القبيح وجهل الآخرين به. يقول ﷺ : **ما أضمر إنسان شيئاً إلا ظهر فى فلتات لسانه.**

هناك أناس تصل بهم الغفلة أن ينصبوا من أنفسهم دعاة يدعون الناس إلى الخير، وهم لا يفعلونه، العجيب أني كنت أعرف عنهم ذلك وأتعجب في ذلك، ثم فوجئت بأن الناس تسخر منهم، أكتشفت أني لست وحدى الذى أعرف ذلك. لذلك أقول لك إن كل ما بداخل الإنسان يقرأه الآخرون أو على الأقل من يجيد القراءة منهم،، يقول زهير:

ومهما تكن عند امرئ من خليقة ... يخالها تخفي على الناس تعلم

وإياك والاعتذار،لا تقل آسف، أقصد طبعاً لا تفعل ما تعتذر عنه، إن آسف هى النائب الفاشل فلا تستعمله، ويقول النبى ﷺ : **إياك وما يعتذر عنه.**

﴿٢﴾

يثير عجبى ضيق الناس من وصفهم بأفعالهم، ولايضايقهم أن يفعلوه. فما أعجب أن يتضايق الكذاب إذا قلنا له إنك تكذب. فإذا كان وصف أفعالي لا أطيقه . فمن باب أولى أن لا أطيق فعله. ومادمنا نتحدث في العجب. فلنر مما يتعجب منه الإمام على بن أبي طالب. يقول: **عجبت للبخيل يستعجل الفقر الذى منه هرب. ويفوته الغنى الذى إياه طلب. فيعيش فى الدنيا عيش الفقراء ويحاسب فى الأخرة حساب الأغنياء**.ويقول كرّم الله وجهه: **يابنى لا تخلفن وراءك شيئاً من الدنيا فإنك تخلفه لأحد رجلين؛ إما رجل عمل فيه بطاعة الله فسعد بما شقيت به.وإما رجل عمل فيه بمعصية الله فشقى بما جمعت له. فكنت عونا له على معصيته.وليس أحد هذين حقيقاً أن تؤثره على نفسك**. ويقول: **لاتجعلن أكثر شغلك بأهلك وولدك. فإن يكن أهلك وولدك أولياء الله فإن الله لا يضيع أولياءه.وإن يكونوا أعداء الله فما همك وشغلك بأعداء الله.**

ويقول عليٌّ كرّم الله وجهه: **وعجبت للمتكبر الذى كان بالأمس نطفة ويكون غداً جيفة. وعجبت لمن شك فى الله وهو يرى خلق الله وعجبت لمن نسى الموت وهو يرى الموتى.**

﴿٣﴾

بني.. إياك الكيد. فوالله ما كاد إنسان إلا اكتوى بنار كيده. ولا يصل المظلوم إلى حقه إلا على أكتاف أعدائه. وإن أنس لا أنسى ما فعله عدى بن زيد عندما أغرى كسرى بأن يتزوج ابنة النعمان نكاية فى النعمان. لأنه يدرى أن النعمان العربي سيرفض أن يزوج ابنته العربية بأعجمي. ومن ثم يتعرض النعمان لغضبة كسرى. وهذا ما حدث. جاء عدي موفداً عن كسرى يطلب يد ابنة النعمان. فقال النعمان: أليس في مها السواد ما يغنيه ؟ يقصد النعمان أن في سواد العراق من الحسناوات ما يغنيه عن أن يطلب غيرهن. وجاء عدي فأبلغ كسرى اعتذار النعمان وترجم له كلمة (مها)بمعنى غير ما يقصده النمعمان. فلم يترجمها بمعنى الحسناوات كما يستعملها العرب. ولكنه ترجمها بمعناها الحرفى (البقر) فغضب كسرى بشدة..وعدّها لطمةً عربيةً على وجهه. فاستشاط غضباً. ورمى بكل العرب القريبين منه فى السجن ومنهم عدى صاحب المكيدة. ووقع العربي فى الحفرة التى فحتها لأخيه العربي لأنهما فى النهاية واحد. وكذب من يقول إن الواحد اثنان. ومن يشطر نفسه يصيبه الألم ذاته.

مثال أخرى. لقد خافت الجليلة أم البنات على عرش زوجها الملك كليب. خوفاً أن يرثه أخوه الزير

سالم. حاولت التخلص منه. وأوحت إلى زوجها أن أخاه هذا يعجب بها. قلق الزوج وأبعد الأخ. وفقد الثقة فى زوجته. عندما غضب الزوج على أصهاره. لم تجد لها تأثيراً عليها. واشتعلت النار بينهما. اشتدت سطوة الزوج. غضب أخوها وتهور.وقتل زوجها. رفضها أهلها وأهل زوجها. حتى ابنتها رفضتها لأنها لا تنسى أن قاتل أبيها هو أخت تلك المرأة. أصبحت غريبة عن بيتها وبناتها وأهلها. وهى العزيزة. التى خرجت القبيلة عن بكرة أبيها قبلا تطلب الموت من أجل منع زواجها بالملك التبع اليمانى. اليوم يركلها الصغير والكبير. ابنتى لا يحيق المكر السيء إلا بأهله.

﴿ ٤ ﴾

في حديث للنبي ﷺ يعد من جوامع الكلم يرسم فيه منهاج حياة للإنسان تكفل له السعادة في الدارين. يقول رسول الله ﷺ : **اتق الله حيثما كنت. واتبع السيئة الحسنة تمحها. وخالق الناس بخلق حسن .**

الحديث على قصر كلماته يحدد علاقات الإنسان بكل شيء. تحديداً بثلاث: علاقته بربه.وعلاقته بنفسه. وعلاقاته بالآخرين من حوله.

فالعلاقة بين الله والإنسان تقوم على خشية الله في كل وقت. لأنك إن لم تكن تراه فهو يراك. ولو كل إنسان قبل أن يفعل شيئاً شعر أن الله يراه. لتجنّب الخطأ. ويطالب الله ابن آدم ألا يجعله أهون الناظرين إليه. وعندما يتلافى الإنسان ما يتسبب في دخوله جهنم فقد فاز في علاقته بالله.

أما علاقة الإنسان بنفسه فتتلخص في: الأمل في النجاة. والتوبة عن الخطأ والتسليم أن تلك التوبة تمحو الخطأ. وتغسل عن الإنسان ذنوبه. فلا ييأس من تلك الذنوب. فثمة باب يفتحه النبي للأمل في النجاة. (والحسنة تمحو السيئة لأن السيئة تكتب بمثلها والحسنة تكتب بعشر أمثالها) .

والعلاقة الأخيرة مع الآخرين: يجب أن تقوم على حسن الخلق. ومقومات حسن الخلق هى عدم الإساءة للآخرين. التراحم. العفو. لقد ظل سرى الصفدى يستغفر ربه ثلاثين عاماً على ذنب واحد. أتدري ماهو؟ وقع ببغداد حريق. فاستقبله واحد وقال له: نجا حانوتك. فقال: الحمد لله. فندم من ذلك الوقت لأنه أراد لنفسه خيراً من دون الناس.

ولا حظ دقة الاستعمال في لفظة الناس التى تعنى أنه ﷺ لا يقصر حسن التعامل على المسلمين فيما

بينهم، بل هو أمر عام للناس جميعاً، فهو يراعى أن المسلمين سيعيش معهم غيرهم، وأن حسن مخالطة المسلمين لغيرهم تجعل الآخرين يبادلونهم هذه المعاملة الطيبة.

ومرة أخرى نحدد الدستور الذى أجمله الحديث في اثنتي عشرة كلمة:

١. مع الله: الخشية الدائمة من الله في كل مكان وزمان.

٢. مع النفس: التطهير من السيئات بفعل الحسنات (إن الحسنات يذهبن السيئات).

٣. مع الآخرين: حسن التعامل والإحسان لهم.

إن العناصر السابقة هى دستور لسعادة الإنسان في الدنيا والآخرة. ولو جعلناه نصب أعيننا لحصلنا على مجتمع سليم رائع.

﴿ ٥ ﴾

إذا أردتَ الدنيا فأعطها ظهرك. فهى تطلب من تكبّر عليها. ولقد وهبتْ نفسها لكل من تكبّر عليها، زهد العقاد في الوزارة فعُرضتْ عليه . ورفض سارتر جائزة نوبل التى يسيل لعاب الكثيرين من أجلها. ورفض خالد بن معاوية الخلافة بعد أن وضعتْ بين يديه. وجاءتْ الخلافة لعمر بن عبد العزيز فطلب الجنة على ظهرها.

إذا بنيتَ فى هذه الدنيا بيتاً فليكن بيتاً من نور، أركانه الإخلاص، والرضا، والزهد فى الدنيا. أأقول الزهد فى الدنيا ؟ نعم، أعرفُ رجلاً عاش فى الخارج، أرسلَ أموالاً، أقامَ بيتاً، ثم أُصيب بمرض عضال نكره أن نذكر اسمه. عاد إلى أهله، يُخفى عليهم سره، لكن لم يلبثوا أن اكتشفوا أن الرجل فى أيامه الأخيرة، كان كل حزن الأهل، أنهم لم يعيشوا معه، لم يستمتعوا به.قال لى ابنه: بنى لى بيتنا، وانصرف، وهو ـ وربي ـ أحب إلينا من البيت. قلت لنفسى كتفسير الأحلام، البيت هو الدنيا، وأبوه هو الإنسان الذى يتشبث بها، ثم لا يخرج منها بشيء، يترك عمارته، ولا يسكن فيها، يسكن تحتها.

من الغباء أن نتشبث بذهب ذاهب، وهذا ابن عمر، يحصل بالأمس على أربعة آلاف درهم، فلا يبيت إلا ويوزعها على الفقراء، ويشترى بالدين فى الصباح علفاً لراحلته، وهنا يقف أيوب بن وائل الذى عرف بالقصة يصيح فى الناس: يامعشر التجار، ما تصنعون بالدنيا وهذا ابن عمر تأتيه آلاف الدراهم فيوزعها ثم يصبح فيستدين علفاً لراحلته. ولا عجب، فابن عمر الذى عرضت عليه خلافة المسلمين بعد مقتل عثمان، فرفض رغم تهديد الثوار له بالقتل إذا لم يقبل. تأتيه الخلافة فيرفضها، ما أروع القدرة على الرفض، يرفض الخلافة التى يدوس غيره على

ألاف الرقاب ليصل إليها. عندما سئل لماذا يهرب من حظوظ الدنيا، لماذا وقد كثر المال وأقيمت القصور مازال متاع بيته لا يتجاوز مائة درهم، فقال: لقد اجتمعت وأصحابى على أمر، وإنى أخاف إن خالفتهم ألا ألحق بهم.

قالوا لى ألا تعمل حساباً للغد، قلت لقد نشأت يتيماً، ولم ينسنى الله، فكيف لمثلى أن يقلق على ابنه؟ فوالله لم أكن يتيماً، ليس اليتيم يتيم الأب، اليتيم يتيم الرب، من يضل عن ربه هو اليتيم. كنت فى حديث مع صديق، فقلت له: الأب الصالح أو الأم الصالحة هى من تصرفت مع ابن اليوم كأنه يتيم.

فى تجربة شديدة الخطورة، كنت فى مترو الأنفاق فى مصر، وكان معى صغيرى محمد، لم يتجاوز عمره ثمانية أعوام، انصرف عنى، شده شيء ما، نظر إليه، فلما عاد منه، لم تنجح عينه فى الوصول إليّ، لكنى لم أحول عينى عنه، وقفت أنتظر ماذا يفعل ؟ مازالت عيناه تبحث عنى، فى لحظة، وقبل أن يتم البحث، قفز الخوف هائلاً إلى وجهه، عيناه العاملة التى كانت منذ لحظة تبحث عنى، توقفت عن العمل، وأصبحت صفحة احتلها الخوف من المجهول، جريت إليه، وأنا أرجو أن أجنّبه تلك اللحظة ما حييت. ما أصعب هذا المجهول !

تعودتُ أن أستخلص من المواقف جوهرها، هذا الموقف نتعرض له، فيحتلنا العامل الوجدانى بدلاً من العمل المادي، لو استمر يبحث عنى، لوقعت عينه علىّ، لأنى كنت أمامه، ولابتسم وانتهت المشكلة فى أجزاء من الثانية، لكنه عندما شعر بالخوف، توقف عن العمل، فأصبح مُحتَلاً لا حول له ولا قوة، قوة الإنسان فى تحجيم العامل الوجدانى، من يخف يصبح ليس هو، يعجز عن الوصول بالخوف إلى ما يقدر عليه ويتمناه، فمن يتمنى النجاح فى الثانوية العامة، لو استمر فى العمل سيصل إلى هدفه، لكنه لو تملكه الخوف، يصبح عبداً له، ويسوقه الخوف بعيداً. عندما أطوع قلبى، فلا خوف أو قلق قبل اللحظات المصيرية، ولا هلع عند فقدان عزيز، ولا هستيريا عند النصر.

﴿٦﴾

إياك والحزن، فالحزن استعمار يطلب منك الدخول، ترحب به، وتفرش له الأرض ، لم يدخل بإرادته أنت الذى فتحت له الباب، لكنه إن دخل لن تستطيع أن تطرده. نحن نحتاج إلى قليل من الحزن، ليهذب قسوة قلوبنا، لكننا لا نحتاج إلى سيول من الحزن. إن الحزن الكثير هم، والهم كما قال على بن أبي طالب أشد جنود الله، فعندما سألهم على عن أشد جنود الله قالوا الحديد، فقال النار أشد منه لأنها تسيحه، قالوا إذن النار، قال الماء يطفيها، قالوا إذن الماء قال السحاب يحمله، قالوا السحاب، قال الجبل يعترضه، قالوا إذن الجبل، قال الإنسان يقطعه، قالوا إذن الإنسان قال الهم

يوقعه.. فهو الهم. ولا سبيل للتخلص من الهم سوى بثلاث وسائل:

الأولى: أن يقف صديق مخلص بجوار المهموم يمنعه أن ينفرد مع عدوه الذى لا يرحمه.

الثانية: الانهماك في العمل بحيث لا يكون عندك وقت للتفكير ، تعودت مع كل مصيبة أن أجلس إلى الكمبيوتر الليل بأكمله. لا أهرب إلى الفراش للنوم أبداً مع المصيبة. وكم أنجزت كثيراً من العمل مع كل مصيبة.

الثالثة: أن تضع بجوار مصيبتك مصيبة أكبر، سواء مصيبة لآخر حتى يصدق المثل: من شاف بلاوى الناس هانت عليه بلوته. وهذا مع فعله الله مع المسلمين في غزوة أحد عندما عالج غمهم المتمثل في إحساسهم بالتقصير في المعركة بغم آخر هو خبر وفاة النبي، فتغلب الغم الثاني على الغم الأول. فلما ظهر النبي تهللوا وانتهى الغم الثاني والأول وكل غم.

فحذار الحزن وعليك بتلك الأسلحة في مقاومته، اطلب الناس، اطلب العمل، ابحث عن مصائب الآخرين تكتشف أن لا مشكلة عندك. لقد كنت أقابل عم حسين في نادي القصة في منتصف الثمانينيات، فيقول لي وأنا شاب صغير أذهب لإلقاء قصة يوم الاثنين، وأذهب مبكراً لأني قادم من سفر، فأجلس إليه فيقول لي: يابنى أنا كلما ضاقت نفسى ذهبت إلى مشرحة زينهم. كنت وقتها أتعجب من هذا التصرف الغريب، فلما فطنت بعد ذلك إلى أن رؤية هموم الناس تقلص همومنا فهمت كيف كان هذا الرجل بفطرته ينشد ما يعنيه على همومه.

بالحزن يابني ستجد نفسك دون أن تشعر خارج نفسك، تصبح مثل أبينا الأول خارج الجنة، لقد استله إبليس من الجنة دون أن ينتبه، الحزن أيضا هو إبليسك القادم، فانتبه إليه، لا تسمح به بالاقتراب، قاومه، أهلاً بحزن لا يغير من طبيعتنا، أهلاً بحزن يكشف نقاء نفوسنا. ولا أهلا بحزن يفقدنا أنفسنا ويجعلنا غرباء عنا. الحزن كالملح، لا نستغنى عنه لأنه يكسر قسوة القلب، لكن لا يمكن أن يكون كل الطعام ملحاً..

كتبت قصة اسمها **عاد الحزن ثانية**، تتحدث أن الحزن يستكين حتى إذا تمكن لا يمكنك، تخرجه إلا بالدم، بل حتى هذا قد لا يتحقق، لذلك يجب ألا يدخل، الحزن كالشيطان، كالاستعمار، تناديه ثم لا يمكنك إخراجه إن دخل:

قصة قصيرة

عاد الحزن ثانية

وأنا كالمتوفى أبوه، والفرح قريب منه، لا الفرحة، لا البهجة، لا البسمة تستطيع أن تخترق جدار الحزن عنده، كالجو المغلف بالنكسة والهزيمة، لا مشاركة للآخرين في انتصارهم، رجل لا يعيش الجو العام للناس، يلفه وحده شعور خاص بالكآبة والحزن، هى الحقيقة قد عاد الحزن ثانية..

كنت أظن أنه ذهب إلى الأبد، وكنت أظننى لو عاد سأقاومه، لكن هاهو قد عاد، ولم يجد منى سوى الإقرار بعودته، عاد وأعاد معه الرغبة في الوحدة والعتمة، ومرة أخرى يغمر الضباب طريق الآمال والطموح. لا أصدق أن الخروج من دوامة الحزن الفترة الماضية كان حلما، لا أصدق أنى الآن ثانيةً رأسي تحت مستوى كتفيي، واللون الرمادي عاد ثانية في عينيى كل الألوان، وأن الحياة الملونة أصبحت أبيض وأسود لكنها الحقيقة: قد عاد الحزن ثانية.

هذا الصباح، جاءت السعادة مبتسمة كالمتعشم في شيء، تركتها تدخل، فكم انتظرتها !! بدأت تجرى تغييرات في الحجرة، لم أتدخل، إنى أوافق على السعادة بكل شروطها، بدلال وكسوف قالت العصمة في يدى.. وافقت طبعاً، فأنا أوافق على كل شىء إلا أن يعود الحزن ثانية...

لم تضيع السعادة وقتاً، بدأت تغير ملابسها، وفركت يدى فرحاً، اللحظة التى انتظرتها طويلا، لحظة الزفاف إلى أغلى عروس، إلى شهر العسل الدائم، في حياء قالت لى:

- اغمض عينيك، حتى أغير ملابسي..

وضعت يدى على عينيي، لكنى كنت أسترق النظرة من بين أصابعي، ثم سقطت يدى إلى جوارى عندما وجدت جسدا أسود، ليست هذه عروسي، ما هذا بجسد السعادة، هذا الجسد الأسود أعرفه جيداً، هو الحزن، خدعنى، ولبس ملابس السعادة، وعاد ثانيةً يتملكنى والعصمة في يده..

وقعت على كرسى، وبدأ السجان القاسي خطواته في التربع على مملكتى التى أفلتت منه بعض الوقت، أغلق كل النوافذ، وأسدل ستائر سوداء، وبدأ يلوننى بلونه، يختم اسمه على جسمى كما كانوا يختمون العبيد زمان، هى الحقيقة، قد أصبح الحزن سيدى..

يدق الباب، وكالسيد يشير لي أن أفتح، نهضت متثاقلا، فتحت الباب بسنم وهزيمة، كانت هى، السعادة، متألقة، تريد أن تدخل، تتوسل إلى أن أدخلها، بل وتوافق مقدما على كل شروطي، تقسم لى أنها ستكون خادمة لي، لا أستطيع أن أتزحزح من مدخل الباب، وكيف أسمح لها بالدخول، عدوها بالداخل قد استولى على الحصن، لقد تأخرت.. وما عدت أصلح لها، أغلقت الباب في وجهها، ووصلنى صوتها تقسم بكل غيظها من قسوة الإهانة أن تنتقم منى، أن لا أرث منها شيئاً، لا تصدق أن أناديها وألح في النداء وانتظرها بفروغ صبر، ثم تأتى فأصدها بهذه الطريقة، مضت جريحة، جرحتها بسن ضلع مكسور في صدري، وظل الحزن يضحك.. ثم بدأ يفك التفافه من حول جسدى، وقال لي مودعا:

- أنت الآن حر..

جريتُ إلى السعادة، وجدتها في يد آخر تنظر إلى شذراً..

﴿٧﴾

ليس كل ما نريده فى الحياة نحصل عليه، فلا تحزن على ما لم يأتك، فلا تعلم امتناعه كان افتداء ماذا ؟ لعلى لم أصل إلى ما أريد هذا الصباح، لكن أليس أيضاً نجا ابنى من حادثة هذا الصباح ؟ لا أقصد أنهم انتزعوه من أمام السيارة ؟ لكنى أقصد أنه مادام سليماً حتى الآن فقد نجا من حادثة، من الذى حماه ؟ ليس أنا طبعاً فحتى لو كان - وليس صحيحاً - وجودى معه يحميه، فأنا لا أصاحبه كل لحظة ، لم يحمه سوى ربه ، فهذا يعنى أن كل لحظة لا تحدث لنا فيها مصيبة هى نجاة من مصيبة، فيجب الشكر دوماً. قلتها لصديق غير فقير، شكا لى الحال فى عامه ذاك، قلت له، فلنحمد الله، فلا تدرى كم من مصائب حجبها الله فى مقابل هذا الضيق الطارئ، قال لى بتمعن: صدقت.

فالنعم يا بني نوعان: نعم معطاة ومصائب مرفوعة. فما أدراك لو لم تنل النعمة أن النعمة كانت مصيبة مرفوعة ؟

لماذا أرفض الحزن بكل تلك القوة ؟ لأن الحزن الذى بأيدينا يحقق لعدونا ما لا تحققه له يداه..

سأحكى لك حكاية شكسبيرية اسمها تاجر البندقية، تقول الحكاية إن شايلوك اليهودي المرابي، كان يضايقه بسانيو الطيب الذى يقرض الناس ويفك ضائقتهم، أصبح بسانيو هذا هو العدو الأول لشايلوك : لأنه يعطل عمله، يمنع لجوء الناس إليه. فإن وقع بسانيو الطيب الذى يحب الخير للناس في قبضة شايلوك لن يرحمه، لن يتركه إلا جثةً، وهذا ما حدث، اقترض بسانيو مبلغاً من المال ليفك أزمة صديقه وكتب شرطاً جزائياً أن يدفع رطلاً من اللحم إذا لم يسدد في الموعد، ولم يحفل بسانيو بسخف الشرط لأنه كان واثقاً من قدرته المالية وأنه لا ينقصه غني، كل ما هناك تأخر السيولة، لكن تجتمع المصائب عليه وتغرق السفن بتجارته، ويتخلى الناس عنه، ويأتى الموعد وقد أصبح فقيراً لا يمكنه أن يسدد المبلغ، وهنا يصرُّ اليهودي على الحصول على الشرط الجزائي، ويحدد مكان رطل اللحم، يقول أريدها من القلب. إنه لا يريد سوى موته، ويأتى الصديق الذى تورط بسانيو بسببه وقد أصبح غنياً بعد أن تزوج إحدى الأميرات ويبسط المال لتشايلوك الذى يرفض المبلغ مضاعفاً ولا يرضي إلا بقتل بسانيو، فالحزن هو تشايلوك، أو إسرائيل أو بمعنى أدق الشيطان فما تشايلوك أو إسرائيل إلا ماصدقات الشيطان، ذلكم الذى لا يريد من غريمه سوى الموت.

ودوماً أقول إني يجب ألا عوناً لمن يكرهني فأبسط الحزن كفناً لي، وهل ينتظر إلا هذا؟ فإذا أراد أحدٌ قتلك فلا تصده بالحزن ، بل قابله بالفرحة بالغناء، رد كيده في نحره. لي قصة* اسمها **الإنسان هو الوقت** قتلت فيها إسرائيل طالبة في مدرسة فلسطينية بهدف أن تزرع الحزن فيهن، فلو أصاب موتها زميلاتها بالحزن لكان هذا هو هدف العدو. لا أدري: أريد أن أكتب لك القصة كما هي:



الإنسان هو الوقت

يدخل أستاذ اللغة العربية الفصل في الحصة الثالثة، في إحدى مدارس الفتيات بالأرض المحتلة، في يوم يتيم، بعد هجوم غاشم بالأمس من جنديين إسرائيليين على المدرسة، أسفر عن مقتل فتاتين وإصابة عدد كبير منهن.. أكسيجين الهواء يختلط بالحزن، كل الأشياء الملونة أصبحت أبيض وأسود..

صامتاً، يشير لهن بعدم الوقوف، ويتجه إلى السبورة، يكتب عليها.. التاريخ، ثم في وسط السبورة يكتب تعبير وتحته مباشرة (الإنسان والوقت) يكتب بعض العناصر، ثم يتجه إلى التلميذات الصامتات الخاليات من الوقت ومن الحياة..

- لعلي بحاجة إلي معول لأكسر الصمت الذي يغلفكن. مهمة صعبة، لكن لا سبيل فمن غير معقول أن تمر حصتان دون أن تجيب واحدة منكن سؤال، حصتنا هذه تعبير أي كلام.. من تتحدث في العنصر الأول.. أيضاً لا أحد.. أذن يجب أن أختار أنا .. سماءُ

- معذرة يا أستاذ.. ليس في النفس حاجة للحديث..

- أنت أمينة الفصل وشاعرته، ويجب أن تتناسي حزنك، حتي نتمكن سوياً من طرد الحزن عن بقية الفصل..

- أمرك يا أستاذ.. رغم أني أحس أني قبر أضم رفات الشعر الميت " جوايا ".

- لا يا سماء لا، لا أريدك قبراً بل أريدك سماءً تقينا حرَّ الحزن، هيا العنصر الأول.. ما الوقت ؟

- الوقت هو الإنسان وقد سبق أن سمعت ذلك منك.. الإنسان مساحة زمنية.. يقضيها في أي مكان وبمجرد أن تنتهي ينتهي..

- صدقت يا بنيتي.. الإنسان حقاً مساحة زمنية، لذا عارٌ علي من يؤجل شيئاً إلى غدٍ لأنه يكون

كمن يؤجل حياته فالإنسان منا ليس إلا الآن.. اليوم هو بيتي.. من يترك بيته يبيت في العراء لا أعيش في بيتي. ويأتي آخر يقول لي لو سمحت هذا بيتي..

- كيف ذلك يا أستاذ.. ؟

- بالموت يا بنيتي.. أتدرين أن الموت هو وسيلة استمرار جنس الإنسان..

- وسيلة استمراره أو فنائه ؟؟

- استمراره.. تخيلي أن جميع البشر منذ عهد آدم إلي اليوم لم يمت منهم أحد هل كانت الأرض تسعهم؟ مستحيل.. لذا أنعم الله علينا بالموت.. الذي يخلي مكان جيل قديم ليحل محله جيل جديد..

- ولا يلبث الجيل الجديد أن يصبح جيلاً قديماً. عليه أن يرحل ليتيح الفرصة للجيل القادم..

- وهكذا.. يجب إلا يرهبنا الموت. لأنه ناموس الحياة. ولو لم يطبق علي سواي قبلي ما وجدت لقدمي مكاناً..لذا فقبل أن يدق جرس الرحيل يجب أن نعيش حصتنا.. أحسنت يا سماء.. تفضلي بالجلوس.. ندخل إلى العنصر الثاني. ما العلاقة بين الإنسان والوقت ؟.. فدوي.. الشاعرة الثانية..

تنهض فدوى.. صبية سمراء..

- لا حاجه له إذن. فقد تضمنه العنصر الأول. فالعلاقة واضحة بين الإنسان والوقت ما دام الإنسان هو الوقت. لكني يمكن أن أضيف شيئاً. فقد قرأت مسرحية الأستاذ توفيق الحكيم. " أهل الكهف" وهي تعالج مشكلة الزمن. فأهل الكهف عندما استيقظوا بعد ٣٠٠ سنة. وجدوا أنفسهم في زمن غيرزمنهم فلم يتمكنوا من الحياة. وعادوا إلى كهفهم يموتون..

- رائع جداً. وهذا يؤكد ما نحن فيه. إن الإنسان زمن محدد ولا يمكنه أن يترسب بعد زمنه..

تنهض رباب:

- لكني يا أستاذ. لي رأي آخر. فالإنسان قد يكون زمناً في كل مكان الا هنا. فأنا هنا مكان.. مكان فقط نموت إن اقتلعنا أقدامنا من هذه الأرض.. البشر كلهم مساحة زمنية. ونحن أرض فلسطينية..

يثور لغط في الفصل. يضطر الأستاذ أن يقطعه برفع صوته:

- رباب.. ابنتي.. فدوي.. سماء.. فصلي العزيز.انصتن جيداً لما سأقول.. من لحظات تحدثنا أن الموت ليس ضيفاً سخيفاً.. والآن أتحدث عن الحياة. الطرف الثاني.. كثيرون يعيشون في بلدانهم دون أن يفصل بينهم عدو بغارات ورصاص. كثيرون يولدون وفي الفم ملعقة من الذهب..كل شيء متوافر. كل المطلوب منهم المتعة ثم المتعة. يقتلهم الفراغ ويدفعون المال الوفير في القمار. لا يحفلون بالخسارة. فقد ساهمت في قتل الوقت.. ولأن الانسان هو الوقت فقط فهذا انتحار.. هذه الحياة الأخرى الناعمة التي لا نعيشها هنا.. انتحار.. واستعجال للموت.. بينما أعظم لحظة في حياة الإنسان هي لحظة المواجهة اسألن أهل بورسعيد.. عن أجمل لحظات تاريخهم.. سيقولون: هي لحظة المواجهة في العدوان الثلاثي.. ومن حظكن العظيم أن كل لحظة في حياتكن لحظة مواجهة. هنا نعيش أكثر من عمر. فلماذا الاعتقاد بظلم القدر؟ أتردنَ الحياة الناعمة. قراءة مجلات الأزياء والطهي ؟ قد ولدت كل منكن أماً.. وهذا شيء يدعو للفخر.. أليس كذلك يا سلمى ؟؟

ـ نشكرك يا أستاذ فقد حببت لنا حياةً كنا لا نحتملها، حتى أني الآن لا أرضى إلا بها.. حقيقةً.. أحسدُ نفسي لأني أعيشُ هنا.. لأن كل لحظة من حياتي مقاومة..

ـ أحسنت يا سلمي، أحسنتن جميعاً، والآن دور التعبير التحريري، لكنه لن يكون مكتوباً هذه المرة، أريده تعبيراً حياً.. نقوم فيه بإزالة الحزن عن وجه المدرسة.. سوف يدق الجرس الآن للفسحة، أريد أن تخرجن للفناء لتكون الفسحة حصة حماس، لا حزنَ ؛ فالحزن حفرةٌ في الصدر تمتص كل طاقة الإنسان.. أريدها مباراةً في الفرحة بنعمة الله علينا بحياة المواجهة، واعلمن أن عين العدو تنظر إلينا سعيدة لانطفاء صوتنا وحركتنا، فلنشعلها صوتاً وحركة، حتى يفغر عينه التي تراقبنا غير مصدق أنه رغم ما فعله بالأمس نضحك..نعيش.. لا ننشغل بالحزن هيا نعيش زمننا كما نريد، فالحزن يحول الزمن إلي مكان، وإن تحول الإنسان إلي مكان فهذا هو الموت..

يدق جرس الفسحة، وتخرج طالبات فصل(ثالثة ـ أول) في مظاهرة حب، وحياة..



(الكلمة السابعة عشرة)

لك في كل قلب حجرة

الكلمة السابعةعشرة:

فليكن لك في كل قلب حجرة..
وليكن قلبك حجرة الجلوس

﴿١﴾

ابنتى:

احرصى أن يكون لك حجرة فى قلب كل من يعرفك، واحرصى أن تكونى أنت حجرة الجلوس لكل أصدقائك، يفتخرون بك، ويتباهون. صغيرتى حنانُ كوني الأولى، فهذا حقك، ولا يمنع الإنسان عن حقه سوى ظنه بأنه لا يستطيع،وأن هذا الأمل بعيد، أو ربما مستحيل، إننى أثق أن المستحيل ممكن للمصر عليه، فالله ﷻ يكسر هذا المستحيل ويجعله ممكناً مكافأة للمصر على إصراره، فليس علينا سوى الإصرار.

كونى الأولى، فلا يهزمنا سوى أن يحزن الجوهر النقي، ويجرفه حزنه بعيداً، ويترك الحياة يتربع عليها نفوس غير جميلة، تصبح كلمتهم مسموعة، ومذهبهم هو الصواب، إن إسرائيل تسمى المقاومة التى تقاوم احتلالها سرطاناً وتقول: يجب أن تقف معنا جميع القوى لنجتث هذا السرطان. هكذا أصبحت الحقائق مقلوبة، عندما يسود الباطل لابد من صوت جميل وسط النشاز، لقد كان إبراهيم ﷺ صوت واحد ضد كفر منتشر، وقد غلب الصوت الواحد الكفر كله، فلا ينتهى صراع الشمعة الواحدة مع الظلام الكثير إلا بفرض الشمعة لضوءها القليل على الظلام. وانظرى إلى أين وصل نور محمد ﷺ الذى بدأ لا يبين وسط ظلمة قريش الحالكة ، لم تمض سوى ثمان سنوات حتى أصبح بصيص الضوء القليل يعود إلى قريش نوراً كاسحاً يطرد الظلام عن مكة إلى الأبد.

صغيرتى حنان:

لا أخشى على الأطفال سوى أن يفقدوا طفولتهم، وأنت فى نظرى طفلة كبيرة، أتمنى أن تظلى هكذا، لا تهتمي أن يكبر الآخرون، ابقى طفلة، فهذا أروع ما فيك، لا تكونى كالشرق الذى قلّد الغرب، فضاع، لم يعد شرقاً ولم يلحق بالغرب، لن تستطيعى أن تجارى أخريات تجيد المكر أو المصلحة، فابقى طيبة، فلو تخليت عن طيبتك، لن تتعلمى المكر ولن تحتفظي بالبراءة، وستنتصر عليك الأخرى، ولن تستطيعى أن تقولى: انتصرَتْ لأسلوبها الوضيع.

لأنك حاولتِ مجاراتها فى هذا الأسلوب. أتدرين أن المليونير الذى أصبح مليونيراً لأنه خان قضية ما، مستعد أن يدفع نصف مايملك فى مقابل أن يتنازل زميل الطفولة مثله ؟ لأن زميل الطفولة الذى لا يجد لقمة واحدة يطعمها هو لقمة فى زوره، يقول له دون أن يتكلم أنا أحسن منك. أتدرين لا أتمنى أن أكون ملكاً ظالماً، لأنى لا أطيق نهايته.

لا تتغيرى لتواكبى رحلة الحياة الضروس، أعرف إنسانة كان كل مافيها الطيبة، أو بمعنى آخر القلب والحب لكل الناس، لكن لأنها لاقت من إنسانة أخرى قريبة جداً منها بعض الأشياء غير السوية، تغيّرتْ نفسيتها وقررتْ الرد، أتدرين لم تفلح، لأنها لا تجيد، وفى رأيى أنها خسرت كل شىء، لأنها خسرت فى المقام الأول نفسها.



الرضا يا بنية.. ستقولين كيف تحثنى على الطموح، ثم تأمرني بالرضا ؟ لكن لا تناقض، فالطموح أثناء المباراة، كوني الأولى، لكن إذا لم تكن النتيجة لصالحك فارضي بما قسم الله لك. فالطموح له وقته والرضا له وقته الآخر، ومادام كلاهما في وقتين مختلفين فلا تناقض .

كان عمر بن عبد العزيز نموذجاً للطموح، يقول: ماطلبت شيئاً وتحقق لى إلا وطلبت أعلى منه، فلما انتهى إلى الخلافة، لم يجد شيئاً أعلى منها فتطلع إلى الجنة،وللجنة مهرٌ هو زهد الدنيا، فزهد الدنيا عندما تربع على ثرواتها، وهو الذى كان يعيش فى قصر أعلى من قصر الخليفة، ويلبس الكسوة الواحدة تقدر بثلاثين ألف، ويصنع له عطر خاص يعرفه به من يمشى في شارع آخر، ترك كل هذا وعاد إلى بيت من الطين. لأنه أراد الجنة.

والطموح الحقيقى أن تطلبي أقصى شيء، ثم ترضى بأى شيء تحصلين عليه، اطلبي القمة أثناء العمل، وارضي بما قسم الله لك.

سأحكى لك حكاية أميرة وقعت أسيرة وزوجوها لعبد، بم تنصحيها ؟ ماذا قلت ؟ تنتحر ؟ لا، اسمعى د. طه حسين يحكي عن حمامة أخت أبرهة الأشرم الذى غزا مكة يطلب هدم الكعبة، ثم سلط الله عليه طيراً أبابيل، رمته وجيشه بحجارة من سجيل، ومات إبرهة، وتمزق جيشه شر ممزق، وانقضت قبائل العرب على بقية الجيش، فكان أعز ما وقعت عليه أيديهم أخت أبرهة الأميرة حمامة، وإمعاناً فى إذلالها أعطوها لعبد حبشى يدعى رباح، والمهمة المكلف بها هو إذلالها، فماذا فعل رباح ؟ زعم لهم ما يشتهون، لكنه كان لا يتركها تفعل شيئاً، وعاملها كأميرة، وظل يخدمها كعبد مخلص، ووجدوها فكرة رائعة عندما عرض عليهم أن

إذلالها يكتمل لو زوجوه وهو العبد الحبشى الذى لا يساوى شيئاً بها، وتزوجها رباح ليواصل الحفاظ عليها حتى أحبته، واحترمته واستساغت نفسها أن تكون زوجة له، وأنجبت له ابنهما بلال الذى أصبح فيما بعد مؤذن الرسول ﷺ .

ابنتي إذا لم تنالي ما تحبين، حبي ما تملكين، فالقلب طفل صغير بين يديك يمكن أن تربيه، لكن الآمال ليست بأيدينا . لو رماك القدر فى جزيرة ليس فيها إلا أنت، عيشي فيها كأنك ستعيشين فيها أبداً وتطلعي لأمل أن تهبط سفينة تأخذك من هذه الجزيرة، أتدرين لو عشتِ طويلاً فيها، ربما لو جاءت سفينة قد لا تريدين أن ترحلي معها. شاهدتُ فيلماً أجنبياً عَن رجل عاش أكثر من أربعين عاماً فى السجن، فلما أخرجوه شنق نفسه لأنه عاش كل حياته بين جدران السجن، لم يتعود على الحياة الجديدة، ولم يتكيف عليها، فتركها ورحل.

الإنسان يمكنه أن يتكيّف على الحياة التى يجبر عليها، لا يعكر علينا الحياة سوى نافذة تقول لنا: يمكن أن نكون أفضل لو حدث كذا. ليس المطلوب أن آخذ أفضل شيء، بل أن أجعل ما في يدى هو الأفضل، ثمة فتاة تزوجت، كان يمكنها أن تعيش سعيدة مع زوجها الفقير، لم يكدر حياتها سوى نافذة تخبرها بأنها كان يمكنها أن تتزوج غيره فتكون حياتها أكثر راحة . فما نالت الحياة المأمولة ولا نعمت بحياتها . وثمة عامل يأخذ أجراً كافياً ربما أحسن من أجور آخرين، . لكن ما يعكر عليه حياته تلك النافذة التى تقول له، غيرك الذى يعمل نفس المهنة، يأخذ أضعاف أضعاف أجرك فى مكان آخر. أخشى ما أخشاه أن نبحث عما فى يدنا. ما أكثر أن تكون السعادة بين أيدينا ونبحث عنها.

هكذا كان أبونا الأول أعطى جنة عرضها السموات والأرض، يقولون إن اتساع الكون قد يصل إلى ١٣٠ مليون مليار كم وهو في اتساع فلو لم نحسب الاتساع واعتبرنا تجاوزاً أن ذلك هو عرض الجنة فمعنى ذلك أنه يحتاج إلى مليارات السنوات لكي يستمتع بكل ما في الجنة من نعيم. ومع ذلك لم يمكث أبونا آدم في الجنة سوى نصف ساعة بتوقيت الآخرة (٤٣ سنة بحساباتنا) لماذا ؟ لأن شغله الشاغل لم يكن الاستمتاع بما أعطي لكنه كان مشدوداً إلى شجرة واحدة محرمة، ما أجدرنا أن نتعلم الدرس، أن ننظر إلى ما معنا وأن نكتفى به، وبعد أن نسعد به، فلنتطلع إلى ما حرمنا منه. إن الانشغال بما في أيدى الآخرين مما لم نعطه يحرمنا ما معنا.

أهمس لك بسر، لو وضعت في أى عمل سأكون فيه نفس مستواى في عملي، ليس لقدرات فريدة، فأنا مثل أى إنسان لكنى لا أحكم على العمل بالفشل إلا إذا فشل، أبدأ العمل الذى

يبدو أنه لا يمكن أن يتم. ولا شأن لي بإتمامه. الغريب أن ما من عمل بدأته والوقت لا يسعفه إلا انتهى قبل سيف الوقت. أصبحت أفهم أن الفاشل هو من يحكم على نفسه بالفشل قبل العمل. بلغة الكرة: لو مررت لى كرة سريعة يبدو أنى لا ألحقها. لغة الآخرين تقول: لا داعى لأن أجهد نفسى مادامت لن تُلحق. لغتي أنا أن أحاول أن ألحقها ولا أحكم على أنها لن تلحق إلا إذا لم ألحقها. والمحاولة نصف النجاح.

وأرى كثيرين لا يقلون قدرات عني يفشلون في أعمال يقدرون عليها. لا لشيء إلا لأنهم ينصرفون من البداية لظنهم أنهم لن يستطيعوا إتمام العمل. ولهذا كنت أردد دائماً: "**لايمنع الإنسان من النجاح شيءُ لايملكه. ولكنْ ظنٌّ بعدم النجاح لعدم امتلاك هذا الشيء**".

فابدئي العمل ولا تجعلي نفسك حكماً يحكم عليه قبل البدء. فنحن مأمورون بالعمل فحسب. يقول ﷺ : **إذا قامت القيامة وفي يد أحدكم فسيلة. فإن استطاع أن يغرسها فليفعل.** أتدرين أن القيامة ستقوم في أسرع من لمح البصر. قبل أن يرتد الطرف ستقوم القيامة.أىأنه لو أراد أن يضعها في الأرض لن يستطيع. ولو وضعها فلمن ؟ لا يوجد من سيجنى ثمارها ؟ والنخلة تحتاج عشرات السنوات لتثمر !! لكننا مأمورون بالعمل لا بالنتيجة. فالنتيجة مكافأة من الله.

أتدرين. بذلك تزيد القدرات والمهارات. لأننى عندما آمنت أن لا شأن لى بالوقت. وأني علي أن أبدأ فحسب. لأني ليس من حقي الحكم بالفشل مقدماً فيجب أن يحدث الفشل حتى أصدق بحدوثه. لهذا كنت أبدأ في شرح نص أو درس نحو . والطلاب يتعجبون لأن الوقت لن يكفى. وقبل أن ينتهى الوقت كنت أفرغ من انتهاء الدرس وقد فهموه. أحس أن الله كافأني على إيماني بأن المستقبل ليس من حقي. فالمستقبل هو محاولة اختراق لغيب اختص الله نفسه به . فهو سوء أدب مع الله. لذلك تأدبت بأدب ربي. وتركت له الغيب. وبدأت في ملعبي: اللحظة الحاضرة أعمل فيها ولا شأن لي هل سيكفي الوقت أم لا. فأعطاني في المقابل مهارة أن أسبق الوقت.وأن أقدر أن أنهى عملى في وقت قليل. اكتسبت بالممارسة سمة الإنجاز السريع. ومهارة اختراع طرق التوصيل السريعة. وكلما ضاق الوقت وجدتنى أبتكر طريقة أسرع في تقديم القاعدة حتى انتهيت في وقت أن قدمت قواعد النحو في عدة صفحات في إنجاز غير مسبوق ولله الحمد والمنة. والله إن هذا نتاج ممارسة كانت تؤمن أن عليها العمل وليس من حقها مصادرة القادم والحكم عليه.

﴿٣﴾

أكثر ما يضايقنى، ليس الهزيمة من عدو أقوى منى، بل أن نخدع أنفسنا، ونطمع أن يساعدنا عدونا. أتدرين أنى عندما أنظر إلى كل ما كتبته أجد أننى كنت أقاتل من أجل أمر واحد هو كسر تعلقنا بأمريكا، فمن البداية كنت أرى أن لا عدو لنا إلاها. ظللت أقول كأنى اكتشف الذرة إنها عدو. حقاً فى وقت ما كان إقناع الناس أن أمريكا عدو تبدو كأنك مخبول، عندما كنت أقول إننا عدوها، كان يُنظر لى نظرة من لا يستحق الرد، ومَن نحن حتى تعادينا ؟ وتمر الأيام وتتضح الصورة وتعلنها هى بوضوح أننا عدوها الأوحد، وتجنّد العالم ضدنا. الغريب أنى كنت ألمس داخلى فرحة خفية عندما تظهر أمريكا بموقف فيه نذالة ضدنا، كنت أقول هذا سيجعلنا نفيق، فى وضوح تتخذ قراراً بالفيتو ضد أى مصلحة لنا، هى الان التى تقول لنا أنا عدو، لكن كما يقولون: ليس الصياد هو الذى يخفى نفسه عن النعامة، بل النعامة التى لا تريد أن تصدق أن الصياد قادم. فتدفن رأسها فى الرمال، تضحك على نفسها.

لم يعد الأمر أن ننبّه الناس إلى أن من يطمئنون إليه هو عدوهم، لا، لم يعد الأمر أن نقول للناس أن من جعلوه إماماً لمسجدهم هو إبليس، وأن العم سام هو عزوز العصر الحديث، لم يعد هذا بالأمر الخطير والسر الكبير الذى اكتشفته وحدى وأنا صغير، وقد فتحت عينى على عصر السادات يمد يده إليهم ويقول ٩٩ ٪من أوراق اللعبة فى أيدى أمريكا، وكنت أقول: صاحب عدوى عدوى، كيف نطلب من زعيم العصابة أن يؤدب لنا أحد رجاله، كنت أحس أنه أمر غير مفهوم، وأنى أرى ما لا يرون، لهذا أصررت أن أسمى إحدى مجموعاتى: **غداً.. بل أنا**، وسُئلت عن سر هذا العنوان الغريب، فقلت، القصة تحذيرية، خلاصتها، إن الخطر قادم فى الغد، وما سيحدث فى الغد أقوله أنا الآن، فما يخرج عن لسانى الآن هو ما سيحدث فى الغد، ولسانى يقول: احذروا، العدو وراء الشجر. يومها سخروا من بطل القصة، وقالوا اذهب ياذا البصر الحاد. والقصة تستلهم زرقاء اليمامة التى أخبرت أهلها عن قدوم العدو فسخروا منها، وجاء الغد يحمل الهلاك لقومها، لأنهم لم يعيروا لكلامها أى اهتمام.



غداً.. بل أنا

ويرنُ بين جدران آذاننا صوتُه العميق:

- غداً، بل أنا ! احذروا الشجرَ، لاتزرعوا حول المدينة غابةَ

تذهب ، تعود ، نموت

تحزنون ، تفرحون ، تموتون !!

- لا تزرعوا الشجر فى القلوب، القلوب تجلس كثيراً في الشمس، تصفر العيدان، تتحجر، يضيع محصول العام، وتتشقق الأرض، الموت قادم.

ونسخر منه، هل لأنه ذو بصر يسبق بصرنا بعدة أيام يختلق شيئاً غير موجود ؟ قد كدنا نراه بالأمس على صواب، عندما غاب الشجر، والحب مُودَعٌ في جذوعه، عندما هامت الطيور لاتجد وطناً، لكن غياب الشجر لم يدمْ، عاد في الخريف بالشتاء.

يرتفع صوته مرة أخرى:

- العدو قادم . الطيور تقود الإنسان إلى الوطن، وفى هجرتها الإنذار بالرحيل، نحن نتبعها فى الحل والترحال.

- لا تخلق وظيفة لموهبتك، قد عادت الأشجار والحب والنماء، عادت الغابة أخيراً، فى كل جذع شجرة، اسم فتى وفتاة، وقلب وسهم..

- إنه العدو.. الموت..!!

- إنك تحقد على الحب، لاتريد الغابة لأنها وطن المحبين، لأنك فشلت أن تُبهر فتاة، لأنك طويل، عيناك الحادة مخيفة..

- إنه العدو، غداً، أنا ! العدو قادم بالغد، انظروا إلى صوتى، تسمعون الغد، ترون العدو، أنا الآن غداً، أو أن غداً هو ما أخبركم به الآن، إما نردّ الطيور لأعشاشها أو سنلحق بها فى الغد..

- جننت ياصاحب البصر الحاد !!

- إنه العدو.. غداً.. بل أنا.. أرى الأشجار تتحرك..

- مجنون !! مجنون !!

المأساة أن الأمر لا يقتصر على هذا فنحن أسوأ حالاً من قوم اليمامة، فهم لم يصدقوها، ولو أخذوا كلامها محمل الجد لنجوا، أما نحن، فقد تطور الأمر، عدونا يقول: أنا وراء الشجر، يعلنها بمكبرات الصوت، أنا وراء الشجر، لكننا نقول له أنت تمزح، لا يمكن أن تكون وراء الشجر. يقول لنا سأضربكم، انظروا، هذا أخوكم أضربه ضرباً موجعاً، نقول له: أنت تمزح، تريد منا أن نصدق أمزوحتك، لا، لست بعدونا. ماذا يفعل عدونا أكثر من

ذلك لنقتنع أنه عدو ؟؟ اكتشفتُ أن عدونا ليس هو الخطر علينا، الخطر هو نحن. وهل يجد عدونا أحسن منا عوناً له علينا ؟! إنه ينهى المعركة ونحن مازلنا لم نبدأ لأننا لا نصدق أنه عدو. ليس مهماً أن ننهزم. المهم ألا يكون انهزامنا بأيدينا.



شاهد من أهلها

ويتناقلون الخبر قال شاهد من أهلها:

- " إن زليخا سبب كل اضطراب وارتباك يحدث فى قصر وسط المدينة "

يثير الخبر اهتمامهم. فالشاهد أحد المقربين لفرعون. تصريحه إشارة إلى تغير قلب الفرعون عليها. آه لو يرفع الفرعون يده عنها !! قد بلغت قمة الجبروت. حتى زوجها المسكين عندما اكتشف خطيئتها لم يستطع أن يفعل معها شيئاً. فجمالها الخارق يحفظ له منصبه لدى فرعون. واكتفى وقتها بسجن يوسف !!

تتلقى كل النساء تصريح الشاهد بالفرحة. قد اقتربت الحقيقة وخروج البرىء يوسف. وبسرعة أشد من فرحتهم تهرع زليخا إلى قصر الفرعون لتقف على الحقيقة. فما معنى هذا التصريح ؟! وهل أرسلها الفرعون إلى قصر الوسط إلا لتوقد المشاكل ؟؟؟! أليس هذا هو الدور الذى رسمه الفرعون لها ؟؟ أن تحول مجرى الناس من التبرم بفرعون إلى لجوء إليه ليخلصهم منها..

غاضبةً تطلب من ذات الشاهد صاحب التصريح مقابلة فرعون. يقودها إلى غرفة انتظار. ويغلق الباب بظهره. ويضع أصبعه على فمه يمنع ثورتها. وبهدوء يقول لها:

- هذا لايعنى غضب الفرعون عليك. بل هى شفرة تمنى الفرعون أن تفهميها. ترجمتها:

" أحسنت. أنت تؤدين مهمتك بنجاح. الفرعون يشكرك !!"

تخرج من القصر دون مقابلة الفرعون. يسبقها إلى الشارع خبر رفض الفرعون مقابلتها. تنبت على جانبي طريقها عيون تتمايل سعادة وشماتة. قد ثبت غضب الفرعون عليها. وهاهو قد رفض مقابلتها وعادت خائبة وهى التى كانت قطته المدللة. دنت إذن لحظة التخلص منها. بقى عليهم التقرب إلى فرعون حتى يكتمل غضبه. ويتحقق النصر عليها. ويخرج يوسف ..

كان أكثر ما يضايقنى أن يعلق الفلسطينيون آمالهم على أمريكا التى ترفع الفيتو

فى وجه أى قرار لصالحهم، أن ينتظروا الأمل من بلد تجعل منظمات المقاومة لإسرائيل حركات إرهابية، لأن إسرائيل المقدسة عند أمريكا يجب ألا تقاوم، حتى لو اتبعت مع الفلسطينين أسلوب النازية. كنت فى ذروة حزنى واستيائي من موقف الأمريكان. أقول لعله خير، حتى يفهم العرب حقيقة حليفهم الاستراتيجي، وينتهى الأمر نهاية غريبة ومضحكة، إذ يمر الأمر وكأن ما حدث شيئ طبيعى. فهل حقاً لم يستغربوا ما حدث ؟ رغم أنه ضد مايؤمنون به ؟ ولسنا بحاجة إلى تفكير طويل. لا يكون الأمر غير المتوقع منطقياً إلا إذا كان متوقعاً.وإذن فهم يتوقعون هذا الموقف منها مثلما نتوقعه نحن، وإذن فالحقيقة كالنهار ولا يحتاج النهار إلى بيان فالنهار لا يخفى على أحد كما يقول المثل، ويقول المتنبى:

وليس يصح فى الأذهان شيء إذا احتاج النهار إلى دليل

وهذا يعنى أنهم يصادقونها وهم يعرفون أنها عدوهم. والسؤال لماذا ؟ ولعلى أعرف الإجابة ولا أريد قولها، ولعل الإجابة ليست بتلك البشاعة، وما هو إلا الخوف. لكن هل ينجيك من الوحش أن تقنع نفسك أنه ليس وحشاً ؟ وأن تذهب لتتمسح به لتقنع نفسك بكذبتك ؟ أليس الاقتراب من الوحش الذى تخافه معناه الهلاك ؟ إن الكذب على أنفسنا لا ينجينا من الخوف . بل لعله يردينا فيما نخاف منه. إن الحياة تخلفها حياة أخرى، هناك من يكمل مشوار الذى مات.

ثمة زميلة لك، تعرضت لموقف من صديقة لها أبكاها، ولا أدرى من أين تأتى البنات بتلك الدموع الغزيرة. قلت لها والدموع لا تتوقف محاولاً خلق الابتسامة فى وجهها الدامع: لا أريد منك إلا أن تسمعينى، لهذا لن أنتظر حتى تنتهى من دموعك. فأذناك تسمعني: يجب ألا نساعد من يمد يده ليخنقنا. لا تتغيرى، إن كثرة تعرض النفس النقية لدخان الآخرين قد يجعلها قاتمة، ثم لا تلبث أن تصبح سوداء، لا تعرف سوى الدخان تطلقه على الآخرين. إن من مصلحة الإنسان ألا يتعرض لما يؤلمه. فإذا تألم، فأرض الله واسعة. لا يجب أن يقف ككيس رمل الملاكم يتعرض للضربات. انجى بنفسك من الشخصية التى تؤلمك، وحذار أن تنال من نفسك. إن الضربة المميتة ليست التى تؤلم، بل التى تسلبنى نفسى.

فوجئت فى حوار بمن يشتم العرب، تعجبت، قلت إنك ياعربي ترسّخ تشوهات فى جسم العربي، يثبت بمساعدتك ثم يُطلق عليك. لقد أطلقت أنظمة عربية حاكمة على الجماعات الإسلامية كلمة الإرهابية، تلقف الغرب الكلمة وأطلقها على الإسلام عموماً، وأطلقتها على الدول التى أطلقت الكلمة. وأصبح كلمة الإرهاب التى قالها بعضٌ منا على

بعض آخر يطلقها عدونا علينا معاً. إن أجزاء الجسم الواحد ترتكب فى حق نفسها خطئاً لا يغتفر عندما تتطاعن. فالطعنة المميتة تميت كل الجسم. ولعل القولة الشعبية: إن من يبصق على سمائه يتلقى البصقة على وجهه.

﴿ ٤ ﴾

حنان، تعالى نقيس حجمك فى القلوب. ألا تدرين بماذا نقيس ؟ نقيس بقلبك. إذا أحببت نفسك فحبى الناس. أن حجمك فى قلوب الآخرين بحجم الخير فى قلبك. ابنتى: القلب فى نظرى حجرة مليئة بالماء. كل موقف يضايق الآخرين هو انحسار منسوب المياه. إذا أردت أن يظل هذا القلب ملكك، فيجب أن يظل الماء فيه. لن يغيض الماء إلا بمواقف سلبية مؤلمة. ويزيد الماء بمواقف إيجابية نأتى فيهاعلى نفوسنا.

إن القيم ليست حقى وحقك. إن القيم أن نأتى على أنفسنا. فالشجاعة هى اقتحام الموت. الكرم أن تعطى أكثر مما يجب أن تعطيه.

فالخط المستقيم يصنع ثلاثا من المستويات. هو، وما تحته، وما فوقه. وفي نظري أن الخط المستقيم هو الحق أو العدل. لا يكون لك أو عليك. فإذا حاولت أن تأخذ أكثر مما يستوجبه هذا الخط فهو الظلم. وإذا حاولت أن تتنازل عما يوجبه لك هذا الخط فهو الفضل. الحق لا تأخذ إلا حقك. لا أكثر ولا أقل. الظلم أن تأخذ أكثر من حقك. الفضل أن تتنازل عن بعضك حقك أو كل حقك.

عندما كنت أحكى قصة تاجر البندقية لتلاميذى: كنت عندما أصل إلى نقطة أن صديق بسانيو يحتاج مالاً، أقول لهم بسانيو غني، فمنطقي لو احتاج صديقه الفقير مالاً أن يلجأ إليه. فماذا يفعل بسانيو إذا كان في هذا الوقت برغم غناه لا يملك سيولة مالية ؟ أيعتذر له وهو صادق في ذلك ؟ هنا كنت أفرّق لهم بين ثلاثة أشياء: الظلم والحق والفضل. أقول لهم: إن الحق هو الخط الفاصل لا أعطى ولا آخذ. ولو قال له صادقاً لا أملك فهذا هو الحق وعلى الطرف الآخر ألا يغضب. لكنه لو ذهب واستلف له من آخر فهذا هو الفضل لأن الفضل أعلى مرتبة من الحق. أما الظلم فهو أخذ ما ليس لي، أو كما يقولون وضع الشيء في غير مكانه .أما تعريفي أنا للظلم فهو أن تأكلى أكثر مما تحتمل معدتك. المهم أن الظلم أن آخذ ما ليس لي، والحق لا لي ولا علي، والفضل أن أترك من حقي. وعلى هذا قيسي سائر الأمور. حتى اللبس: فالحجاب هو الحق. التعري ظلم. النقاب فضل. وأنت على صواب لو فعلت أى الاثنين: الحق والفضل. والفضل أعلى منزلة.

في موقعة اليمامة قتل زيد أخو عمر بن الخطاب، وأسلم قاتله. فلما قابله عمر، قال له: أنا لا أحبك. فقال الرجل: أو يمنعنى هذا حقي ؟ قال عمر: لا. قال الرجل : لا يبكى على ضياع الحب إلا النساء. فهكذا.. حرص الرجل على حقه، ولم يهتم بما فوقه من فضل، وهو حب عمر له.

لكننا يمكن أن نجد الخطوط الثلاثة عند أبي بكر الذى قطع النفقة عن مسطح بن أثاثة الذى تقول كذباً على ابنته. ما فعله مسطح ظلم، لأنه وضع الشيء في غير محله، وقال ما لاحق له في قوله، وما فعله أبو بكر بقطع الإنفاق حق، أما الله عز وجل فقد طالب الصديق بمعاودة الإنفاق واعتبره من ذوي الفضل: لأن الحق ألا ننفق على من يسيئون لنا، لكن الفضل أن أحسن إلى عدوي. فقال الله عزوجل في سورة النور نذكراً إياه بأنه من ذوى الفضل ومطالبا إياه من معاودة الإنفاق على هذا المسيء وأن يصفح:

﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ (النور: ٢٢).

هكذا إذن ترين أن هناك خطاً هو الحق: إن نزلنا تحته فهو الظلم، وإن وقفنا عليه فهو الحق والعدل والصواب، وإن ارتقينا فوقه فهو الفضل. وكل ما أطلبه منك أن تتمسكي بالخط ولو استطعتِ أن ترتقى فوقه فبها ونعمت.



ابنتى.. إن الجرح يظل جرحاً مادمنا نعتقد ذلك. مادمنا ننظر إلى قلوبنا. لو نظرنا إلى الأمام لاكتشفنا أن الجرح السابق أصبح وراءنا. إننا لن نحصل على الأفضل. لكن الصواب إن لم نستطع أن نحصل على الأفضل أن نجعل ما حصلنا عليه فى أفضل حالاته إذا لم نحصل على الكنز المنشود. فعلينا أن نستخرج كل مكنونات أصغر كنز وقع فى أيدينا. إن لاعباً محدود الموهبة يبذل أقصى ما يستطيع لهو أفضل من لاعب عظيم الموهبة لايبذل جهداً.

ابنتى، من عشرين عاماً قالت لى فتاة فى مثل سنك الآن، تقدم لى قريب لي، يطلب يدي، لكنى لا أحبه، ولا أتخيل شريك حياتى هكذا، قلت لها: اقبليه. وافقى عليه. اندهشت من نصيحتى، ورفضت أن تتزوج قريبها لأنها لا تحبه.

ومضت تعيش حياتها كما تشاء، ثم سمعت بعد ذلك أنها تعيش حياة بوهيمية مع رجل بدون زواج . ألا ترين معى أن من ينظر إلى قصتها يرى أن الصواب لو اختارت قريبها هذا، ولعل كل

فتاة أخرى سترى أن الصواب هو أن تختارى قريبها. لكنكن ترين ذلك الآن بسبب الاطلاع على المصير المظلم الذى صارت إليه. لكن لو حجبنا المصير وسألنا لربما كانت أغلبية الإجابات إن تلك الفتاة على حق، لأنها رفضت من لا تحبه.

أريد أن أقول، إن ما نراه صواباً، قد يكون هو قمة الخطأ لو علمنا النهاية التى انتهى إليها. وأن لا خطأ فى قبول إنسان لا نحبه، مادمنا لا نكرهه. أى أن الزواج الحيادى، بلا مشاعر مسبقة، لا حب ولا كره، صالح جداً للنجاح. لا فشل إلا إذا آمنت أننى سأفشل.

تتضاءل الأشياء إذا ركزنا البصر على لبها، وجوهرها. فى مرة فرزت أوراقاً كثيرة عندي، ووضعت كل الأوراق التى أريدها في كرتونة، وجاء أحد العاملين معي فظن أنها غير مطلوبة فأحرقها دون الرجوع إلي.

تملكنى الغيظ عندما عرفت، لكن في هذا التوقيت كان التليفزيون يذيع منظراً، بيوت هدمها اليهود، ومات بعض أبناء البيت، وجدت بقية الأهل يمسكون بألبوم للصور والذكريات وينحونها جانباً، ما قيمة الذكريات والصور إذا مات الابن. هنا وجدت أن مصيبتى لا شيء.. فكما ترين قد نحزن لو فقدنا إلبوم صور.. لكننا حتماً ما كنا سنحزن على الإلبوم، لو ضاع الابن معه، لأن شيئاً أكبر من الذكريات الجميلة ضاع، فشدنا بعيداً عن الأشياء، إن أهمية الانتفاضة فى نظرى أنها علّمتْ الفلسطينيين ألا يهتموا بقشور الأشياء، أن كل شيء باطل إلا القدس، إلا الحرم، أما الأشياء فلا يهم، وماذا تفيد الأشياء - أى أشياء - إذا رخصت على الإنسان حياته، وإذا رخصت الحياة فما أغلى القدس التى أرخصتها !

علمتنا الانتفاضة يا ابنتى أن مشاكلنا توافه، وأننا بلا مشاكل حقيقية، وهل فقدان مال، أو ضياع فرصة، أو عتاب صاحب.. مشاكل ؟! لكننا لا نعرف كيف نعيش دون مشاكل.

وسأقرّب لكِ القصة، فى غزوة أحد، انهزم المسلمون، وهربوا إلى جبل أحد يحتمون به، وعندما وقفوا على الجبل، انتابهم غمٌّ رهيب، كيف يفقدون أمام عدو كافر كل هذا العدد من القتلى، وفى النهاية يفرون من وجهه. غمٌّ لا يحتمل، كيف عالجهم الله من هذا الغم الذى كان حتماً سيتسمر معهم وقتاً طويلاً، لا يغفرون لأنفسهم تلك الهزيمة وذلك الفرار ؟ حقاً كيف عالجهم الله عز وجل فى لحظة واحدة،كيف اقتلع منهم ذلك الهم ؟؟ سرت شائعة قوية، تردد صداها بين أنحاء الميدان، تقول قُتل رسول الله ﷺ ؟ عندما شاع هذا الخبر، أنساهم كل ما عداه، أصبح هذا الخبر هو الأشد إيلاماً على نفوسهم، لم يعد يحزنهم سواه، هانت

الهزيمة والفرار، وأصبح كل شيء غير هذا الخبر هيناً، وبذلك استل رب العزة من نفوسهم حزنهم النفسى لما حدث فى المعركة، وأصبح شغلهم الشاغل هو غمهم لإصابتهم فى شخص النبي، وبعد أن أصبح مصابهم بالنبي هو غمهم الوحيد، إذ بهم يرون النبي، ويتأكدون من أنه حيٌّ ، فتدب الفرحة الشديدة فى نفوسهم لنجاته، وبذلك خلصهم الله من غمهم الأول بإصابتهم بغمٍّ أكبر، ثم أظهر لهم كذب الغم الأكبر، فانتهت المحنة، وعاد بهم النبي إلى المدينة صابرين، راضين. يقول الله عز وجل:

﴿ فَأَثَٰبَكُمۡ غَمَّۢا بِغَمّٖ لِّكَيۡلَا تَحۡزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمۡۗ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ (آل عمران).

لقد وقف بعض المستشرقين على هذه الآية متهمين إياها بالتناقض، كيف يبدلهم عن غمهم بغم آخر ليمنع عنهم الحزن. ولو تأملوا الموقف لفهموا أن الله يضع فيهاأساساً مهماً من أسس العلاج النفسى، فلا تموت المشكلة إلا بالانشغال بمشكلة أكبر.

لقد فقد قطز حبيبته جلنار عندما باعها سيده، بعد أن عاش معها قرابة ثمانية عشر عاماً، منذ ولدا لم يفترقا، أتدرين عندما أراد شيخ الإسلام العز بن عبد السلام أن يعالجه ماذا فعل؟ شغله بقضية أكبر هى الوطن والدين. وإن كانت مصيبته هى فقد حبيبة، وهذا الفقد يشغل عليه كل صفحة حياته، إذ بابن عبد السلام يقول له: التتار والصليبيون نارٌ توشك أن تلتهم الوطن، والعرض، والدين. وقتها هانت حياة قطز عليه، وليس قلبه فقط. أصبح راغباً أن يموت ليفدى وطنه ودينه، أصبح مستعداً أن يفقد روحه وجسده معاً، وقلبه طبعاً.

وكان سليم البدري فى مسلسل ليالى الحلمية، ينصح ابنه الذى يعانى صدمة فشل حب، وهجرته زوجته، قال له: كن مثل أبيك، كنت متعلقاً بنازك السلحدار، لا أستطيع أن أبتعد عنها، فلما تركتنى، روّضْتُ نفسى أن أحب غيرها، فنسيتها، وتعلقت بتلك الأخرى، يعلمنا الخبير سليم البدرى خبرة هامة، أنك إذا أردت أن تتخلص من عشق امرأة فاشغل نفسك بغيرها، هكذا إذن، إن أفضل أسلوب للتغلب على المشكلة هو تقزيمها، هو جعلها تحتل جزءاً من الصفحة لا الصفحة كلها، هو وضع مشكلة أخرى أكبر منها جوارها، لتهون تلك المشكلة.

ابنتى.. ردى الأمور لله، فالله يساعد من يرد له المشيئة، فلا تنسى أن تقولى: دائماً إن شاء الله،فقد سأل كفار مكة رسول الله ﷺ أسئلة فقال لهم أجيبكم غداً، ولم يقل إن شاء الله، معتمداً على أن الوحى سينزل يجيب عليهم، فتأخر الوحي عليه ليكون درساً للأمة

بوجوب أن يرد كل منهم الأمور كلها لله: ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ (الكهف).

ويقال إن أهل يأجوج ومأجوج يحفرون السور الذى بيننا وبينهم فإذا رأوا شعاع الشمس، قال كبيرهم غداً نخرج، وفى الغد يجدون أن السور قد عاد لوضعه الأول ويحفرون من جديد. إلى أن يحين الموعد، فيقول كبيرهم غداً نخرج إن شاء الله، فيجدون فى الغد السور كما تركوه فيكملون ويخرجون. فلم يكتب الله لهم الخروج إلا بكلمة المشيئة.

قيل لجحا وهو ذاهب إلى السوق ليشترى جملاً، لم لا تقول إن شاء الله ؟ قال: المال فى جيبى، والبهيم فى السوق. فسرق المال منه، فسئل لماذا لم يشتر ؟ فقال: كان المال فى جيبى إن شاء الله، فذهبت إلى السوق إن شاء الله، وسرق المال إن شاء الله !! ورغم هزلية القصة إلا أنها تريد أن توضح أنه تعلّم الدرس حتى أصبح يردد المشيئة فى كل جملة.

افترت امرأةٌ على موسى عليه السلام، واتهمته بأنه اعتدى عليها، فاستحلفها موسى على ماقالت، فأخبرته أن قارون هو الذى سلّطها أن تفعل ذلك، فغضب موسى، ودعا على قارون، فأوحى الله إليه: إنى قد أمرت الأرض أن تعطيك فمرها، فقال موسى ياأرض خذيه فأخذته حتى غيبت سريره، فلما رأى قارون ذلك ناشد موسى بالرحم، فقال موسى: ياأرض خذيه فأخذته حتى غيبت قدميه، فمازال يقول ياأرض خذيه حتى غيبته فأوحى الله إليه: ياموسى وعزتى وجلالى لو استغاث بي لأغثته.

﴿ ٦ ﴾

دعينى أرسم فى نفسك النقية، تلك الصفحة البيضاء حدود مدينة مقدسة، النبل هو سورها. هذه الصفحة الرائعة كثيرون يُمنحونها، لكنها كثيراً ما تضيع منهم. كم من أشخاص كانوا أغنيات رائعة ثم أسكتهم الزمان، ولعل أحد أكبر الأسباب أن بعضهم لم يكن يعرف قيمة نفسه، لم يعرف من هو. أو عرف فاغتر، أو حُسد فانهالت الضربات عليه، فلم تتحمل نفسه الرقيقة تلك الضربات، أحدثك عن نبيل كأنه من العصور الوسطى، كان كل من يراه يتمنى أن يكونه، ثم أصبح يعيش مع نفسه كثيراً، ويتألم مما يفعله الآخرون معه، استعمل نفسه كثيراً، أجهدها وأهلكها، تصبح النفس المستعملة كثيراً مثل الثوب الذى يغسل كثيراً، يتآكل قبل أوانه، تصبح النفس الرائعة عاجزة أمام عدة ضربات تتحملها

نفوس أقل جودة، يتغير، يصبح آخر. لا علاقة له بالنبل، أو الصواب.

أرجو إذن أن تعرفى أن الله منحك نفساً رائعة الجمال، فحذارِ أن تضيع منك، وحذارِ أن تستعمليها كثيراً، ثمة أناس نحبها وتموت، وتدوم الحياة، لكن أن تتوقف حياتى من أجل إحياء الميت، فهذا باطل، لقد كنت أعجب بالمهلهل بن ربيعة لأنه أصر أن يثأر لأخيه، هذا جميل، لكن القضية تحولت إلى أبعد من الثأر، إلى الإصرار على إحياء القتيل أو تستمر المعركة،واستمرت المعركة أربعين عاماً، مات فيها كثيرون، هذا غير مطلوب، لا نسكت عن حقنا نعم، لكن لا نوغل في ثأرنا، وديننا يأمرنا بعدم الإيغال في الثأر، وأن يكون الأمر بالمثل واحداً بواحد، الإصرار على إحياء القتيل، أمر مستحيل يفسد على الإنسان حياته. لذلك من تتزوج من تحبه، ثم وهى تنزل عن المنصة، تصيبه رصاصة من طلقات الفرح، ماذا تفعل ؟ أندفنها معه كما كانوا يفعلون فى الهند ؟؟ بل تبدأ حياتها، ثمة امرأة حدث لها ذلك فاتجهت إلى الخدمة العامة، واهتمت باليتامى وأصبحت أكثر نفعاً وإيجابية لمجتمعها، إننا نريد أن يكون الحزن مُغيِّراً لحياتنا، لا أن نجلس لاستضافته. علينا أن نقابله كما نقابل عدواً، نتأهب للقضاء عليه لا للترحيب به.

أرفض أن يأتى الحزن فأفرش له نفسى بيتاً، ويقيم فيها،ويصبح سيدها، وقتها لا تبحثى عن نفسك، فقد استلبها منك، ولا تبحثي عن جسمك، فقد تآكل، ولا تبحثى عن عقلك، ولا تبحثى عنك، فأنت أصبحت عبداً لطاغية داخل مملكته الليلية، فلا سبيل إلى الهرب منه، وكيف يهرب إنسان من الظلام ؟ يهرب منه إليه. الحزن مملكة من الظلمة والغيبوبة، إن يدخل إليك فلا بأس، لكن لا يأخذك إليه، لا تستعذبي الحزن، ولا تستهينى بالأمر، ففى بدايته عذب، لكنه أشبه بالتدخين، نبدأه ونحن نظن أننا قادرون عليه، ويستفحل، حتى يتمكن منا، فإذا تمكن كان سرطاناً لا يمكن الخلاص منه، لقد استهان العرب باليهود، وظنوا أن الأمر أهون من التفكير فيه، وتركوا الحبل على غاربه، يأتون أو لايأتون، الأمر لا يستحق التصدي، فلما أحكمت اليهود قبضتها، اكتشف العرب أن كل شيء ضاع منهم، الأرض، والناس، والتاريخ، ويطمع اليهود فى المزيد. الحزن كذلك عدو خفى، إن دخل بإذنك، فيجب أن يكون لك رأى فى إقامته، بعد أيام اطلبى منه الرحيل، إن لم تفعلى، أصبح جسمك وطناً له، ولن تستطيعى بعد ذلك طرده، أعرف زميلة لك، ظلت تمزح، وتدعى خوف الامتحان، وهى قادرة عليه، لكنها لا تصد الخوف الصغير الذى لا يبين، وظل الخوف يكبر،وهى لا تقاومه، حتى جاء فى مرة لم تقدر عليه، لأنها لم تقاومه

عندما قدرت عليه. قلت لها وقتها: أنت مثل صبى ظل يستصرخ الناس لينقذوه من الغرق، فلما وصلوا إليه اكتشفوا أنه يمزح معهم، حتى جاءت مرة، فلم يحفلوا به لأنهم ظنوا أنه كعادته يمزح، فغرق هذه المرة.

من يتطوع بإعلان قدرتك على حل المشلكة قبل وجودها يتسبب في وجودها، فالمدرس الذى أراد هيبة مزيفة، فتحدى الفصل الذى لم يفعل شيئاً، بأنه سيمسح الأرض بالتخين فيهم.. كان يريد هيبة مزيفة ليخافوه، ولا يدرى أن الى يحصل على الهيبة ليس محتاجاً للتلويح بقدراته قبلها، هذا المدرس يخلق انفلات الفصل من يده قبل الأوان.

والزوج الحديث الذى يقف عند المشكلة الساذجة التى يقدر أن يفوتها، ويجادل فيها، وحجته أن يلقن زوجته أنه لا يغفر الأمور الصغيرة، هذا الرجل تصبح حياته بعد ذلك جحيماً لا يطاق، لأنها تصبح جدالاً سرمدياً في الصغيرة والكبيرة، مادمنا نستطيع أن نتلافى المشاكل، فمن الغباء أن نتصدى لها لإظهار قدراتنا على التغلب عليها. وصدق الحبيب الذى قال: الفتنة نائمة لعن الله من أيقظها.

ثمة رجل آخر أراد أن يبلغ امرأته رسالة أنه الرجل. ولا يحتاج الرجل إلى إرسال رسائل. فكان يخبرها أنها لو فعلت كذا لن يسمح، يفترض شيئاً مستقبلياً لم يحدث، ويقول لها حاولى أن تفعلى وانظرى ماذا يكون موقفى ؟ هذا لعب بالنار قد تخشى الزوجة ويكتسب مكانة مزيفة، وقد تتحداه، وتفعل ويكون أمامه أحد أمرين: إنهاء الحياة الزوجية والأسرة أو الانهزام فى صمت، ويكون الموقف سيئاً، بدلاً أن يكتسب هيبة عليها، فقد هيبته الموجودة.

لكن ماذا يفعل إنسان أصابته مصيبة ما ؟ إن يضع بجوارها ما يفوقها، يكتشف أنها ليست بمصيبة. كانت المرأة تفقد أهلها فى الحرب، فتسأل ماذا فعل رسول الله ؟ فإذا قيل بخير، قالت كل مصيبة بعدها جلل، أى هينة. ابنتى.. ماذا تفعل فتاة فقدت أباها الذى ترى فيه الدنيا كل الدنيا ؟ عليها أن تكونه.

كان لى زميل أسر لى أنه يتمنى أن يتزوج سعاد حسنى، ويرى هذا كل المنى، وكنت أسخر منه، لأنه أصغر منها بسنوات كثيرة، وكنت أفهم أنه يريد أن يتزوج سعاد حسنى الماضية التى يراها فى الأفلام، فهو يريد أن يتزوج فتاة فى العشرينيات من عمرها، وتمر الأيام، وتكبر سعاد، ولا تحتمل أن تعيش، ولا تقدر على مواجهة الناس، لأنها لا تستطيع أن

تتحمل أن يروها قد فقدت رونقها، فكان الجمال الشديد نقمة عليها، منعها أن تفعل ما يفعله أى إنسان، أو تعيش مثله.وعاشت ثمانى سنوات فى الخارج، تفكر كيف الرجوع إلى مصرٌ دون أن يراها أحد، سمعت أخاها فى حديث تليفزيونى يقول: كان لابد أن يحدث هذا، لأن المسألة كانت تبدو بلا حل، كلما اقتربت من الرجوع خافت، ولهذا أميل إلى الرأى بانتحارها، فهى تعيش مأساة الجمال الفائق، حاولت جهدها أن تستعيده، وفشلت المحاولات. لهذا نرى أن من يستند على نفى الانتحار: ينفى معتمداً: أنها مؤمنة، قوية، تجتهد فى العلاج، فالمجتهد فى العلاج لا ينفر من الحياة، لا يتشبث بها.أرسلت حقائبها على نية العودة. والحقيقة أن كل هذا يصب فى مجرى الانتحار، فالقول بالإيمان يعارضه عدم الرضا بالواقع، فلو كانت مؤمنة لرضيت بما أصابها، وحمدت الله، وجاءت لا تحفل بردود الأفعال، والاجتهاد فى العلاج، لأنها ترى هذا السبيل الوحيد لبقائها فى الحياة، إنها لا ترى حياتها إلا من خلال هذا الثقب الضيق، أن تستعيد جمالها، ففعلت كل ما تستطيعه لاستعادة ذلك الجمال، وأرسلت الحقائب، ونظرت فى المرآة، فوجدت أن الصورة مازالت مخيفة فلم تتحملها، وقررت أن تهرب من هذه الصورة التى لا تريدها، وإذا حمل الإنسان وجهاً لا يطيقه، ماذا يفعل ليتخلص منه ؟؟ إن الذى يمنع الانتحار يعطى فى الوقت نفسه الرضا بالحال. وقد يقول قائل: ثمة أناس لا يرضون بحالهم ولا ينتحرون. وهذا حقيقى لأنه لم يقطع الأمل من تغيير الحال. لكن أن لا يرض بحاله، ويقطع الأمل فى تغييره فهو فى طريقه إلى الانتحار، فلا يمنعه إلا الإيمان، والإيمان يعنى التسليم والرضا بالحال. لم يكن الهدف أن نحلل موت سعاد حسنى، لكن دون أن أخبرك برد فعل عاشق سعاد حسنى أسألك أنت بعد أن عرفت النهاية: أيكون محظوظاً لو تحقق ما كان يراه مستحيلاً وتزوجها ؟؟

إننا نحتاج إلى بعض الحزن، ليهذّب مادية نفوسنا، لكن كل الحزن يزهق النفس، الحزن كالسم، بعضه يصلح النفس، والكثير منه يهلك النفس. أشم فيك رائحة الجنة، فاحذر من إبليسها: الحزن يا ابنتي هو إبليس فلا يخدعك ويخرجك منها.

العزيزة حنان.. اجعلى هذه الكلمة القصيرة دستوراً لحياتك: لكل شيء مقياس:

فمقياس الصواب: أن تعصى هواك وتترفعى عما تريدين، أن تخالف هواك. فالنفس تقودك إلى الخطأ فإذا أردت الصواب فخالفها.

ومقياس الإيمان: أن تسوءك سيئتك وتسرك حسنتك

- أن يكون الله ورسوله أحب إليك مما سواهما.

- أن يكون الاخر كأنك أنت، فتحببين لغيرك ما تحبينه لنفسك، وتكرهين له ما تكرهينه لنفسك.

ومقياس النبل: ● ألا تقدرى أن تفعلي الصغائر.

ومقياس الإخلاص: ● أن تتصرفي بعيداً عن الآخرين كأنهم معك.

ومقياس الكمال: ● أن لا تتحدثى عن إحسانك إلى الآخرين، ولا تتحدثي عن إساءةتهم إليك.

ومقياس الجنة: ● أن يكون فرحك لما يخرج من يدك أكبر من فرحك لما يدخل إليها.

﴿ ٥ ﴾

احرصى أن يكون لك حجرة فى قلب كل من يعرفك، واحرصى أن تكونى أنت حجرة الجلوس لكل أصدقائك، يفتخرون بك، ويتباهون.

كنت أتمنى أن أطيل، لكنك كنت متعجلةً على الكلمة. فمعذرة أيتها النبتة الطيبة. وكونى دوماً شجرةً طيبة، وكونى دوماً نهراً يعطى. وكونى دوماً نوراً. وكونى كاسمك أماً حنوناً، معطاءةً، لا تعرف سوى العطاء، ولا تحفل بمن يأخذ، ولا تنتظر مقابلاً.



(الكلمة الثامنة عشرة)

ابن الغد

الكلمة الثامنة عشرة:

ابن الغد

ولا أجد في ختام الكتاب أفضل منك عزيزي القارئ لأهدى إليه الكلمة الأخيرة، كنت أودُّ أن أهديها إلى ابنى أحمد، لكنى أرى كل منكم أحمد، فعندما أهديها إليك لم أحرمه منها، فآثرت أن تكون لك وهو منك.

وقد ارتكنت في هذه الكلمة على بعض الأقوال المأثورة الخاصة بي، عندما كنت في شبابي، وكانت شبه هواية لى أن أسجل مستخلصات ما يمر أمام عينى من أحداث سواء وقعت لي أو لغيرى. وقد كنت أود أن أكتفى بشرح تلك الأقوال والتعليق عليها، لكنى آثرت أن أقدمها في شكل محاور أعمدتها تلك الأقوال.



المحور الأول: الذات:

كن نفسك. ظاهرك هو باطنك، فوالله لو لم تكن إلا كذلك لكنت نعم الرجال، إذا كان ما تحب أن يراه الناس منك هو نفسه ما يختفى داخلك. وقتها فأنت تحقق صفة الرقيب في الله، فإذا لم يكن أحد يراك فأنت كما أنت، أراد **عمر** أن يختبر صبياً يرعى الغنم لسيده، فطلب منه أن يذبح له شاه وقال له: قل لسيدك أكلها الذئب، فقال الصبي فأين الله ؟ وسمعها عمر مرة أخرى من صبية تقول لأمها بائعة اللبن التى طلبت منها أن تمزج اللبن بالماء، فقالت لأمها: قد منع أمير المؤمنين ذلك، فقالت الأم: وأين منا أمير المؤمنين الآن ؟ فقالت الفتاة: **إن كان أمير المؤمنين لا يرانا فالله يرانا**. وصدق رسول الله ﷺ : **الاحسان أن ترى الله، فإن لم تكن تراه فهو يراك.**

كل صباح حياة جديدة، وبداية جديدة، **الإنسان زمن لذا يولد كالصباح كل صباح، فلا تضيع الوقت فهو مسام جسمك !!**

وكل فشل أفقدك ما معك، لم يفقدك ذاتك، فابدأ من جديد، فهذا عثمان أحمد عثمان

تأمم شركته ويبدأ من جديد، فيصبح كياناً عملاقاً، وهذا محمد الفايد تُؤمم أملاكه مرتين، ويبدأ من جديد فلا يعرف كم ثروته. إني أرى أن العظيم يجب أن يكون كالكرة المطاط كلما ضربت في الأرض، ردت بنفس القوة في الاتجاه المقابل وهو السماء .

إذا أردت أن تصل إلى ما تريد، فلا تخف، **فليس ما تخاف منه بأسوأ من الخوف.** فلعل الطريق الموصل للهدف يحتاج منك إلى تهيئة نفسك لقبول ما تخافه. وقتها تتحرك إلى هدفك دون خوف، فتصل إليه. أما لو استمررت نحوه بالخوف، فالخوف كالمتحرك إلى الخلف. ويقولون اليأس راحة..

ارض، فالرضا غنى، **ألايكفى لترضى عن يومك تمنيك كل يوم عودة الأمس؟ ؟**

ما كان الأمس بالأمس إلا اليوم، فمادمنا نرضى عن الأمس، فهذا يعنى أن اليوم الذى كنا وقتها نشتكى فيه كان جميلاً، فلماذا حرمنا من الاستمتاع بجماله وقتها، ورأيناه جميلاً في وقت نحن فيه مستاءون. ويمكن أن نرى القولة بشكل آخر: كل يوم نعيشه اليوم هو أمس في الغد، فمادام الأمس جميلاً، فاليوم الذى نحياه الآن جميل لكننا لن نرى جماله إلا بعد أن يمر. **وسوف تعرف أن السعادة كانت فى يدك.. عندما تخلو يدك منها..**

ولهذا دعنا نكون عقلاء، فبدلاً من أن ننتظر ضياعها، وبعد الضياع نكتشف أنها كانت في يدك، ومن ثم لا نجنى من وجودها شيئاً، بدلاً من هذا، تعال نفترض أنها موجودة الآن، ونتعايش معها، واللهِ لو في الغد: كانت سعادة فقد عشتها، ولو لم تكن فلم تشعر بالشقاء : **فالسعادة هى اعتقادك بوجودها.**

فلا تتعجل. **فالله لا يخلق الموهبة هباء.** فكل موهبة تصل إلى مكانتها إلا لو تعجل صاحبها، فيكون هو العائق الذى يقف في وجه موهبته .

وفي ختام هذا المحور: أريدك يابني ظاهرك باطنك، منسجم مع طبيعتك الزمنية، تؤثر الخسارة عن الخوف من حدوثها، ترضى بيومك.



المحور الثاني: الأعداء:

إن من ينشغل بالآخرين لا يتقدم نحو النجاح، حتى تواصل نجاحك لابد أن تواصل

عملك ولا يشدك عنه شيء، لو دخلت في مهاترات معهم لتثبت لهم أنك ناجح، فقد انشغلت عن مواصلة النجاح. وإن كان ما فعلته هو النجاح حقاً فهم يعرفونه وينكرونه فلماذا تحاول أن تثبت لهم ما يعرفونه ؟ وإذا كان هدف المناقشة أن يعرفوا فهم يعرفون، هل رأيت يوماً النهار يحاول أن يثبت أنه نهار، هو نهار. هل يثبت الصياد للنعام المنكر وجوده أنه صياد ؟ لا، بل يصطاده. **فلايؤلمك أن يحقدوا على نجاحك.. أوجعهم بمزيد من النجاح.**

إن المنكر لنجاحك أحد اثنين: حاقد، وهذا علاجه أن تزيد من نجاحك لأن زيادة الحقد تزيده هلاكاً. أو غير مصدق، وهذا لو واصلت نجاحك يتحول إلى مناصر لك، ويحاول أن يكفر عن خطئه في حقك. ويقول **أبو الأسود الدؤلي**:

حسدوا الفتى إذ لم ينالوا سعيَه فالقوم أعداءٌ له وخصوم

لايقتلك غدر الآخرين، فيكفيك زهوا أنك لم تكن الغادر ! حقاً، كلما وجدت الآخرين سيئاً ازددت حمداً لله أنى لم أكن منهم. ودوماً أردد لأبنائي: أترضى أن تتبادل مع زميلك الغادر، فتكون أنت الغادر وهو المغدور به، فيستنكر الأمر ويرفض بشدة، فأقول له: إذن النعمة أنت الممنوحها وليس هو، والنعمة تقتضى السعادة والشكر لا الكآبة والضيق.

لقد كنتُ أكثر رحمة بنفسى، فى أحلك اللحظات والصدمات، كنتُ أتعرضُ للغدر ولا أقفُ عنده، أقول لنفسى: الحمد لله، لقد أنعم عليّ أكثر منه. بدليل أننى لا يمكن أن أقبل أن أتبادل معه الأماكن وأصبح أنا الغادر وهو المغدور به. ومن ثم لا يليق في اللحظة التى اكتشفتُ فيهاأني الأحسن أن أحزن، وأستاء، وأشكو، الصواب عكس ذلك تماماً، أن أحمد الله لأنى لم أكن نفساً سيئة.

التحدث مع الحمقى هزيمة. فالنصر ألا تجهد نفسك معهم. وقد قال الشاعر ينصح بالسكوت في محاورة الأحمق:

وإذا بُليت بجاهلٍ متغافلِ يدعو المحال من الأمور صـوابا

أوليته منى السكوت وربما كان السكوت عن الجواب جوابا

وقد قيل: لا تخاطب الأحمق، وإلا احتار الناس بينكما. إنك لن تقنعه لأنه أحمق، وقطعاً لن تقتنع بما يقول وإلا كنت أنت الأحمق وليس هو. ويقول **أبو تمام**:

إذا جاريتَ في خلقٍ دنيئاً فأنتَ ومن تجاريه سواء

ويقول الدؤلي

وإذا جريت مع السفيه كما جرى فكلاكما في جريه مذموم

وأنصحك بالابتعاد عن ثلاثة، وإن اقتربوا فلتكن عينك يقظى عليهم لا تستكين لهم، وتظنهم أصدقاء، ثم تأتيك الضربة قاصمة. أما الثلاثة: **الجاحد**، الذى مهما فعلت له، يقول لك لم تفعل لى شيئاً، فهو أرض أسفلتية مهما ترويها لا تنبت،وقد كنت في بداية حياتى يؤلمنى الجحود، ثم أصبحت ألقى بالجاحد وراء ظهري، فيكون أمامي ولا أراه. وليتك عندما تعطي تعطى لذات العطاء، وليس لذات الشخص، فإذا جحد الشخص صنيعك لم يؤلمك جحوده. وأنا **لم أكره في حياتي خصلة كراهيتي للجحود.. هو نوع من الكفر.**

والثاني **الأناني**: فابذل قصارى جهدك من أجل من تحبهم، وليكن الإخلاص ديدنك، فإن وجدت إنساناً لا يرى العالم سوى ذاته، فلا تضح من أجله، فمن لا يرى سوى ذاته أعمى القلب، فلا تقتل نفسك من أجله. **لاتفضل على نفسك من يفضل نفسه..**

والثالث: **الوصولي**: الذى يطلب الوصول بوسائل تحتية، فالأخير سيكون أكثر ارتفاعاً عنك، وسيصعد على كتفيك، وبعد أن يقف عالياً سيركلك في وجهك، وهو لا ينسى بينه وبين نفسه فضلك عليه، فهو حريص بعد ارتفاعه أن ينفي ذلك. سئلت مرة لماذا أميل إلى زميل دون الآخر فقلت: **وتجمعنى به، ولاتجمعنى بك الوسيلة الواحدة.فاحرص على نظافة الوسيلة.**

وفي ختام هذا المحور: إذا علمت ان عدوك يكره نجاحك، فكيف لا تشهره في وجهه ما يكرهه. لا تقابل العداوة إلا بالإمعان في طريقك نحو النجاح. وأن تبتعد عن ثلاث: (الجاحد، والأناني، والوصولي).

﴿٣﴾

المحور الثالث: مفاهيم وقيم:

في مفهومي أن **ألف باء العدل أن تضع نفسك مكان الآخرين**. قال ﷺ : **حب لأخيك ما تحبه لنفسك**. وقال: **لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحبه لنفسه**. فإذا أردت

صواب الحكم على غيرك، قبل أن تحكم عليه تخيل نفسك مكانه. فإن كنت في مثل هذا الموقف تنبرى لتبرير فعلك، فعليك أن تلتمس لأخيك العذر بمثل المنطق الذى تبرر به فعلك. وقريب من هذا السياق قولة أخرى: **اعذر الأخرين.. لاتفقدهم.**

قال الشاعر:

ومن لا يغمض عينه عن صديقه وعن بعض ما فيه يمت وهو عاتب
ومن يتتبع جاهداً كل عثرة يجدها ولا يسلم له الدهر صاحب

نعم ليس للحرية حدود. لكنها لو جارت على حقوق الغير فقدت ذاتها، لم تعد حرية، **فكن حرا بلا حدود دون أن تحيد..** وقد قيل: **إن حريتك تتوقف عند بداية أنفي**. وأنا أرى أن الإنسان السوى هو الذى يبحث عن حقوق الغير قبل أن يبحث عن حقوقه. فجوهر الحرية الذى إذا نُقص نُقضت: هو الحفاظ على حرية الاخرين.

وقد قال الشيخ **الشعراوي** أن أى قيود يقيدك بها الدينُ هى منافع لك، لأنه يمنعك أن تسرق الآخرين، ويمنع كل الآخرين أن يسرقوك، يمنعك أن تنظر إلى امرأة واحد، ويمنع كل البشر أن ينظروا إلى امرأتك، يمنعك أن تؤذي جاراً وفي المقابل تستفيد من منعه لكل الجيران من إيذائك.

يابني.. كل منا آدم جديد يحمل شجرته، فلا تلم أباك لأنه أكل من الشجرة..ثم تكرر ما تلومه عليه ..كثيرون يلقون باللائمة على الأب الأول لأنه أكل من الشجرة وأخرجهم من الجنة، يعانون إرهاق الحياة، ولا يدرون أن الله أعطى لكل ابن من أبناء آدم الفرصة نفسها، فالشجرة هى منهج الشيطان، وضعها الله في الجنة وقال لآدم الذى كان في داخلها: لا تأكل من الشجرة (لا تطع الشيطان) تبق في الجنة، فسمع كلام الشيطان وأكل فخرج منها. ثم قال لك: وأنت خارج الجنة، تلك هى الشجرة نفسها، لا تأكل منها أى تعصى الشيطان أدخلك الجنة، فهناك من لا يأكل فيحمد الله، ولا يلوم أباه آدم، وهناك من يأكل فيحس أنه بعيد عن الجنة فيلوم أباه، ولا لوم إلا على نفسه، لأنه كرر الخطأ، وآدم نفسه عندما خرج من الجنة لم يكرر الخطأ، بل خاصم إبليس إلى الأبد، ليرجع إلى الجنة ثانية عندما لم يأكل من الشجرة مرة أخرى عندما خرج من الجنة. وكأن من يلوم الأب الأول لم يستطع أن يكون مثله، فالأب الأول لم يكرر الخطأ خارج الجنة، وأنت علمت بقصة الآب الأول وكررت الخطأ. فأنت المخطئ وليس هو.

واعلم أن كل ما يمر بنا يستحق الحمد لكن لا ندري، فنحن **نحمد الله كثيرا إن نجونا من حادث،وكل لحظة تمر دون حادث هى نجاة من حادث.** في أحد الأيام أقبلت عليّ طالبة مرتعبة، قلت لها: ماذا بك ؟ قالت: كنت في سيارة أجرة ميكروباص، ثم حدثت مشكلة فنزلت من السيارة وركبت في السيارة التى بعدها، وأنا مقبلة وجدت السيارة التى نزلت منها قد عملت حادثة، والناس كلها مصابة أو ميتة.

قلت لها: احمدي الله، قالت: ماهو أنا بأحمد ربنا من لحظتها، لكن المنظر كان فظيعاً.

كأنها رأت نفسها في الحادثة،ولا تستطيع أن تنسى أنها كانت ستكون بين المصابين، وأنا لا أرجو لها أن تنسى، بل أرجو أن يتخيل الجميع نفسه كذلك، هى لم تتوقف عن حمد الله طيلة الطريق لأنها رأت الحادثة وتخيلت نفسها أنها ستكون من بينهم، لأنها كانت في نفس السيارة منذ لحظات. ولعلها لو لم تكن في السيارة نفسها ومرت على الحادثة ربما لم تحمد الله، لكن لأنها رأت دليلاً مادياً على نجاتها من الحادثة ظلت تحمد الله. وكأن الإنسان يحتاج ليتقين أنه قد نجا من حادثة أن يدخل بيتاً محترقاً ثم يخرج منه دون أن يصاب بأذى، أو يقع من عمارة عالية ثم لا يموت، أو يقع سلك من الكهرباء بجواره فيموت أحدهم ويفلت هو، نظرية النجاة من الصندوق. لابد من صندوق أولاً ويغلق عليه ثم يخرج منه، وقتها يفهم إن الإنقاذ تم فيتمتم بالحمد. وأنا أرى أن كل لحظة كان الإنسان عرضة لحدوث مصيبة بدليل أن غيره في تلك اللحظة قد تعرض لها، فنحن في الصندوق دون أن ندرى، فكل لحظة تجد نفسك صحيحاً فهى النجاة، وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم: من كان معافياً في بدنه فقد حاز الدنيا.

تعلم أن تحمد.. انظر كم من مصيبة في الحياة بعيدة عنا.. وانظر كم يدفع لنا أعمى لنعطيه عينينا.. وقتها تثق أنك تملك الكثير..

العفة يابني.. فقد تعودت أن أزهد فيما لا أقدر عليه، وأن أزهد فيما يضطرني إلى إراقة ماء وجهى، قد يتأخر وصولك أو لا تصل، لكنك تظل الأفضل، وقد أشهرت هذا المبدأ كثيراً ولم يخذلني أبداً، ولم أندم علي استخدامه: **إن تعف، فأنت على صواب.**

في نهاية هذا المحور أريدك عادلاً. تؤمن بحق الآخر قبل حقك، وتفكر فيما عليك قبل أن تفكر فيما لك، وأن تحمد الله في كل لحظة.

الإخلاص: أن تفعل كل ما تستطيع، لا أن تفعل ما يرضى عنه الناس، أن تتطوع بما

لا يخطر على بالهم، ألا تدخر جهداً يجهلونه. إن الإخلاص بالمعنى التطبيقى هو ما فعله العربي الذى أعطى إعرابياً كل ما معه على الرغم أن الأعرابي يرضى بأقل من ذلك بكثير، وقال قولته المشهورة: إن كان يرضيه القليل ، فأنا لا يرضينى إلا الكثير، وإن كان لا يعرفني، فأنا أعرف نفسى.

هذا هو الإخلاص.. ولو طبّق الإنسان الإخلاص في صورته القصوى، لطبّق كل المبادئ العليا.. الإخلاص هكذا هو الاتقان.. هو الكمال.

وقد لا نتجاوز، إذا أردنا الحديث عن العدل أن نتحدث عن الظلم، فالتنفير من الظلم حضٌّ على العدل. والظلم بتعبيري الخاص: **أن تأكل أكثر مما تحتمل معدتك**.. الظلم أن تضع الشيء في غير موضعه، الظلم أن تقضم أكثر من نصف التفاحة المقسمة بينك وبين أخيك..

قبل أن تفكر فيما تأخذه يدك، عليك أن تفكر فيما تعطيه اليد الأخرى.. فإذا اتفقنا أن الحق هو الخط المستقيم، فما فوقه فضل، وما تحته الظلم.. فإذا أخذت نصف التفاحة وأعطيت الآخر نصفها تماماً، فهذا هو الحق.. وإذا أخذت أكثر من نصفها فأنت تحت الخط أى الظلم، وإذا تركت له من حقك، فهذا هو الفضل.

الحق: لا لك، ولا عليك.

الظلم: أن تأخذ أكثر من حقك.

الفضل: أن تتنازل عن بعض حقك.

ولو تجسد العدل رجلاً لكان عمر بن الخطاب، ولم يصل إلى تلك المكانة بطريقة مجانية، فلم يصبح كذلك إلا لأنه قبل أن ينظر إلى حقه كان ينظر إلى حق الآخرين.وما أروع حفيده عمر بن عبد العزيز، عندما يعلم أن المسلمين فتحوا مدينة دون أن يعرضوا عليها شروط الإسلام (الإسلام، أو الجزية أو القتال) إذ بادر الجيش الإسلامي بالقتال وفتح المدينة، ودخل عدد من أهلها الإسلام، فلما علم عمر أن المدينة بودرت بالقتال دون أن تخيّر بين الاختيارات الثلاثة أمر بخروج الجيش خارج الأسوار، ويعرض عليهم شروط الإسلام.. كأنه مخرج سينمائي لم يعجبه المشهد فيعيد تصويره ثانية.. ولم يرتد من أسلم عن الإسلام، بل دخل الإسلام من كان متردداً فيه.

وهذا المسلم طعمة بن أبيرق يسرق، وتقع التهمة على اليهودي، ويقف الناس كلها تدين اليهودي الذى ضبطت السرقة في بيته، لكن القرآن يبرئ اليهودي ويدين المسلم، لأن الله ليس له علاقة نسب مع أحد، وإن كان مسلماً فإسلامه يجب أن يمنعه عن الخطأ، لا أن يفعله وندافع معه لمجرد أنه على ملتنا..

وعلى قلة عدد المسلمين في غزوة بدر، يأتي رجلان من المسلمين لينضما إلى جيش المسلمين، لكنهما يقولان للنبي ﷺ أنهما قد وقعا في يد العدو ولم يتركهما إلا بعد أن أقسما أنهما ليسا من جيش محمد، وهنا صرفهما الرسول، فبرغم قلة جيشه، إلا أنه رأى ألا ينظر لما يستفيده، بل أن يعطى للعدو حقه، لقد أخذ منهما يميناً، فأصبح حقه البر باليمين.

العدل أن تسارع لتمنع مكسباً يستقر في يدك، هذا التعريف ينادي موقف أبي حنيفة الذى هب من مكانه عندما رأى عامله يبسط أمام المشترى قائلا له: صلى على محمد ﷺ ، فوقف أبو حنيفة يرفض بيع الثوب.. قائلاً لعامله: لقد ذكرت ما يبهج النفس، وجعلت الثوب يحلو في عين المشترى عندما ذكرت ما يبهجه، فهذا الابتهاج قد يجعله يراه أكثر من قيمته ويرضى بأغلى من الثمن.

العدل أن يقول القاضى لعلى بن أبي طالب الذى جاءه رجل يقاضيه.. قم يا أبا الحسن فاجلس بجوار خصمك، فيغضب على.. ليس لأنه طلب منه أن يجلس بجوار خصمه، لكن لأنه قال له: يا أبا الحسن.. أى كرّمه في اللحظة التى كان يساويه بخصمه.

فالعدل أن تكون عينك عند النزاع تتسع للآخر، كأنك خرجت خارج نفسك، وتقف بين اثنين لتحكم بينهما بحق.

والخلاصة.. لو كل إنسان أسرع في دفع ما عليه سرعته في استقضاء ما له، لأصبح كل الناس عباداً للرحمن يمشون على الأرض هوناً.

ولو كل فرد قبل أن يفعل الفعل تذكر قولة الحبيب كما تدين تدان، وأيقن أن كل فعل مردود عليه، وعليه قبل أن يفعله أن يسأل نفسه أمستعد لاستقباله إن ألقى عليك كما تلقيه على غيرك ؟ وقتها يكتشف أنه لن يطيق حدوثه معه، وحدوثه أمر واقع لا يمنعه سوى أن لا يبادر بفعله.. هنا لا يوجد عاقل يبادر بالفعل..

تقدم ثلاثة حاتم والنابغة والنبتى لخطبة امرأة فطلبت منهم قبل أن تختار بينهم أن يكرموا الناس، ثم لبست ملابس جارية واستوهبتهم ما نحروا، فأعطاها النبتى والنابغة من أسوأ اللحم وأعطاها حاتم أجوده، فلما عادوا يطلبوا رأيها، دعت بالغذاء، وأمرت

إماءها أن يقدمن إلى كل رجل منهم ما أعطاها، فنكس الاثنان رأسيهما خجلاً. لأن فعلك إناء أنتَ منه شاربٌ.. فلتحسن تنظيف إناءك يطيب شربك.

كان محمد بن عبد الملك الزيات يقول: ما رحمت شيئا قط، وإنما الرحمة خور فى الطبيعة وضعف فى البنية. وتمر الأيام ويأمر المتوكل بقتله، ويضعه فى تنور حديد. فقال: ارحموني ياهؤلاء، قالوا: الرحمة خور فى الطبيعة وضعف فى البنية. حقاً !! الأيام دول، قرص رجل كتف امرأة، فرجعت إلى زوجها فقالت بالله عليك أصدقنى ما الذى فعلت اليوم من الذنوب، أقرصتَ كتف امرأة ؟ فدهش الرجل وقال: نعم، من أين علمتِ ؟ قالت: قد قُرص كتفى.

لقد كتب الله أن يكون للصوت صدى، هو صورة طبق الأصل من الصوت، وأفعالنا صوت لنا، سترد إلينا. هل يمكن أن تقف فى مرآة وتبصق فيها ؟ لا يمكن طبعاً، فالحياة مرآة تعكس لنا وترد علينا ما نقدمه لها. ضحكة بضحكة أو بصقة ببصقة. فانظر ما تحبه لنفسك وافعله مع الآخرين . بني. الغد مزرعة اليوم، وأنك كما يقول المثل العربي لا تجني من الشوك العنب، فإذا أردت أن يكون حصادك عنباً، فلا تزرع شوكاً.

﴿ ٤ ﴾

المحور الرابع: النجاح والعظمة

العجائب سبعة، والإنسان أعجبها،وهو قادر أن يحقق أي شيئ لو لم تقف نفسه في وجهه ! فكل من لم يصل إلى هدفه هو المقصر، حتى لو تكاتفت الدنيا ضده، فلولا أنه اتحد مع أعدائه ضد نفسه، لوصل إلى هدفه، لأن الله ينصر من يسعى إلى هدفه، ولا يكون عوناً على نفسه، فالله في عون المرء ما كان المرء في عون نفسه، ومادام الأمر كذلك، فكيف لم يصل والله في عونه ؟ لا إجابة سوى أنه عندما لم يصل لم يكن في عون نفسه.

فلا يعوق الإنسان عن الوصول إلى الهدف إلا الإنسان، وليس الظروف، بدليل أن هناك من وصل، فوصولهم دليل على فشل الظروف عن إعاقة أحد إلا من كان عنده استعداد للإعاقة. نفس الإنسان هى أكبر أعدائه، لأنها تحبطه، أماالعوائق فتستفزه. فالوهم والوقوف أمام النفس هى أقوى العوائق.

يجب أن تطلب الصعب، فلو أحب عنترة جارية مثله ما أصبح هذه الأسطورة: **لو**

كانت عبلة جارية، ماسمعنا عن عنترة.. اطلبوا الصعب..

ويجب أن تكون طموحاً قنوعاً، تطمح أثناء السعى إلى أعلى مكان، وترضى بعد السعى بما قسمه الله لك، ومادمت أثناء السعى: **فلا تكن كومبارساً.. فمنه كثير والغبار والذباب لايحس بغيابهما..**

ولا تعطى لجسمك راحة، فمن يجهد جسمه يرفعه، اجعل جسمك خادماً لك يوصلك إلى ما تريد، ولا تجعل نفسك خادماً لهذا الجسم: **خلق الجسم ليستهلك على الأرض، لاأن يدفن سليماً فى التراب.. وجبة دسمة للدود..**

ولا يوقفك الفشل، فالحياة كروية آخرها من جهة أولها من جهة أخرى، **الفشل آخر العالم، وآخر العالم أوله من الناحية الأخرى..** ولا تيأس لأنك وقعت في السفح، **فالسفح ليس آخر المطاف، فللسفح باطن !!** والأرض لن ترحمك إذا نمت على وجهك، ولتكن حياتك لآخر لحظة هى المحاولة إلى الصعود، إن هناك فرقاً شاسعاً بين من يسلم نفسه للغرق لأنه يثق أنه لن يصل إلى الشاطئ، وبين من يموت غرقاً وهو يقاوم الغرق بكل طاقته، كلاهما مات، لكن الفرق بينهما كالفرق بين العار والشرف، بين العتمة والنور، بين النار والجنة. ولهذا أرفض الإحباط، فالفشل هو أقوى وسائل الدفع إلى النجاح الساحق، الفشل يجعلك تشعر بالجوع، والجوع هو كالنار التى تجعل الإنسان يأتى بالنار من قرونه، يصبح جذوة مشتعلة لا تهدأ. وكثير من العظماء ستجد في حياتهم فشلاً ما، وربما من لم يفشل أخفى خبر فشله..

لا أرجو سوى الحركة بعد الفشل، واعلم أن كل الصفات السلبية السوداء: فالظلم. وكذلك اليأس. ضباب، والضباب لا يتبدد بالتنحي عنه، بل لابد من اقتحامه. ولا تحزن لخسارة، فلعل الخير في خسارتها، ولتنتظر الغد لعله يجيب لك حقيقتها نعمة أم نقمة: **ولماذا الحزن على خسارة ما.. مادام الغد مجهولاً..**



المحور الخامس: ابن الغد

والآن.. أختم هذا الكتاب.. بفكرة واحدة.. يمكن أن نسميها (ابن الغد):

إن الحكم يكون صحيحاً، إذا استطعت في الغد أن تزهو بهذا الفعل، قلت لتلاميذى

مرةً: مقياس الصواب للفعل هو الفعل الذى إذا فعلته ،. وبلغت من الكبر عتياً حكيته لأبنائك.

إذا أقدمت على فعل: فأسأل نفسك هل يمكن أن أحكى هذا الفعل لأولادي. إذا كانت الإجابة (لا) فإياك أن تفعل. وبالوقت ستجد نفسك محجماً عن كل فعل صغير دون أن تسأل نفسك هذا السؤال. إن يوسف الصديق عليه السلام عندما لم يهم بامرأة العزيز. سيحكى لأبنائه القصة.. أو قل يسعد ونحن نحكى عنه قصته.. فهل من يفعل عكس يوسف يمكنه أن يحكى.. وإن لم يفعل، هل يسعد والناس تحكيها عنه.

قبل أن تفعل أي شيء قل: هل هذا الموقف يشين الغد ؟ إن من يستخدم شهادة مزورة ليرتفع إلى منصب قبل الآوان، لن يطرده من هذا المنصب سوى تلك الشهادة. فضلاً عن الفضيحة، التى كنست كل ما حققه من مجد، بخلاف غيره الذى لم يتعجل المنصب وجاءه بشكل شرعي لا يوجد من يزحزحه عن منصبه..

كتبت قصة اسمها مراسلة تعبر عن شاب رفض الحياة السهلة اليوم لأنه لا يرضى في الغد أن يذكر تلك الغصة، كان يقول لنفسه: لو أصبحت وزيراً، أو سياسياً لامعاً: أليس أعظم أمانيه أن تختفى الغلطة التى ربما ساعدته على سرعة الوصول ؟؟ قبل أن تفعل الوسيلة السهلة تخيّل نفسك بعد الوصول: هل تقدم على ارتكابها في اللحظة التى تحرص على نصاعة ونظافة ثيابك البيضاء ؟؟

لو أن فتاةً قبل أن تقدم على علاقة مع زميلها في الجامعة، وسألت نفسها: ماذا لو أصبحت زوجة لأستاذى ؟ أكنت أسعد بوجود تلك العلاقة في ماضيي ؟ إن الإجابة بالنفى تعنى أن تلك العلاقة جريمة تتمنى في الغد أن تدفع الكثير لو لم تحدث، فهي قبل أن تبدأها تملك ما تتمنى دفع الكثير من أجل الحصول عليه. حقق أمنيتك في الغد بامتناعك عن فعل القبيح اليوم، فعندما يعرف أحد عنك زلة في ماضيك ستصبح كل مشكلتك أن تمحوها من حياتك.

إن النموذج الأمثل لشخصية ابن الغد الذي يحرص على صياغة يومه من خلال الغد هو طرفة بن العبد الذى يفتح له السجن ليهرب من مصير القتل، لكنه يرفض بقولته المأثورة: أتريدون أن يقال هرب طرفة بن العبد.. ؟؟

على الرغم أن الأمر البديل للهرب هو موته: لكنه لا يجيد إلا أن يكون ابن غده، لا يحتمل أن يفعل في يومه شيئاً لا يستسيغه في غده.

المتنبي: أيضاً عندما ذكر بالغد لم يجد بداً من الموت في هذا اليوم، لأن بديل الموت أن يفعل ما لا يهضمه في الغد، لقد رأى المتنبي من بعيد أعدائه، ففهم أن استمرار المسير تجاههم هو الموت نفسه، فأراد أن يحيد عنهم. فقال له خادمه: أتهرب وأنت القائل:

الخيل والليل والبيداء تعرفني   والسيف والرمح والقرطاس والقلم

فقال الخادم: قتلتني، قاتلك الله.. ومضى يطلب الموت، وبموته خلّد مبدءاً: إن ابن الغد لا يمكنه أن يفعل فعلاً اليوم لا يحتمله في الغد، حتى لو كان البديل هو الموت، فالموت أهون من أن يفعل ما يجعله يحتقر نفسه.. أو أن يفعل ما يهدم كينتونته.

والحقيقة أنه لا يستهون الموت، لأن الموت ليس فعله هو، كل ما هناك أن الأمر الذى ينجيه من الموت وعليه أن يخطو الخطوة إليه لا يقدر أن يفعله.. لأن فى فعله نفى لنفسه..

فإذا خيّر الإنسان بين الموت أو فقدان صفته الجوهرية التى هي نفى لذاته: فهو لا يختار الثانية، بل يقف عاجزاً أن يخطو خطوة واحدة إليها، حتى لو جاء قطار الموت وداس فوقه.. لا يحركه القطار، لأنه لا يمكنه أن يعيش بعد نفي شخصيته، كيف يعيش مع نفسه، وقد أصبح منفياً عنها، إن الذى يعيش شجاعاً طيلة حياته لا يمكنه أن يعيش أمام نفسه بعد أن فعل فعلاً جباناً.. كلما تذكر الجبن لا يحتمل نفسه.. لأنه ضرب في منطقة نفوذه وصفته المميزة. التى هو بدونها لا شيء..

إن توحده بصفته المميزة يجعله هو هي.. كلاهما واحد.. فقدان تلك الصفة تعنى انشطاره إلى اثنين أحدهما يقتل الآخر. هنا لا يرى أقسى من تلك المعاناة، حتى الموت القادم بأقصى سرعة ليس بنفس القسوة.. كأنه يموت حتى لا يموت.. إن موته هى محاولة مستميتة منه ليمنع شخصيته التى أحبها أن تموت.

يعرض مروان بن محمد آخر ملوك بني أمية على كاتبه عبد الحميد الكاتب أن يذهب إلى العدو، ويظهر الغدر به:

ـ قد احتجت أن تصير مع عدوي وتظهر الغدر بي، فإن إعجابهم بأدبك وحاجاتهم إلى كتابك تحوجهم إلى حسن الظن بك.. فإن استطعت أن تنفعني في حياتي، وإلا لم تعجز عن حفظ حرمي بعد وفاتي..

فقال عبد الحميد: إن الذي أشرت به عليّ أنفع الأمرين لك وأقبحهما بي، فستظل الناس تصفني بالغدر بك، وهكذا رفض عبد الحميد.. وآثر أن يموت معه وتحيا ذكراه ناصعة على أن يعيش بعده وسط عيون تحتقره. فلماذا رفض لأنه ممن ينظر بعين الغد..

وقال: ليس عندي إلا الصبر حتى يفتح الله تعالى عليك أو أقتل معك..

وهذا السؤال لو صدقت قصته - يخيّر بين ابنه وبين وفائه: فلا يقدر أن يكون بدون وفاء، ويذبح ابنه أمامه. لكن لا الموت ولا موت ابنه بقادر أن يدفع الإنسان ليكون ليس هو..

فشكَّ غير طويل ثم قال له: **اقتل أسيرك إنى مانع جاري**

ولعل هذا يفسر موقف عنترة مع النعمان. فقد عاش شجاعاً، لا يعرف عن نفسه سوى الشجاعة. الشجاعة كانت قوته الروحية التى تجعله يحب حياته. فلما وقع أسيراً، بدأ النعمان في إهانته.. والأسير بين القتل والعفو. والملك يدرى أن حياة الأسير بيده. كأن لسان حاله في تلك اللحظة يقول: إنا ياعنترة أحيي وأميت.. تحمل الذل إن كنت لا تريد الموت..

أما عنترة فقد رأى أن ثمن الحياة التى يرجوها من يد النعمان أمسى باهظاً لا يحتمله. يشترى زمناً قادماً لا يضمن أن يذهب إليه بكل حياته السابقة، بكل ما بناه فيها، بكل ما أحبه في نفسه.. أن يدفع في نفس لا يحبها نفسه التى أحبها.. أن يدفع في عمر قادم ذليل كل العزة التى من شدتها تشعره أنه قد أصبح أشد بياضاً من القمر.

من أجل ماذا يبيع نفسه ؟ ألكى يأخذ شخصية منفرة عكس ما يحب.. إن تلك الشخصية الذليلة، لا يريدها حتى لو لم يدفع من أجلها شيئاً.. بئس البيع..

وحسم عنترة الأمر مبكراً.. لن يبيع نفسه التى لا يكون عنترة إلا بها ببعض لحظات يكون فيها منفياً عن نفسه، حزيناً.. عارياً.. لن يبيع. سيقاتل من أجل صورة عنترة.. هو عنترة لآخر لحظة. وأى فائدة يجنيها عنترة ليحتفظ بنفسه التي ليست نفسه ؟ رد الإهانة للملك. وكأنه يحرّض الملك ليعجل بموته. إذن ربح البيع. وفاز عنترة بنفسه.. مادام الموت هو الطريق الوحيد للحياة فمرحباً به.

قال له الملك يومها: من أنت ؟ رد باستخفاف: أسيرك وتراني ؟ يقصد عنترة: ما هذا السؤال الغبي، الأولى أن تسألنى: من أى القوم أنت ؟ لأنك لا تريد منى في تلك اللحظة أن تعرف سوى صفتى الحالية التى تعرفها. ويفطن الملك لتلميح عنترة.. فيقول له..

- أقصد قومك إن كان لك قوم، وما أظنك إلا عبداً آبقاً !!

ويطلقها عنترة مدويةً: إنما العبد غيري..

والملك ومن حوله شيوخ العرب، كلهم غير عنترة.. إنما العبد غيري، وحدي لا أصلح

عبداً والباقون كلهم بما فيهم أنت يصلحون.. هكذا أصبح عنترة لا يضحى من أجل استمرار حياته بفقدان ملامح شخصيته المميزة. بل يسعى بإلحاح إلى ترسيخ تلك الملامح من خلال التعجيل بموته. ليتحول من خائف من الأمر بالموت إلى طالب للموت.

تحول الأسير من خانع يمعن في الذل ليطلب حياته إلى مصرٍّ يسعى بإلحاح إلى الموت. أصبح سعيداً باختياره. ويمعن في الاجتهاد فيه. لقد قيده الملك وأطلق الإهانات. والخيار: إذلالٌ ياعنترة أو الموت..

وقال عنترة: كلاهما موت. فلماذا شراء الموت بكل الحياة.. ؟؟ أيقبل الذل من أجل أن يعيش بعض الوقت حياة لا يريدها ؟ وماذا إذ أمر الملك بقتله بعد أن ارتضى الذل ؟ أيكون قد ذاق الموتين.. حسم عنترة موقفه إذن.. ورأى أن الموت الذى يحافظ له على حياته الساطعة هو الحياة لأنه يترك شمساً لا يقدر ليل على إطفائها.. هو يطلب الحياة عندما يصر على الموت..

واغتاظ الملك من الرد.. لأنه يريد أن يلف حبل الذل حول عنقه. فإذا بعنترة يصر على قطع الحبل بسكين رقبته.. وقال له الملك بغيظ:

- أكنت تريد أن تأخذ أنعامي وتمضى بها. أكنت تظن نفسك هارباً بها. سأقطعك إربا إربا وأرميك إلى الكلاب .. مكانك..

- أيها الملك رويدك.. إنى يائس من الحياة. فما يمنعنى من الرد علي ؟ واعلم أنه لن يضير أسيراً مقيداً أن يسب وهو مقيد بين حراس الملك.. لكن ينقص من الملك أن يرد عليه سبابه وسط ملئه.

تعجب الملك من جرأة عنترة عليه. لقد أتى به ليجعله عبرة. يلف حول عنقه حبل الموت ويجعله يلعق الذل. فإذا بعنترة لا يحفل بالحبل.. اشتد انفعال الملك..

- لص جرئ. أحمق

- لست لصاً أيها الملك إلا إذا كنت أنت ومن حولك لصوصاً. فأنا لم أفعل إلا ما تفعلونه فإذا كنت تسمى ما فعلته (الذى هو نفسه ما تفعلونه) لصوصية. فنحن جميعاً سواء

هكذا نفّذ الراغب في الموت تهديده. وأصبح لا يرجو ابتعاد الموت. بل يطلب الموت بإلحاح. فإذا بالموت يفر منه. هكذا كان دوما في ميدان القتال يطلب الموت فيهرب الموت منه.. وينتهى المحاورة بإعجاب الملك به. ويطلب صداقته.. فهل كانت تلك ستكون النتيجة لو تذلل إليه ؟؟ والله لو تذلل. وأنال الملك ما يتمناه من إذلاله لقضى الملك عليه بعدها..

ما الذى جعل عنترة يفعل ذلك ؟ ليس زهداً في الحياة. فهو يتشبث بالحياة لكنه يتشبث بالحياة التى يعرفها ولا يحب سواها. الحياة التى هو هي.. لم يستطع أن يقبل حياة غير التى عرفها. تشبث بالحياة التى يعرفها وعُرف بها.ولا يحتمل أن يعيش بدونها. ولا يعنيه الموت لو كان آخر ما رآه من نفسه هو نفسه..

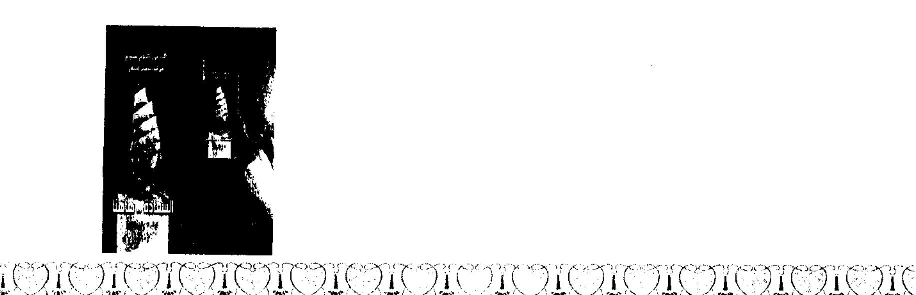
وقد يثور تساؤل.. أليس من الممكن أن يفعل الشيء الذى يخالف نفسه ؟ نعم لو لم ينتبه إلى ذلك. لو انتبه لن يقدر أن يفعل.. لن يستطيع أن يشد نفسه إلى عكس ما عاشه. فقد كان من الممكن أن يسكت خادم المتنبي وينطلق المتنبي هارباً بحياته ؟ وقتها بعد النجاة. لو نبهه الخادم لأحس بالضيق ولاجتهد أن يهرب من تلك اللحظة.

إن فكرة ابن الغد هى فكرة دينية في الأساس. فكل من يمتنع عن خطأ فإنما ينظر بعين الغد. يخشى الله فيمتنع عن الخطأ . يستحضر يوم الميعاد فيمتنع..

وتبني المجد ياعمر بن ليلى وتذكر في رعيتك الميعادا

وكل من يستحضر الميعاد هو مطبٌ لفكرة ابن الغد. لقد سمعت إن الإنسان يوم القيامة سيقرأ عليه كل أقواله وكتاباته. فقررت ألا أكتب قصة لا أحب أن أسمعها يوم القيامة.. وألا يخرج من فمي فحشاً لا أحب أن أسمعه يومها..

لقد جهز سيف الدولة لغده. فقد جمع نفض الغبار الذى اجتمع عليه في غزواته. وعمله لبنة بقدر الكف. وأوصى أن توضع هذه اللبنة تحت خده في لحده.. وهكذا كان..



فهرست



مسرد بالقصص

استبيان.. السعادة هاهنا

أعجبني في الكتاب	
	١-
	٢-
	٣-
	٤-

لم يعجبني فيه	
	١-
	٢-
	٣-
	٤-

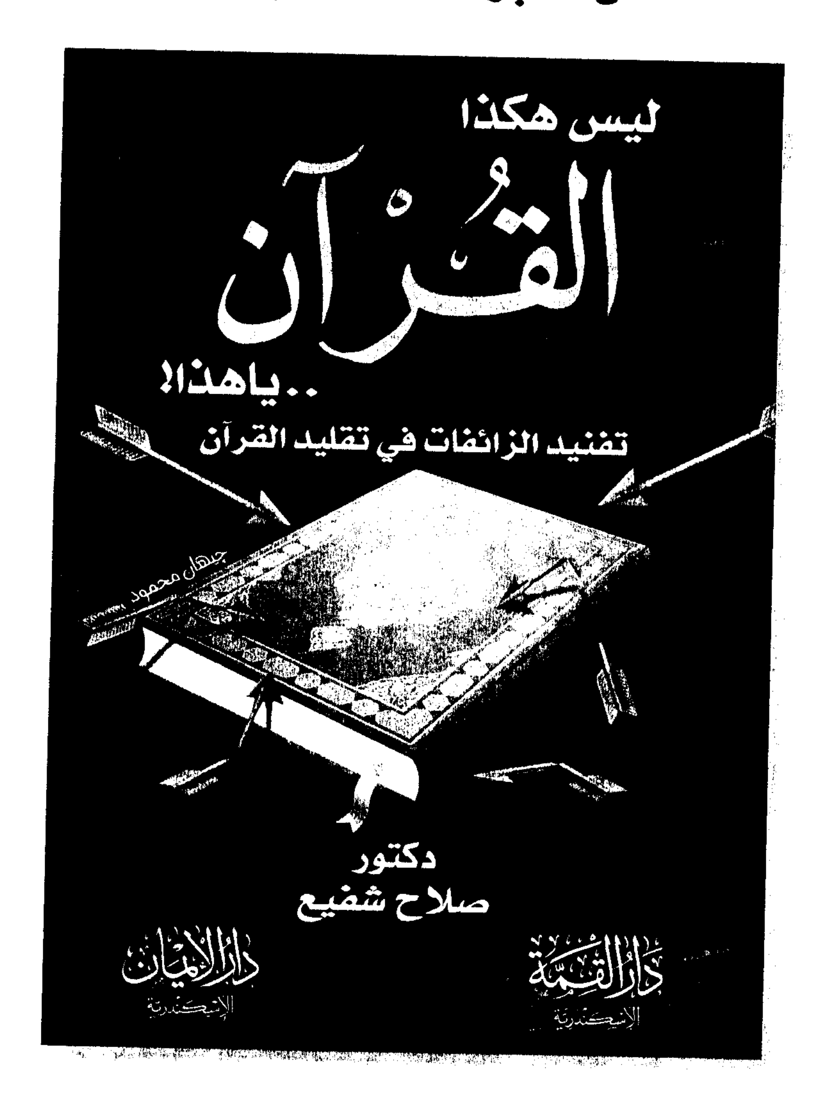
اقتراحات	
	١-
	٢-
	٣-
	٤-

أكثر كلمة أعجبتك	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠	١١	١٢	١٣	١٤	١٥	١٦	١٧	١٨
أقل كلمة أعجبتك	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠	١١	١٢	١٣	١٤	١٥	١٦	١٧	١٨

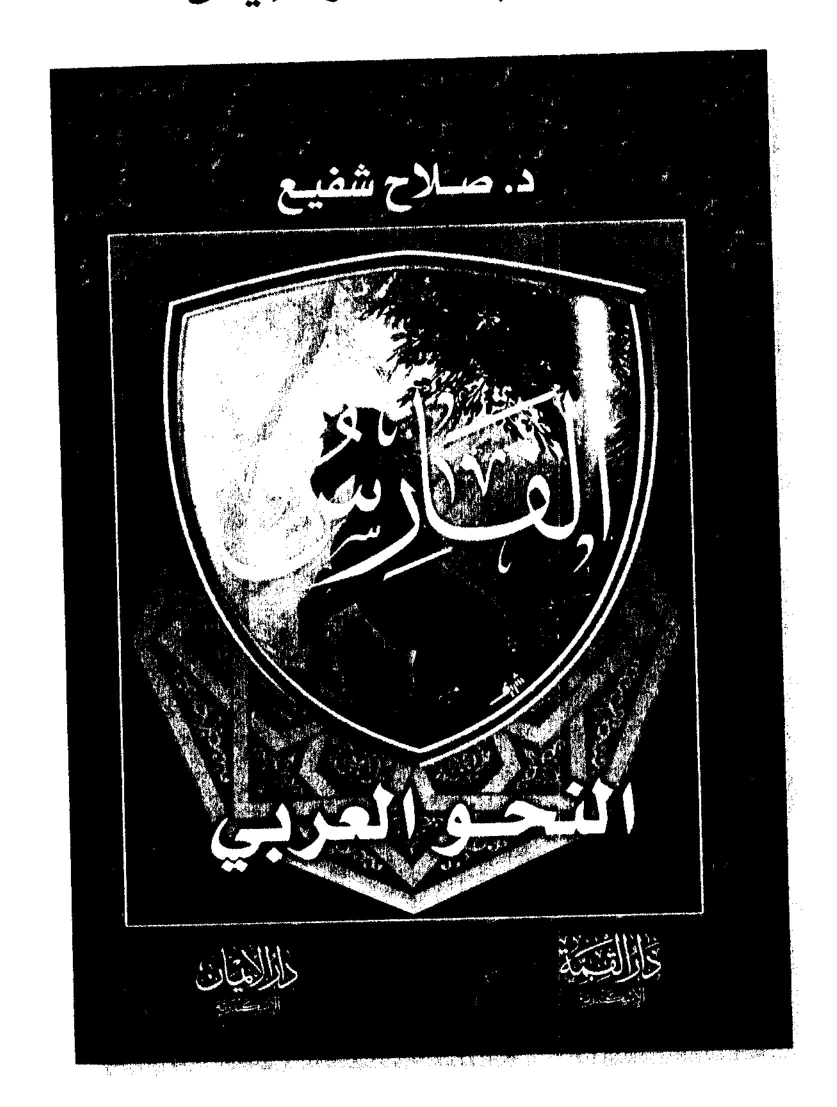
ترسل إلى : جمهورية مصر العربية - بلقاس - ميدان خطاب - مكتبة الفارس.

البريد الالكتروني : salah__sh__١@yahoo.com

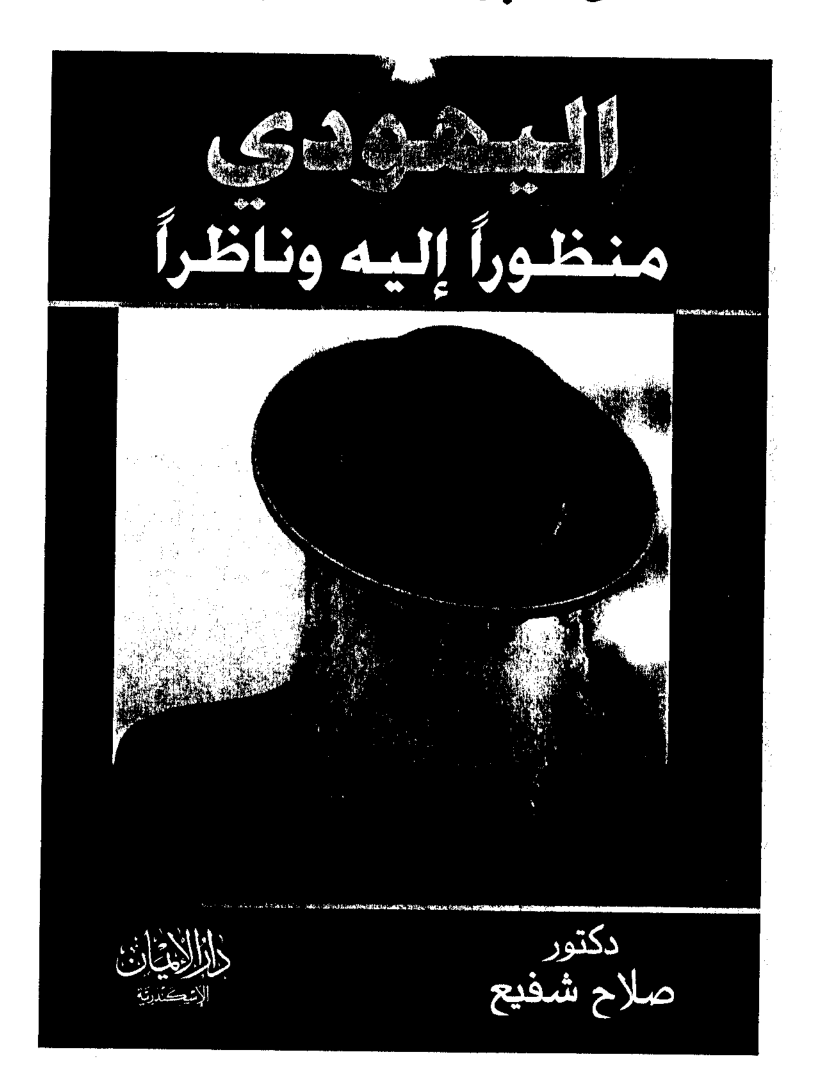
صدر للمؤلف
من مطبوعات دار الإيمان



صدر للمؤلف
من مطبوعات دار الإيمان



صدر للمؤلف
من مطبوعات دار الإيمان



تم بحمد الله

